

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر لويس الرابع عشر

تاريخ الحضارة الأوروبية
في عصر

بسكال وموليير وكروموك وملتن
وبطرس الأكبر ونيوتن وسبينوزا

١٦٤٨ - ١٧١٥

مراجعة
عائبة أدهم

ترجمة
محمد علي أبودرة



تونس

الجزء الثاني من المجلد الثامن

٣٢



بيروت

فهرس

الفصل السابع

كرومول ١٦٤٩ — ١٦٦٠

- ١ — الثورة الاشتراكية .
- ٢ — ثورة أيرلندة .
- ٣ — ثورة اسكتلندة .
- ٤ — أوليفر حاكما مطلقا .
- ٥ — ذروة البيوريتانية .
- ٦ — الكويكرز .
- ٧ — الموت والضرائب .
- ٨ — طريق العودة : ١٦٥٨ — ١٦٦٠ .
- ٩ — ويعود الملك ١٦٦٠ .

الفصل الثامن ملتون ١٦٠٨ — ١٦٧٤

- ١ — جون بنيان ١٦٢٨ — ١٦٨٨ .
- ٢ — الشاعر الغاب ١٦٠٨ — ١٦٤٠ .
- ٣ — المصلح ١٦٤٠ — ١٦٤٢ .
- ٤ — زواج وطلاق ١٦٤٣ — ١٦٤٨ .
- ٥ — حرية الصحافة ١٦٤٣ — ١٦٤٩ .
- ٦ — سكرتير الله اللاتينية ١٦٤٩ — ١٦٥٩ .
- ٧ — الشاعر المعجوز ١٦٦٠ — ١٦٦٧ .
- ٨ — السنوات الأخيرة ١٦٦٧ — ١٦٧٤ .

الفصل التاسع عودة لللكيه ١٦٦٠ — ١٦٨٥

- ١ — الملك السعيد .

(ب)

- ١١٢ — ٢ — مرآة الدين .
١٢٣ — ٣ — الإقتصاد الإنجليزى ١٦٦٠ - ١٧٠٢
١٣٣ — ٤ — الفن والموسيقى ١٦٦٠ - ١٧٠٢ .
١٤٢ — ٥ — الأخلاق .
١٥٠ — ٦ — العادات .
١٥٦ — ٧ — الدين والسياسة .
١٦١ — ٨ — المؤامرة البابوية .
١٦٨ — ٩ — خاتمة الملهاة .

الفصل العاشر

الثورة الجليلة ١٦٨٥ - ١٧١٤

- ١٧٥ — ١ — الملك الكاثوليكي ١٦٨٥ - ١٦٨٨ .
١٨٦ — ٢ — الاطاحة بالعرش والملك فى الهد .
١٩٣ — ٣ — إنجلترا تحت حكم وليم الثالث ١٦٧٩ - ١٧٠٢ .
٢٠٣ — ٤ — إنجلترا فى عهد الملكة آن - ١٧٠٢ - ١٧١٤ .

الفصل الحادى عشر

من دريدن إلى سويفت ١٦٦٠ - ١٧١٤

- ٢١٢ — ١ — صحافة حرة .
٢١٥ — ٢ — المسرحية فى فترة عودة الملكية .
٢٢٩ — ٣ — جون دريدن - ١٦٣١ - ١٧٠٠
٢٣٩ — ٤ — فى ثبت واحد .
٢٤٤ — ٥ — إيفلين وبييز .
٢٥٠ — ٦ — دانيال ديفو ١٦٥٩ - ١٧٣١
٢٥٥ — ٧ — ستيل وأديسون .
٢٦٨ — ٨ — جونatan سويفت .

الكتاب الثاني

انجلترا

١٦٤٩ — ١٧١٤

الفصل السابع

كرومول

١٦٤٩ — ١٦٦٠

١ — الثورة الاشتراكية

بعد أن أطاح البيوريتانيون (المتطهرون) برأس الملك شارل الأول ، في ٣٠ يناير ١٦٤٩ ، واجهوا مشاكل إقامة حكومة جديدة وإستعادة أمن الناس على حياتهم وممتلكاتهم ، في إنجلترا التي أشاعت فيها الفوضى والاضطرابات الحرب الأهلية التي دامت سبع سنين . ونادى « البرلمان المبتور » Ruinp. p — وهم الأعضاء الستة والخمسون النشطون الذين بقوا من البرلمان الطويل بعد « حركة تطهير برايد » (١٦٤٨) — بأن لمجلس العموم السيادة والمقام الأول ، وأن فيه الكفاية ، وألغى مجلس اللوردات (٦ فبراير ١٦٤٩) ، كما ألغى الملكية ، وعين بمثابة جهاز تنفيذ له « مجلسا للدولة » يتألف من ثلاثة لواءات وثلاثة نبلاء وثلاثة قضاة وثلاثين من أعضاء مجلس العموم ، كلهم مستقلون — أى بيوريتانيون جمهوريون . وفي ١٩ مايو أقام مجلس العموم ، بصفة رسمية ، الجمهورية الإنجليزية : « ولسوف يتولى الحكم في إنجلترا منذ الآن ، بوصفها جمهورية أو دولة حرة ، السلطة العليا للأمة ، وهم ممثلو الشعب في البرلمان ، ومن يعينونهم إلى جانبهم من وزراء ، لخير الشعب »^(١) ، ولم تكن الجمهورية ديموقراطية . لقد طالب البرلمان بإقامة أساس ديموقراطي ، ولكن طرد الأعضاء الملكيين أثناء الحرب ، والمشيخيين (البرسبترين) في حركة التطهير ، كان كما قال كرومول ، « قد شئت البرلمان وغربله واختلجه إلى مجرد حفنة من الرُجال »^(٢) .

إن للملاك وحدهم هم الدين كانوا ينتخبون البرلمان في الأصل ، أما الآن فإن مقاطعات برمتها باتت وليس لها ممثلون في «البرلمان للبنتور» ، ولم تستند سلطة هذا البرلمان للبنتور إلى الشعب بل إلى الجيش . فإن الجيش وحده هو الذي استطاع أن يحميه من الثوار للساكنين في إنجلترا ، والثوار الكاثوليك في إيرلندة ، والثوار للشيخين في اسكتلندة ، والثوار للمتطرفين في الجيش نفسه .

ولمواجهة نفقات الحكومة ومتأخرات رواتب الجند اشتط هذا البرلمان في فرض الضرائب قدر ما فعل الملك الراحل . واقترح مصادرة أملاك كل من حمل السلاح دفاً عن شارل ، ولكنه في معظم الحالات أرتضى تسوية الأمر بحل وسط ، هو تقاضى غرامة تماثل جزءاً يتراوح بين العشر والنصف من القيمة الأساسية للضريبة . من أجل هذا عهد كثير من صغار النبلاء الذين طأوا الفقر والعوز في إنجلترا إلى الهجرة إلى أمريكا حيث كونوا أسرات أرستقراطية ، مثل آل : وشنجطن ، وآل راندولف ، وآل ماديسون وآل لي (*) . وأعدم بعض زعماء الملكيين ، وأودع بعضهم السجن . ومع ذلك بقيت حركة الملكيين تقض مضاجع الحكومة ، لأن روح التعاطف مع الملكية سيطرت على الشعب ، فإن إعدام الملك حوله من جاني ضرائب إلى شهيد . وبعد عشرة أيام من موت شارل ظهر كتاب عنوانه «صورة ملكية» لمؤلفه القسيس للشيخى جون جودن ، ولكنه يوهم بأنه أفسكار ومشاعر شارل كما دونها هو بيده قبل موته بزمان وجيز . وربما صيغ بعض هذا الكتاب من مذكرات تركها الملك (٢) . ومهما يكن من أمره ، فإن الصورة التي عرضها الكتاب هي صورة حاكم طيب القلب كان في واقع الأمر يدافع عن إنجلترا ضد طغيان أقلية حاكمية (أوليجاركية) غليظة القلب

(*) جددت الحرب الأهلية الأمريكية الحرب الأهلية الإنجليزية حيث سرخت أبناء الارستقراطيين الانجليز في الجنوب على أبناء البيوريتانيين الانجليز في الشمال .

لا ترجم . وطبع الكتاب ستا وثلاثين مرة وترجم إلى خمس لغات في سنة واحدة ، ولم تفلح الضجة التي أثارها كتاب ملتون «تخطيم الصور للقدسة» (١٦٤٩) في محو أثر كتاب جون جودن هذا ، وأسهم الكتاب في إثارة الرأي العام ضد الحكومة الجديدة . وشجع وكلاء الملكيين الذين شرعوا لغورهم في كل مقاطعة في إنجلترا يهيجون الشعور العام لا طاعة أسرة ستوارت . وقابل مجلس الدولة هذه الحركة ببث العيون والأرصاء على أوسع نطاق ، والاسراع في القبض على الزعماء الذين يحتمل أنهم كانوا يقومون بتنظيم ثورة .

وفي الناحية الأخرى كانت هناك أقلية من الأهالي وقسم كبير من الجيش ، يطالبون بديموقراطية شاملة بكل ما في السكاه من معنى . كما طأطب بعضهم بديموقراطية اشتراكية . وأمطرت السماء نشرات متطرفة . وأصدر الكولونيل جون للبيرن وحده مائة منها . ولم يكن ملتون في تلك الحقبة شاعراً بل مؤلف نشرات وكتيبات . وهاجم للبيرن كرومول على أنه طاغية مرئد منافق . وشكا أحد الكتاب من « أنك قلما تحدثت إلى كرومول في أي موضوع إلا وضع يده على صدره ورفع عينيه وقال اللهم فاشهد . أنه سوف يبكي ويعمرخ ويبدي الندم ، حتى وهو يسدد إليك ضربة تصيب منك مقتلاً (٤) . » وفي إحدى النشرات تساءل كاتب آخر : « كان يحكمنا من قبل الملك واللوردات والنواب ، أما الآن فيتولى الحكم فينا قائد الجيش والمحكمة العسكرية والنواب ، فقل لنا بربك ، ما هو الفرق ؟ » (٥) وأحست الحكومة الجديدة بأنها مضطرة إلى تشديد الرقابة على الصحف والمنابر . وفي أبريل ١٦٤٩ قبض على للبيرن وثلاثة آخرين لأصدارهم نشرتين تصفان إنجلترا وهي « مكبله في أغلال جديدة » . وهاج الجيش مطالباً بالافراج عنهم . وتوعد نساؤهم كرومول بالويل والثبور إذا مس المعتقلون بأذى . وأرسل للبيرن من سجنه إلى طابع نشراته ، متحدياً ، إتهاماً بالخيانة العظمى « موجهاً ضد كرومول وأبرتون » . وفي أكتوبر قدم الكتاب الأربعة إلى المحاكمة في قضية أثارت اهتمام الرأي

العام وشدت الآلاف من الناس إلى المحكمة . وتحدى للبيرن القضية ، وطالب بعرض القضية على هيئة المحلفين . فلما صدر الحكم ببراءة الكتاب الأربعه جميعهم انطلقت من الجمع الحاشد صيحة مدوية جماعية ، يعتقد أنه لم يسمع مثلها قط في دار البلدية ، استمرت نحو نصف ساعة بلا إنقطاع ، حتى علا الشحوب وجوه القضاة من شدة الفزع (٦) وظل للبيرن لمدة طامين بطل الجيش . وبقى في ١٦٥٢ ثم عاد في ١٦٥٣ فقبض عليه ثانية ، ثم برىء (أغسطس ١٦٥٣) ، ولكنه ظل مع ذلك سجيناً . وفي ١٦٥٥ أفرج عنه وقضى نحبه ١٦٥٧ ، وهو في الثالثة والأربعين من العمر .

وذهب بعض « أنصار المساواة » (حزب نشأ في البرلمان الطويل ١٦٤٧ يدعو إلى إزالة الفوارق بين الناس) إلى أبعد مما ذهب إليه للبيرن والديمقراطية ، فدعوا إلى توزيع السلع توزيعاً أقرب إلى المساواة . أنهم تشاءلوا : لم يكون هناك أغنياء وفقراء ؟ لماذا يتضور بعض الناس جوعاً على حين يحتكر الأغنياء الأرض ؟ . وفي أبريل ١٦٤٩ ظهر « نبي » يدعى ولیم إفرارد Everard ، وقاد أربعة من الرجال إلى تل سان جورج في سرى . ووضعوا أيديهم على بعض الأرض غير المشغولة ، وفلحوها ، ونثروا فيها البذور ، ودعوا الناس إليها . فانضم إليهم ثلاثون آخرون من جماعة « الحفارين » (وهو اسم أطلق عليهم) . وأنهم سلكوا في تقرير إلى مجلس الدولة ، ليهددون الجيران بأنهم سيعملون الجماعة كلها على القدوم وشيكاً إلى التلال للعمل فيها (٧) . « ولما سبق إفرارد للشول أمام نقيب الجيش سيرتوماس هيرفاكس ، أوضح له أن أتباعه قد اعتزموا احترام الأملاك الخاصة ، « وأنهم لن يقربوا إلا الأراضي العامة غير المفلوحة ليعملوا فيها حتى تؤتي ثمارها ، « وأنهم يأملون » في أن يحين فجأة الوقت الذي يأتي فيه كل الناس طائعين مختارين وينزلون من أراضيهم وضياعهم ويندفعون لجماعة الأخيار هذه (٨) . « فما كان من هيرفاكس إلا أن أخلى سبيل الرجال على أنهم أفراد متمسبون لا يخشى منهم أي أذى . وتابع أحدهم — وهو

جيرارد ونستائلى - الحركة ببيان أصدره فى ٢٦ أبريل ١٦٤٩ ، تحت عنوان « لواء نصير المساواة الصادق يتقدم إلى الامام » : « فى البدء جعل العقل (الخالق العظيم) الأرض مسكناً عاماً مشتركاً للحيوان والإنسان ، ولكن الإنسان فيما بعد عميت بصيرته فأصبح عبداً أكثر خضوعاً لبنى جنسه من خضوع حيوانات الحقل لشخصه هو ، وجرى التصرف فى الأرض بالبيع والشراء ، وأحاطها بالحكام بالحواجز والأسياج ، وبقيت فى حوزة فئة قليلة من الناس . وكل ملاك الأرض لصوص ولن تنقطع الجريمة والكرامية والبنغضاء ما لم تسترد الملكية العامة المشتركة (٩) . وفى « قانون الحرية » (١٦٥٢) توسل ونستائلى إلى الجمهورية أن تقيم مجتمعا لا يوجد فيه بيع ولا شراء ، ولا محامون ، ولا أغنياء ولا فقراء ، يجبر فيه الجميع على العمل حتى سن الأربعين ، وبعد ذلك يعفون من السكدح . ويباح حق الانتخاب لكل البالغين من الذكور ، ويكون الزواج إجراء مدنياً ، والطلاق حراً مباحاً (١٠) . وتختلى « الحفارون » عن مشروعاتهم ، ولكن دعاتهم نفذت إلى عقول الفقراء الإنجليز ، وربما عبرت القنال إلى فرنسا ، وعبرت المحيط إلى أمريكا .

أن كرومول نفسه ، وهو من ملاك الأرض ، وهو الشديد الخبرة بطبيعة الإنسان ، لم يثق فى هذه المثل العليا فى الملكية العامة ، بل لم يثق حتى فى حق الاقتراع للبالغين . وفى فترة الفوضى التى لامعدى فيها ، عقب قلب أية حكومة ، تدعو الحاجة إلى شيء من سلطة مركزة فى بعض الأيدي ، وقد تمثلت فى كرومول ، وأن كثير ممن أوغر صدورهم منه اعدام الملك ، رحبوا لبعض الوقت بدكتاتورية بدت البديل الوحيد للإفلال الاقتصادى والسياسى بل أن الجيش نفسه ، حين ترامت إليه ألباء الثورة المضادة التى تدبر فى أيرلنده واسكتلنده ، ضممه الفرح إذ أيقن أن يد كرومول الحديدية على أتم استعداد لقيادته ضد العصاة والثوار الذين

لم يسعوا وراء « يوتوبيا » أو دنيا مثالية ديمقراطية ، بل وراء عودة ملكية تشار وتمتقم .

٢ — ثورة أيرلنده

في أيرلنده وحدرد الفعل ضد الثورة الكبرى ، بشكل عابر ، بين البروتستانت في اقليم (The Pale) في شرق أيرلنده حول دبلن والكاثوليك فيه وفيما وراءه . فقد حدث حتى قبل اعدام شارل الأول ، أن وقع أرل أورموند جيمس بتلر ، بوصفه نائب الحاكم في أيرلنده ، مع اتحاد الكاثوليك في كلكني Kilkenny (١٧ يناير ١٦٤٩) وافقوا بمقتضاها ، وفي مقابل الحرية الدينية وبرلمان أيرلندي مستقل ، على تزويده بخمسة عشر ألفا من المشاة وخمسمائة من الجياد . وبعث أورموند برسالة إلى أمير ويلز ، الذي اعترف أورموند لفوره بأنه شارل الثاني ، بدعوه فيها للقدوم إلى أيرلنده ليقود جيشا مشتركا من البروتستانت والكاثوليك . وآثر شارل الذهاب إلى اسكتلنده ، ولكن كرومول اعتزم أن يواجه تهديدات أيرلنده أولا .

وحين حط كرومول رحاله في أيرلنده في أغسطس ، كانت القوات الموالية لجمهورية قد هزمت بالفعل أورموند في راثمينز ، وتراجع هو مع ما تبقى من قواته (٢٣٠٠ جندي) إلى مدينة دروجيدا المحصنة ، الواقعة على نهر بوين . فحاصرها كرومول بعشرة آلاف جندي وافتحمها واستولى عليها عنوة (١٠ سبتمبر ١٦٤٩) وأمر بقتل من من بقي حاميتها على قيد الحياة (١١) . ولم يفلت من المذبحة بعض المدينين ، وقتل كل قسيس في المدينة (١٢) ، حتى بلغ عدد ضحايا المذبحة المنتصرة نحو ٢٣٠٠ . واشترك كرومول في شرف النصر مع الله : « أرجو أن تنسب انقلب الطاهرة هذا المجد إلى الله الذي يرجع إليه الفضل في هذه الرحمة حقاً (١٣) » وتضمني .

أن تساعد هذه المحنة كثيرا على حقن الدماء بفضل كرم الله (١٤) .
وإننا لنشاركه رجاءه المخلص في أن تضع مثل هذه الضربة الواحدة من
الإرهاب حدا لثورة ، وتنقذ حياة الكثيرين من الجانبين .

ولكن الحرب استمرت ثلاثة أعوام آخر ، فان كرومول تقدم من
دروجيدا لحصار وكسفورد ، واستولى عليها ، واتى ١٥٠٠ من المدافعين
عنها ومن سكانها مصرعهم . وقال كرومول « أن الله ، بشيء من عناية
إلهية غير متوقعة ، في هذه القويم ، قد أنزل بهم حكما عادلا حيث
كفروا بدمائهم عن أعمال القسوة الوحشية التي اقترفوها ضد حياة الكثيرين
من البروتستانت المساكين (١٥) » . ولكن سياسة المذابح أخفقت فان
مدينتي دنكانون وووترفورد تمحدا حصار كرومول . واستسلمت كلكني
لمجرد أنها تلقت شروطا كانت مرفوضة في أى مكان آخر ، وتم الاستيلاء
على كلونمل ولكن بعد فقد ألني رجل . وما أن ترامى إلى كرومول بأ
وصول شار الثاني إلى اسكتلنده حتى ترك مواصلة الحرب في إيرلنده لعهده
هنرى أيرتون ، وأبحر هو إلى انجلترا (٢٤ مايو ١٦٥٠) .

وكان أيرتون قائدا قديرا ، ولكنه مات بالطاعون في ٢٦ نوفمبر ١٦٥١ .
وبذلت سياسة المذابح ، وصدر العفو عن اللثوار ، وبمقتضى معاهدة
كلنكني (١٢ مايو ١٦٥٢) استسلموا جميعا تقريبا ، شريطة السماح لهم
بالمهجرة دون طائق . وفي ١٢ أغسطس صدر « قانون التسوية في أيرلنده » ،
الذى ينص على مصادرة كل ممتلكات الأيرلنديين أو بعضها — أيا كان
مذهبهم — ممن يعجزون عن اثبات أنهم كانوا موالين للجمهورية ، وبهذه
الطريقة انتقلت ملكية نحو مليونين وخمسمائة ألف فدان (أكر) من
أراضي أيرلنده إلى جنود أو مدنيين إنجليز أو أيرلنديين كانوا يناصرون
كرومول في أيرلنده . وبهذا انتقل ثلثا أرض أيرلنده إلى أيدي
الإنجليز (١٦) . وانضمت مقاطعات كلدار ودبلن وكارلو وكلو ووكتفورد

لثقل « Pale » أو إقليم إنجلترا جديداً في أيرلنده ، وبذلت محاولات لإقصاء كل ملاك الأرض الأيرلنديين أياً كانوا ، ثم المواطنين الأيرلنديين عن هذه المقاطعات . وجردت آلاف الأسرات الأيرلندية من أملاكها ، وأعطوا مهلة نهايتها أول مارس ١٦٥٥ ليجدوا لأنفسهم وطناً آخر . وشحن المئات منهم على ظهور السفن إلى بربادوس ، (جزر الهند الغربية) أو أما كن أخرى بتهمة التشرد .

وقدر سير ولیم ربي أنبه من بين سكان أيرلنده البالغ عددهم ١٤٦٦٠٠٠ ر في ١٦٤١ ، كان قد هلك حتى ١٦٥٢ نحو ٦١٦٠٠٠ بسبب الحرب أو للموت جوعاً أو الطاعون ، وقال أحد الضباط الإنجليز : في بعض المقاطعات « قد يسير للمرء عشرين أو ثلاثين ميلاً دون أن يجد مخلوقاً على قيد الحياة ، إنساناً أو حيواناً أو طائراً » وقال آخر : « إن الشمس لم تشرق قط على أمة أشد تعاسة من هذه (١٧) » . وحرّم المذهب الكاثوليكي بحكم القانون وصدرت الأوامر إلى رجال الدين الكاثوليك بمغادرة أيرلنده في بحر عشرين يوماً ، وكان الموت عقوبة من يخفى أياً منهم ، وفرضت عقوبات صارمة على التخلف عن حضور الطقوس البروتستانتية يوم الأحد . ومنح القضاة والحكام سلطة جمع أطفال الكاثوليك وإرسالهم إلى إنجلترا لتلقى أصول المذهب البروتستانتى (١٨) . إن كل الوحشية التي لقيها البروتستانت على يد الكاثوليك في فرنسا بين ١٦٨٠ — ١٨٩٠ ، صيها البروتستانت على رؤوس الكاثوليك في أيرلنده بين ١٦٥٠ — ١٦٦٠ . وأصبحت الكاثوليكية جزءاً لا يتجزأ من الروح الوطنية الأيرلندية ، لأن الكنيسة والشعب قذف بهما في بحران من المعاناة والشقاء . وعلقت هذه السنين المريعة بذات كرة أيرلنده وكأنها تراث من البغضاء لا يفنى .

٣ — ثورة اسكتلندة

صعد الاسكتلنديون باعدام شارل الأول الذي كانوا هم أنفسهم قد أسلموه إلى البرلمان الانجليزي ، وطاد إلى ذاكرتهم فجأة أن والده كان اسكتلنديا . ورأوا في «تطهير برايد» الذي أخرج المشيخيين (البرسبترينز : كنيسة بروتستانية يدير شئونها شيوخ منتخبون يتمتعون جميعا بمنزلة متساوية) من البرلمان الطويل ، نقضا « للعصبة المقدسة والميثاق المقدس » الذي أقسم فيه ذلك البرلمان يمين الإخلاص لاسكتلندة والمذهب المشيخي ، وأوجسوا خيفة من أن يحاول البيوريتانيون المنتصرون فرض مذهبهم البروتستانتى على اسكتلندة كما فرضوه على إنجلترا . وفى ٥ فبراير ١٦٤٩ ، أى بعد مضى أقل من أسبوع على أعدام شارل الأول ، نادى البرلمان الاسكتلندى (مجلس الطبقات) بأبنة شارل الثانى ، الذى كان آنذاك فى الأراضى الوطيئة ، ليكون الملك الشرعى على بريطانيا العظمى وفرنسا وأيرلندة .

وقبل أن يجيز الاسكتلنديون لشارل الثانى الدخول إلى اسكتلندة طلبوا إليه أن يوقع للميثاق الوطنى وعهد العصبة المقدسة والميثاق المقدس ، ويقسم يمين الحفاظ على المذهب المشيخي أو إقامته فى كل أرجاء ملكه وفى بيته . على أن شارل الذى كان يدين بالفعل بمزيج من الكاثوليكية والتشكك ، لم يكن يروقه مذهب المشيخية ، فى الوقت الذى كان يتوق فيه أيما توق إلى العرش ، فوقع على كره منه ، كل هذه المطالب فى « بريددا » فى أول مايو ١٦٥٠ . وقاد مونتروز ، أنبل الاسكتلنديين فى ذاك العصر - قوة صغيرة من جزر أوركنى إلى اسكتلندة ، أملا فى أن يجمع لشارل جيشا مستقلا عن الميثاقين المشيخيين ، ولكنه هزم وأسر وأعدم شنقا (١١ مايو ١٦٥٠) . وفى ٢٣ يونيه حط شارل رحاله فى اسكتلندة ، وهو يتألف على أن يكون على رأس جيش يغزو به الجمهورية البيوريتانية التى أطاحت برأس

أبيه ، وقبل أن يهب الاسكتلنديون لنجدته ، استحثوه على إصدار بيان يرغب فيه « أن يركع في ذلة وخشوع أمام الله تسكفيرا عن معارضة أبيه للمصبة المقدسة والميثاق المقدس ، ومن أجل خطيئة أمه بسبب عقيدتها الوثنية (أى اعتناقها الكاثوليكية) » (١٩) . « وللتكفير عن خطيئات شارل الأول والثانى فرض رجال الكنيسة الاسكتلندية على الجيش والشعب صوما جادا رهيبا ، وأكادوا للجيش أنه لن يقهر ، (٢٠) لأن الملك الشاب قد أرضى السماء . وتحت إلحاح القساوسة طهر الجيش من الضباط الذين وضعوا ولائهم للملك فوق ولائهم للميثاق والكنيسة الاسكتلندية ، وبهذه الطريقة طرد ثمانون من أقدر القواد .

واقترح كرومول على البرلمان الانجليزى غزو اسكتلنده فى الحال ، دون إنتظار هجوم من جانبها . واعتزل فيرفا كس آنذاك القيادة العليا لجيوش الجمهورية ، وكان قد رفض الاشتراك فى محاكمة شارل الأول ، وعين كرومول خلفا له ، فنظم قواته بعزيمته وحجته للمهودتين ، وعبر إلى اسكتلنده (٢٢ يولييه ١٦٥٠) ، على رأس ١٦ ألف رجل . وفى ٣ أغسطس أرسل إلى لجنة الجمعية العامة للكنيسة الاسكتلندية رسالة زاخرة بالشجاعة والثبات والقدرة على الاحتمال : « هل كل ماتقولون يلتئم إلتثاما لاشبهة فيه مع كلمة الله ؟ أتوسل إليكم ، بحق أحشاء المسيح ، أن تفكروا فى أنفسكم قد تكونون خطئين (٢١) » . وفى دنبار (٣ سبتمبر) أوقع بالجيوش الاسكتلندية الرئيسية هزيمة منكرة وأسر عشرة آلاف رجل ، وسرطان ما استولى على أدنبره وليث . وانهارت مكانة الوعاظ الاسكتلنديين ، وتبدد زعمهم بأنهم معصومون من الخطأ . واستدعى الضباط المطرودون على عجل ، وتوج شارل الثانى رسميا فى « سكون Scone » . أما كرومول فقد إلتابه المرض فى أدنبره ، وتوقف القتال بضعة شهور .

ثم تقدم الجيش الاسكتلندى بعد إعادته تنظيمه ، وعلى رأسه شارل ،

إلى إنجلترا ، أملا في أن ينضم إلى لواء الشرعية والحق ، كل الملكيين
والشيخين المخلصين . فتعقبهم كرومول ، حيث كان يحشد أثناء مروره
بالمدين الإنجليزية كل قوات الطوارئ ، والمواطنين الصالحين للجندية ،
وفي ووتر ، في ٣ سبتمبر ١٦٥١ ، دارت رحى المعركة التي أبتت على
الجمهورية ، وحكت على شارل بأن يلوذ بالمنفى مرة أخرى . وفيها ، بفضل
الاستراتيجية الفائقة والبسالة ، استطاعت قوات كرومول الأقل عددا ، أن
تهزم ثلاثين ألفا من الاسكتلنديين . وكان شارل شجاعا ولكنه لم يكن
قائدا . أنه بذل أقصى الجهد في أن يستحث ويلم شعث جنوده الذين اختل
نظامهم ، ولكن يبدو أنهم ذعروا وارتعدوا فزعا من ممعة كرومول محاربا
لم يخسر قط معركة ، فألقى كثير منهم السلاح ولاذ بالفرار . وتوسل شارل
إلى ضباطه أن يطلقوا عليه الرصاص فأبوا . واقتاده نفر من أشد أتباعه
اخلاصا إلى مكان آمن مؤقت في مقر أحد الملكيين . وهناك تجرد من شعر
رأسه إلى حد كبير ، وغير لون يديه ووجهه واستبدل بملابسه ثياب أحد
العمال ، وبدأ مسيرة طويلة ، على ظهر جواد ، وعلى قدميه ، متسللا من مخبأ
إلى مخبأ . ينام تحت سطوح المنازل أو في الحظائر والغابات . ونام مرة في
أحدى أشجار « رويال أوك » في بوسكوبل ، على حين كان جنود الجمهورية
يفتشون عنه تحتها . وكثيرا ما عرفه الناس ، ولكنهم لم يغدروا به أو
يكشفوا أمره . وبعد أربعين يوما من الفرار ، وجد هو ومرافقوه ،
في هورهام في سسكس ، قاربا ارتضى رباه ، غاملا بحياته ، أن ينقلهم إلى
فرنسا (١٥ أكتوبر) .

وعهد كرومول إلى القائد جورج مونك بالضرب على أيدي الشوار
الاسكتلنديين بصفة نهائية ، وتم هذا في فبراير ١٦٥٢ . وأخضعت
اسكتلنده لإنجلترا ، وحل برلمانها المستقل ، ولكن أجاز لها إرسال
ثلاثين نائبا عنها إلى برلمان لندن . وعوقبت الكنيسة الاسكتلندية بحظر

انعقاد جمعياتها العامة ، و اقرار التسامح الدينى مع كل الشيع البروتستانتية المسلمة . ومن الناحية الاقتصادية أفادت اسكتلنده من الحرية الجديدة في الإتجار مع انجلترا . أما من الناحية السياحية فقد ظلت ترقب دودة أسيرة ستيوارت وتدعو الله أن يحقق هذا الرجاء .

٤ — أوليفر هاكماً مطلقاً

ماد كرومول إلى انجلترا منتصراً انتصاراً يسكله التواضع . وإذ رأى الجموع التي احتشدت لتشهد مقدمه ، فقد جال بخاطره أن جمهوراً أكبر من هذا كان يمكن أن يحتشد ليشهد مصرعه على جبل المشنقة (٢٢) . ومنحه البرلمان المبتور راتباً سنوياً قدره أربعة آلاف جنيه ، وخصص له قصرأ كان يوماً ملكياً في هامبتون كورت . واعتقد البرلمان أنه سيقنع بالبقاء في منصب القيادة العامة . كما اقترح اجراء انتخابات جديدة ، لزيادة عدد أعضائه إلى ٤٠٠ ، على أن يحتفظ الأعضاء الحاليون بمقاعدهم دون الدخول في الانتخابات الجديدة ، وكان عليهم أن يحددوا شروط حق الانتخاب . وصحة الأصوات . وحى البرلمان نفسه ضد حملات النقد بالحد من حرية الصحافة والخطابة بشكل صارم : « لن يسمح باسم حرية الخطابة أو حرية الوعظ ، بأى شئ يمكن صفو الحكومة أو يسىء إلى كرامتها (٢٣) » . وحرّم رجال الكنيسة الأنجليكانية الرسمية من أرزاقهم وحكم بمصادرة ثائى ممتلكات من يعتنقون المذهب الكاثوليكي ، بصفة غرامة . وقدمت الجوائز لمن يقبضون على القساوسة الكاثوليك (٢٤) .

أن كرومول ، على الرغم من بطئه في اتخاذ قرار ، كان حازماً متأهباً لسرعة التصرف إذا اعتزم أمراً . وقد احتل في صبر نافذ المناقشات التي أفسدت السياسة في البرلمان وعوقت الإدارة . أنه اتفق مع شارل الأول على أن تكون السلطة التنفيذية متميزة ومستقلة عن السلطة التشريعية .

ثم بدأ يتساءل : ألم يكن خيرا وبركة أن يكون كرومول ملكا . ولمح بهذه الفكرة (ديسمبر ١٦٥٢) إلى صديقه هوaitلوك الذى فقد صداقته باعتراضه عليها (٢٥) . وفى صبيحة يوم ٢٠ أبريل ١٦٥٣ ، عندما علم أن البرلمان المبتور كان على وشك أن ينصب نفسه سيدا غير منتخب على البرلمان الجديد ، جمع حفنة من الجنود اتخذوا مواقعهم على باب مجلس العموم ، ودخل هو إليه ، وإلى جانبه اللواء توماس هاريسون ، وأصغى لبعض الوقت إلى المناقشة فى صمت رهيب . وعندما بدأ أخذ الأصوات على موضوع البحث ، نهض كرومول ، وتحدث أول الأمر فى اعتدال ، ومالبت حتى تحدث فى عنف ، فنعى على البرلمان المبتور أن يكون أوليغاركية (أقلية حاكمة) تخلد نفسها بنفسها ، لاتصلح لحكم إنجلترا . ثم صاح : « أيها السكارى » متجها إلى عضو بعينه ، ثم صرخ فى عضو آخر « أيها الداعر الفاجر » « أنتم لستم برلمانا . أقول إنكم لستم برلمانا . ولسوف أضع حدا لاجتماعاتكم » . ثم التفت إلى هاريسون وأمره : « استدع الجنود ، استدعهم إلى هنا » . ودخل الجنود إلى القاعة . وأمرم كرومول باخلاثها ، وغادرها الأعضاء محتجين قائلين :

« ليس هذا من الأمانة فى شىء » . ووضعت الأقفال على القاعة الخالية ، وفى اليوم التالى وجد معلقا عليها لافتة « بيت للايجار » غير مؤثث الآن (٢٦) . ثم ذهب كرومول بصحبة اثنين من القواد إلى حيث يجتمع مجلس الدولة ، وقال لأعضائه « إذا كنتم تجتمعون الآن بصفتكم الشخصية فلا بأس ، ولا يزعجنكم أحد — أما إذا كنتم مجتمعين كمجلس للدولة ، فلا مكان لَكُمْ هنا ... وأرجو أن تعلموا أن البرلمان قد حل (٢٧) » . وهكذا كانت كانت النهاية المخزية المزرية للبرلمان الطويل الذى كان قد اجتمع فى وستمنستر ، بكامل هيئته أو بشكله المبتور ، منذ ١٦٤٠ ، والذى كان قد حول دستور إنجلترا وحكومتها . ولم يعد هناك الآن دستور ، بل جيش وملك غير ذى لقب أو ملك غير متوج .

وكان الشعب بصفة عامة فرحا بالتخلص من برلمان كان قد جر إنجائرا إلى حافة الهاوية . وعلى حد قول كرومول ، لم يكن هناك « مجرد نباح كلب ، ولا تدمير ظاهر لحله (٢٨) » . وتقبل البيوريتانيون الغيورون المتحمسون حل البرلمان على أنه إفساح الطريق « للملكية الخامسة » أى مجيء المسيح المنتظر وحكمه وتشجيع الملكيون وتهامسوا بأن كرومول سوف يستدعى الآن شارل الثانى ، ويقنع هو بدوقية أو بمنصب نائب الملك فى أيرلنده . ولكن أوليفر لم يكن بالرجل الذى يرتضى أن يكون رهن مشيئته رجل آخر . فأصدر توجيهاته إلى معاويه العسكريين أن يختاروا - بصفة أساسية من الجامع البيوريتانية فى إنجلترا - ١٤٠ رجلا ، من بينهم خمسة من اسكتلنده وستة من أيرلنده ، ليجتمعوا على هيئة « برلمان معين » . ولما انعقد هذا البرلمان فى هويتهول فى ٤ يولييه ١٦٥٣ أعترف كرومول بأن الجيش هو الذى إختارهم ، ولكنه رحب بهم باعتبار أنهم يبدأون فترة يحكم فيها القديسون حكما صحيحا تحت رياسة يسوع المسيح (٢٩) ، وإقترح أن يخولهم السلطة العليا ، ويكل إليهم مهمة وضع دستور جديد - وظل هذا البرلمان طيلة خمسة أشهر يبذل أقصى الجهد فى إنجاز هذه المهمة ، ولكنه ضل الطريق فى متاهات المناقشة ، الطويلة . وإنشق الأعضاء على أنفسهم ، يأسا وعجزا ، فى موضوعات الدين والتسامح الدينى . وأطلق ظرفاء لندن عليه اسم « برلمان باربيون » ، نسبة إلى أحد أعضائه Barobone ، وهو أحد القديسين فى « الملكية الخامسة » سألقة الذكر .

وضاق الجيش ذرعا بهؤلاء الأعضاء ، كما ضاق من قبل ذرعا بمن طردهم فى أبريل . وعرض الضباط - وهم يمثلون دور أنطوائيو - على كرومول لأن ينصب نفسه ملكا ، وتردد قيصروا وإعترض فى رفق ، ولكن ثمانين من أعضاء البرلمان ، بإيحاء محدد من الجيش ، أعلنوا إلى كرومول فى ١٢ ديسمبر أن الجمعية الجديدة لم تصل إلى اتفاق ، وأنها تقترح على حلها . وعرضت « وثيقة حكومية » أعدها زعماء الجيش ، على كرومول أن يكون « حامى

جمهورية إنجلترا واسكتلنده وايرلنده ، وأن ينتخب برلمان جديد على أساس نصاب من الثروة يخول حق الاقتراع ، مع استبعاد الملاكين والسكائوليك ، وأن تكون السلطة التنفيذية في يد مجلس من ثمانية من المدنيين وسبعة من ضباط الجيش ، يختارون لدى الحياة ، على أن يعمل هذا المجلس بمثابة هيئة استشارية « لحامي حى الجمهورية » وللبرلمان ، كليهما . ووافق كرومول ووقع هذه الوثيقة ، وهى « أول وآخر دستور انجليزى مسطور (٣٠) » ، وفى ١٦ ديسمبر ١٦٥٣ أقسم اليمين بوصفه « حامي الحى » . وبذلك انتهت الجمهورية ، وبدأت الحماية — اسمان لأوليفر كرومول .

هل كان كرومول طاغية مستبداً؟ من الواضح أنه استساغ السيطرة والسلطان . ولكن تلك نزعة عامة ، وهى أمر طبيعى إلى أبعد حد فى الموهبة الواعية . لقد فكر من قبل فى تنصيب نفسه ملكاً ، وتأسيس اسرة ملكية جديدة (٣١) . ويبدو أنه كان مخلصاً حين عرض أن ينزل عن سلطته « للبرلمان المعين » . ولكن عجز هذا البرلمان أقنعه بأن سلطته التنفيذية هو نفسه هى آنذاك البديل الوحيد عن الفوضى فإذا تخلى هو ، فقد كان يبدو أنه ليس ثمة رجل آخر يحظى بتأييد كاف للمحافظة على النظام . واستنكر المتطرفون فى الجيش هذه « الحماية » باعتبارها مجرد « ملكية أخرى » . واتهموا كرومول بأنه « وغد منافق كذاب » وتوعدوه « بمصير أسوأ من المصير الذى لقيه الطاغية السابق (٣٢) » . وأرسل كرومول بعض هؤلاء المتمردين إلى السجن « برج لندن » ومن بينهم اللواء هاريسون الذى تولى قيادة الجنود عند طرد أعضاء البرلمان المبتور . أن خوف كرومول على سلامته هو نفسه أدى به شيئاً فشيئاً إلى اللزيد من الاستبداد ، لأنه أدرك أن نصف الأمة كان يمكن أن يهمل لقتله . إنه أحس ، مثل سائر الحكام ، بالحاجة إلى احاطة نفسه بمظاهر الفخامة والوقار التى تثير الرهبة فى النفوس ، فانتقل إلى قصر هويتبول (١٦٥٤) وأعاد تأثيثه بأفخر

الرياش ، واتخذ لشخصه كل الجلال وكل العظمة الملكية (٣٣) . ولكن بما لا ريب فيه أن كثيرا من هذه المظاهر كان لابد أن يخلق انطبعا قويا في نفس السفراء ، ويشير الفزع في نفوس الأهالي .

وفيما يتعلق بحياة كرومول الخاصة ، فإنه كان رجلا غير ميال إلى المظاهر والآبهة ، يعيش عيشة طابعها البساطة والإخلاص مع أمه وزوجته وأولاده . وأحبته أمه حبا ممزوجا بالخوف عليه ، ترتد فرقا على حياته لكل طلاقة نسمعا ، وعند وفاتها في الثالثة والتسعين (١٦٥٤) قالت : « ولدى العزيز إلى أترك قلبى معك » (٣٤) . أنه هو نفسه ، في أواسط الخمسينات من عمره ، كان يدب إليه الهرم بسرعة ، أن ما واجهه من أزمة تلو أزمة كان يهد من أعصابه التي قيل أنها حديدية . أن حملات إيرلنده واسكتلنده زادت الحمى على داء النقرس ، ولم يمر عليه يوم دون نصب أو قلق ورسم له المصور لى في ١٦٥٠ لوحة مشهورة . وأن كل انسان ليعرف تحذير كرومول للمصور حيث قال له : « مستر لى ، بودى أن تستغل كل ما أوتيت من مهارة في رسم صورة حقيقية مثل شخصى تماما ، ولا تملقنى على الإطلاق ، بل يجب أن تبرز هذه الخشونة والبثور والنتوءات وكل شيء ، وإلا ، فلن أنقذك فلسا واحدا » (٣٥) . وقبض لى أجره ، ورسم « حامى الحمى » في صورة مصقولة إلى حد بعيد ، ومع ذلك أبرز الوجه الصارم القوى ، والإرادة الحديدية كما أبرز روحا عصبية متوترة إلى حد الانفجار .

ووجه النقد إلى كرومول من أجل البساطة السكتية في لباسه العاذى - سترة ويزلة بسيطتان سوداوان - ، ولكنه كان في المناسبات الرسمية يرتدى سترة موشاة بالذهب . أنه بين الناس كان يحتفظ بوقار لا أثر فيه للتكلف أو التظاهر ، ولكن في حياته الخاصة كان ينصرف إلى ألوان الانطوائية والهداية والمزاج ، بل إلى مزحات مملية وهزل ماجن طارىء (٣٦) .

وأحب الموسيقى وعزف على الأرغن عزفا جيدا (٣٧). وواضح أنه كان ، حسب ما يبديه ، مخلصا في ورعه وتقواه (٣٨) ، ولكنه كثيرا ما استخدم اسم الله (لا عبثا) لتدعيم أهدافه ، إلى حد اتهمه معه الكثيرون بالنفاق . ويحتمل أنه كان ثمة بعض الرياء في تقواه العلنية ، وقليل منه في تقواه الخاصة ، مما شهد به كل من عرفوه . وكانت رسائله وخطبه نصف مواعظ ، ولا نزاع في أنه اعتبر ، بكل طيب خاطر أن الله هو ساعده الأيمن . . ولم تكن أخلاقياته الخاصة تشوبها شائبة ، على حين أن أخلاقياته العامة لم تكن تفضل أخلاقيات الحكام الآخرين ، فاستخدم الخداع أو القوة حينما رآهما ضروريين لأهدافه الكبرى . أن أحدا لم يوفق بعد بين المسيحية والحكم .

أن كرومول من الناحية الفنية ، لم يكن حاكما مطلقا . فإنه تنفيذاً ، لوثيقة الحكومة « التي أسلفنا ذكرها شكل « مجلس الدولة » وانتخب برلمانا . وعلى الرغم من كل مساعي حامى الحمى والجيش لضمان عودة النواب الذين تميزوا بالكياسة ولين العريكة ، ضم مجلس العموم الذى اجتمع فى ٣ سبتمبر ١٦٥٤ بعض الجمهوريين المزعجين ، بل كذلك بعض الملكيين . وثار النزاع حول من يسيطر على الجيش : حامى الحمى أو البرلمان . وإقترح البرلمان إنقاص عدد الجنود وأعطياتهم ، فتمردوا وحرضوا كرومول على حله (٢٢ يناير ١٦٥٥) . والواقع أن حكومة إنجلترا أصبحت دكتاتورية عسكرية منذ ظهر برايد البرلمان فى ١٦٤٨ .

وسيق كرومول آنذاك إلى الحكم طبقا للأحكام العرفية وحدها دون سواها ، وفى صيف ١٦٥٥ قسم إنجلترا إلى خمسة أقسام عسكرية . ووضع على رأس كل منها هيئة من الجند يرأسها ضابط برتبة لواء وللواء بنفقات هذه التجهيزات فرض ضريبة قدرها ١٠٪ على ضياع الملكيين . واحتج الناس ، وانتشر النفد والتمرد ، وصممت أصوات تمادى بعودة شارل الثانى . وأجاب كرومول على هذا كله بتشديد الرقابة والتوسع فى أعمال التجسس

والإعتقالات التعسفية وإجراءات قاعة النجم التي أغفلت المحلفين وقانونية الإعتقال . وكان « سيرهاري فين Vano » من الثوريين السابقين الذين اقتيدوا إلى السجن . إن الثورات تأكل آباءها .

ولما كان كرومول في حاجة إلى مزيد من المال أكثر مما استطاع تحصيله عن طريق ما فرض من ضرائب أخرى مباشرة ، فإنه دعا برلمانا آخر . ولما التأم عقده في ١٧ سبتمبر ١٦٥٦ ، وضع مجلس الدولة على باب مجلس العموم بعضا من ضباط الجيش ، ومنع دخول ١٠٣ من الأعضاء الذين إنتخبوا لإمتخابا صحيحا ، ولكن يشتبه في أن لهم ميولا جمهورية أو ملكية أو مشيخية أو كاثوليكية . فقدم الأعضاء المبعدون احتجاجا استنكروا فيه إبعادهم بأنه انتهاك صارخ لإرادة ناخبهم التي عدوا عنها ، ودمغوا بأشد النفاق « تصرف الطاغية وإستخدامه اسم الله والدين والصوم والصلوات العكسية ليستر قتمام الحقيقة الواقعة ومرارتها (٤٠) » . ومن بين الأعضاء البالغ عددهم ٣٥٢ الذين إجتازوا تمحيص المجلس ودقته كان هناك ١٧٥ عضوا من رجال الجيش أو من المعينين أو من أقرباء كرومول . وفي ٣١ مارس ١٦٥٧ قدم البرلمان المختزل المنتقوص الخاضع المذعن إلى « حامى الحمى » توسلا ونصيحة بتواضعين « يطلب إليه فيها أن يتخذ لنفسه لقب « ملك » . ولكنه كان يشمر رائحة المعارضة من جانب الجيش لهذا العمل ، فأبى . ولكن ثمة حل وسط أعطاه الحق في تعيين خلقه « حامى الحمى » . وفي يناير ١٦٥٨ وافق على إعادة الأعضاء المبعدين إلى مقاعدهم في مجلس العموم . وفي نفس الوقت اختار تسعة من النبلاء و ٦١ من العامة ليشكلوا المجلس الثانى (مجلس اللوردات) . ورفض كثير من ضباط الجيش تأييد هذه الحركة . وعندما عقدوا إتفاقا مع الجمهوريين في مجلس العموم لأحد من سلطات المجلس الثانى ، غضب كرومول غضبا شديدا وأقتحم قصر وستمنستر وطرده البرلمان (فى فبراير ١٦٥٧) . وأبذاك من الوجهة القانونية ، ومن حيث الأمر الواقع ، انتهت الجمهورية الأنجليزية وأعيدت الملكية . وكان التاريخ

بهذا قد ضرب مثلاً جديداً للتعاقب التهلكى الساخر الذى ذكره أفلاطون ،
وهو تعاقب الملكية ، فالارستقراطية ، فالديموقراطية ، فالدكتاتورية ،
فالملكية (٤١) .

هـ — ذروة البيوريتانية

لقد انطوى إنتصار البيوريتانية على ثورة دينية . وتحطمت الكنيسة
الإنجليزية فى ١٦٤٣ بالغاء الحكومة الأسقفية فى الكنيسة ، وصاحب مذهب
البروتستانتية المشيخية (البرسبترىان) حيث كان يحكم مجامع الكنيسة قساوسة
يوجههم مجلس (سنودس) فى كل قسم ، وتخضع مجالس السنودس هذه
للجمعية العمومية — نقول أن مذهب الكنيسة المشيخية هذا جعل المذهب
الرسمى للدولة فى ١٦٤٦ ، ولكن سيطرة مذهب المشيخية انتهت بعد طامين
اثنين ، حين طهر « برايد » البرلمان من أتباع هذا المذهب . وبدأ لبعض
الوقت أن الديانة يجدر تركها حرة طليقة من أية رقابة أو إعانة مالية من
جانب الدولة . ولكن كرومول (الذى حدث أنه اتفق فى كل شىء تقريباً
مع الملك الذى كان قد أودى بحياته) آمن بأن كنيسة معانة من قبل الدولة
أمر لاغنى عنه من أجل التربية والتعليم والأخلاق . وفى ١٦٥٤ شكل « لجنة
من الفاحصين » لتختبر صلاحية رجال الدين للتعيين فى رتب كنيسية والحصول
على روائى . ولم يكن أهلاً لذلك سوى المستقلين (البيوريتانيين) وأنصار
التعميد والبرسبترىانز . وأجيز لكل أبرشية أن تختار بين التنظيم المشيخى
أو نظام الكنيسة المستقلة — وفيه يحكم كل مجمع نفسه . وإختار البيوريتانيون
نظام الكنيسة المستقلة . أما التنظيم المشيخى الذى ساد فى اسكتلندة ، فقد
اقتصر فى إنجلترا إلى حد بعيد ، على لندن ولنكشير . أما رجال الدين
الإنجليكانيون . الذين بلغوا يوماً حداً كبيراً من القوة ، فقد حرموا من
روائهم ، وباتوا يخدمون أتباعهم أى يقومون لهم بالمراسم فى أماكن
خفية ، مثل الكهنة الكاثوليك . وفى ١٦٥٧ أعتقل جون أفلين بسبب

حضوره الصلوات الأنجليكانية (٤٢) . وكانت الكاثوليكية لاتزال خروجاً على القانون . وأعدم قسيسان شنقا (١٦٥٠ — ١٦٥٤) بتهمة « تضليل الشعب » ، وفي ١٦٥٧ أصدر برلمان البيوريتانيين ، بموافقة كرومول ، قانوناً يقضى بمصادرة ثلثي ممتلكات أى فرد جاوز السادسة عشرة ، لم يتنصل من الكاثوليكية ويبرأ منها (٤٣) . وفي ١٦٥٠ كانت العقيدة الدينية قد أصبحت أساساً لوضع اجتماعى طبقى : فكان الفقراء يتحيزون للمذاهب المعارضة — أنصار العماد ، الكويكرز ، أصحاب فكرة الملكية الخامسة ، وغيرها ، أو الكاثوليك . أما الطبقات الوسطى فكانت البيوريتانية غالبية فيها . على حين أن الأرستقراطية ومعظم ذوى الحسب والنسب (ملاك الأرض الذين لا ألقاب لهم) كانوا يشايعون الكنيسة الأنجليكانية التى لم تعد الدولة تعترف بها .

وإنعكس التعصب الدينى رأساً على عقب ، أكثر مما تناقص أو خفت حدته . ذلك أنه بدلا من اضطهاد الأنجليكانيين للكاثوليك المنشقين والبيوريتانيين الذين اتعالت صيحاتهم من قبل طلبا للتسامح ، باتوا الآن يضطهدون الكاثوليك والمنشقين والأنجليكانيين . وحرّموا استعمال « كتاب الصلوات العامة » ولو سرا فى المنازل . وقصر برلمان البيوريتانيين التسامح على أولئك البريطانيين الذين ارتضوا التثليث والإصلاح الدينى والكتاب المقدس باعتباره كلمة الله ، كما ارتضوا نبذ الأساقفة . أما أتباع سوسينوس أو التوحيديون فلم يشملهم التسامح بناء على ذلك . وفرضت عقوبات صارمة على أى تقديوجه إلى العقيدة أو الطقوس الكالفنية (٤٤) . وكان كرومول أكثر تسامحا من برلماناته ، فتعاضى عن بعض الصلوات الأنجليكانية ، ورخص لجماعة صغيرة من اليهود بالإقامة فى لندن ، بل وبناء معبد لهم ، واتهمه إثنان من الوعاظ من أنصار عدم تجديد العماد بأنه « وحش سفر الرؤيا » (النبي الكذاب) ، ولكنه احتفل هجوماهما صائرا (٤٥) .

واستخدم نفوذه في وقف اضطهاد الهيجونوت في فرنسا وأتباع والدوني بيد موت . ولكنه عندما طالبه مازاران ، في مقابل ذلك ، بمزيد في التسامح مع الكاثوليك في إنجلترا ، تذرع بعجزة عن الحسد من حماسة البيوريتانيين (٤٦) .

ومن الجائز القول بأن الدين لعب دورا هاما وتغلغل في الحياة اليومية عند اليهود وحدهم ، كما فعل عند البيوريتانيين . والحق أن البيوريتانية اتفقت مع اليهود في كل شيء تقريبا ، فيما عدا ألوهية المسيح . وشجعت معرفة القراءة والكتابة حتى يقبل الجميع على قراءة الكتاب المقدس . وكان ثمة ولاء شديد بالتوراة (العهد القديم) لأنه يقدم نموذجا لمجتمع تسيطر عليه الديانة . وكان الشغل الشاغل في الحياة هو الخلاص من نار جهنم . والشيطان موجود حقا وفي كل مكان . وبنعمة الله وحدها يمكن لفئة قليلة مختارة أن تفوز بالخلاص وتضمن كلام البيوريتانيين وأقوالهم عبارات من الكتاب المقدس ومجازاته . وأشرق في عقولهم التفكير في الله وفي المسيح أو تجلياتها لهم ، وملاَّتهم خشية ورهبة ولكن لم يفكروا قط في السيدة مريم . واتسمت ملابسهم بالبساطة والكآبة ، وخلت من أية زينة أو زخرف ، كما اتسم كلامهم بالوقار والزانة مع البطء . وكان منتظر منهم أن ينأوا بأنفسهم عن اللهو والدنس واللذة الحسية . وكانت للمسارح قد أغلقت في ١٦٤٢ بسبب الحرب ، فغللت مغلقة حتى ١٦٥٦ بسبب شجب البيوريتانز واستنكارهم لها . وحرم سباق الخيل ومصارعة الديكية ومباريات المصارعة ، ومطاردة الدبة أو الثيران ، إلى حد أن الضابط (الكولونيل) البيوريتاني نيو سن قتل كل الدبة في لندن ليتأكد أنها لن تطارد بعد الآن (٤٧) . واقتلعت كل أعمدة مايو (كانت تزدان بالأشرطة والأهور وتقام في أول مايو) . وكان الجمال شبهة ، واحترموا النساء بوصفهن زوجات مخلصات وأمهات صالحات ، وفيما عدا ذلك لم يتمتعن بحسن السمعة لدى البيوريتانيين لأنهن مصدر غواية وإغراء ، وأنهن سبب طرد الإنسان من الجنة . ونفروا من الموسيقى ، ما عدا في التراتيل الدينيه .

وقضوا على الفن في السكنائس ولم يسمحوا باخراج جديد منه ، اللهم إلا بعض اللوحات الممتازة من عمل صمويل كوبر ، وبيتر لى ، وكان هولنديا .

وربما كانت محاولة البيوريتانز تقنين الأخلاق أجل عمل منذ شريعة موسى . واعترفوا بصلاحيه الزواج المدني ، وأبيع الطلاق ، لكن الذى كان جريمه عقوبتها الإعدام . على أنه بعد تنفيذ حكم الإعدام مرتين عقابا على هذه الجريمة ، لم يكن المحلفون يحكمون بالإدانة . وكانت عقوبة الأيمان تتدرج وفقا للسلم الإجتماعى ، فكان اليمين يكلف الدوق ضعف ما يكلف البارون ، وثلاثة أمثال ما يكلف المالك الذى لا يحمل لقباً ، وعشرة أمثال ما يدفع الرجل العادى ، بصفة غرامة ، ودفع رجل واحد الغرامه لأنه قال : « الله شهيد على (١٨) » . وكان الأربعاء يوم صوم إجبارى عن اللحم حتى ولو وقع فيه عيد الميلاد المجيد . وكان من حق الجنود إقتحام البيوت لئلا كد من صوم الأهالى . ولم يكن مسموحا بفتح الحوانيت يوم الأحد ، كذلك كانت الألعاب والرياضه والأعمال الديويه محظورة فيه . ولم يسمح فيه بأية رحلة أو سفر يمكن إجتنابه ، كما كان محظورا « التسكع أو المشى الداس بلا هدف (١٩) » . وعلى الرغم من عودة الملكية وما صحبها من انتكاس فى الأخلاق ، ظل يوم الأحد قاسيا متزمنا حتى أيامنا هذه .

أن كثيرا من هذه المحرمات القانونية أو الإجتماعية أثبت أنه أقسى مما تحتمل طبيعته البشرية ، وقيل أن نسبة كبيرة من السكان لجأت إلى النفاق ، فسكوا ويفترقون الآثام كما هى العادة ، ويجرون وراء المال والنساء والسلطة ، ولكن دائما تعرفهم الكتابة ويخرجون أصواتا من أنوفهم وتنساب من أفواههم العبارات الدينية . ومع ذلك يبدو أن عددا كبيرا من البيوريتانيين التزموا بالمجملهم فى إخلاص وشجاعة . وسوف نرى ألفين من الوعاظ البيوريتانيين بعد عودة الملكية يؤثرون العوز والفاقة على التخلي على مبادئهم . إن نظام البيوريتانية ضيق العقل ولكنه قوى الإرادة.

والخلق . أنه ساعد الإنجليز على حكم أنفسهم . وإذا كان الفرع من نارجهم والطقوس البيوريتانية قد أشاعت في البيت السكّابة والظلمه ، فإن حياة الأسرة عند طامة الناس قد أسبغ عليها نظام ونقاوة بقيتا بعد الإحلال الذي تميزت به صفوة المجتمع في عهد شارل الثاني .

وجملة القول أن النظام البيوريتاني ربما أحدث أصلاحاً خلقياً جددته ودعمته حركة المنهجية في القرن الثامن عشر (الميثودية حركة إصلاح ديني قادها تشارلز وجون ويزلي في أ كسفود ١٧٩٢ لإحياء كنيسة إنجلترا) - وإليه يرجع أكبر الفضل في الأخلاقيات العالية نسبياً التي تميز بها الأمة البريطانية اليوم .

٦ - الكويكرز

تألفت في الكويكرز كل فضائل البيوريتانيين ، وهم فرع منهم ، ولو أخفهاها لبعض الوقت الخيال الجريح والتعصب الأعشى . وكانت خشية الله والخوف من الشيطان قوين جداً فبهم إلى حدي صيب أجسامهم برعدة . وقال واحد منهم هو روبرت باركلي ١٦٧٩ .

أن قوة الله سوف تقتحم الاجتماع الشامل ، ومن ثم سوف يكون هناك جهد باطني ، حين يحاول كل فرد أن يقهر قوى الشر في النفوس ، إلى حد أنه بأعمال هاتين القوتين المتعارضتين ، وكأنهما تياران متضادان ، يجهد الإنسان نفسه وكأنه في يوم المعركة ، ومن هذا يكون اهتزاز الجسم وحركته في معظم الناس إن لم يكن كلهم وهي هزات وحركات ، تنتهي بعد أن تسود قوة الحق ، من الوخزات والأثا ، بصوت رخيم من الشكر والحمد . ومن هنا أطلق اسم الكويكرز ، أي المهتزين ، علينا ، وكان هذا من باب اللوم والتأنيب والسخرية في بدايه الأمر (٥٠) .

وتفسير مؤسس الطائفة جورج فوكس يختلف اختلافاً يسيراً عن هذا .

« إن القاضى بنت من دربى هو أول من أطلق علينا هذا الاسم ، لأننا كنا نأمرهم بالاهتزاز عند ذكر كلمة الله . وهذا كان فى ١٦٥٠ (٥١) ، أما الاسم الذى أطلقوه هم أنفسهم على طائفتهم فكان « أنصار الحق » . وبعد ذلك أكثر تواضعا ، فقالوا : مجتمع الأصحاب » .

وواضح أنهم كانوا فى بداية الأمر بيوريتانيين ، مع اقتناع شديد بصفة خاصة بأن ترددهم بين الفضيلة والخطيئة لم يكن إلا صراعا ، فى عقولهم وأجسامهم ، بين قوتين روحيتين ، قوة الخير وقوة الشر ، تحاول كل منهما أن تسيطر عليهم هذا ، وإلى ما لا نهاية . إنهم تقبلوا المبادئ الأساسية عند البيوريتانيين : نزول الأسفار المقدسة عن طريق الوحي الإلهى ، خطيئة آدم وحواء ، كون الإنسان خطاء بطبيعته ، موت المسيح بن الله لتخليص البشر ، إمكان نزول الروح القدس من السماء لتنوير نفس الإنسان وتثريتها . أن إدراك هذا « النور الباطن » ، والإحساس به والترحيب بإرشاده وتوجيهه ، كان جوهر الدين عند الكويسكرز . وإذا نهج الإنسان سنن ذلك « النور » لم تعد به حاجة إلى واعظ أو كنييسة . فان هذا « النور » أسمى من العقل البشرى ، بل من الكتاب المقدس نفسه ، لأنه صوت مباشر من عند الله إلى النفس .

لم يتلق جورج فوكس من التعليم إلا أيسره . ولكن « مذكراته » التى دمجها كانت من الآثار الأدبية فى الإنجليزية ، التى تكشف عن القوة الأدبية فى الكلام غير الأدبى ، إذا كان بسيطا جادا مخلصا . وكان جورج ابن أحد النساخين ، والتحق للعمل بمصنع أحذية ، ثم ترك سيده وأقرباءه ، « بأمر من الله » ، وبدأ فى سن الثالثة والعشرين (١٦٤٧) ، الوعظ المتجول الذى لم يتوقف إلا بوفاة (١٦٩١) . وفى سنيه الأولى حيرته وأقضت مضجعه المغربات غراح يلتهم الصبح والمشورة لدى رجال الدين ، فأشار عليه أحدهم بالدواء وفصد الدم ، وأوصاه آخر بالتدخين وتلاوة الترايم

الدينية (٥٢) . وفقد جورج ثقته بالقساوسة ، ولكنه وجد السوى والعزاء .
حيثما فتح الكتاب المقدس .

غالباً ما حملت الكتاب المقدس وقصدت لأخذ مكانى فى احدى
الأشجار المجوفة فى مكان منعزل حتى يرخى الليل سدوله ، وكثيراً ما سرت
فى الليل محزوناً وحدى ، لأنى كنت رجلاً مثقلاً بالأحزان فى أيام أفعال
الله الأولى فى نفسى ثم وجهنى الله إلى الطريق ، ويسر لى إدراك حبه ،
وهو حب خالد لانهاية له ، يفوق كل معرفة تيسر للناس فى حالتهم
الطبيعية أو يمكنهم الحصول عليها من صفحات من التاريخ أو من بطون
الكتب (٥٣) .

وسرعان ما أحس بأن الحب الإلهى قد اختاره ليبشر الجميع بالنور
الباطن ويعظمهم . وفى اجتماع الأنصار العماد فى لبسترشير « حل الله عقدة
لسانى فأعلنت لهم جميعاً الحقيقة الخالدة ، وظلمتهم جميعاً قوة الله (٥٤) »
« وذاع عنه أنه يتمتع « بروح بصيرة » ، ومن ثم جاء الناس أفواجا
ليستمعوا إليه . « حلت قوة الله وكان لها إيماءات وإلهامات وتنبؤات
عظيمة (٥٥) » . بينما كنت أسير فى الحقول قال لى الله : اسمك مكتوب فى
سجل الحياة لدى المسيح ، الذى وجد قبل خلق العالم (٥٦) . أى أن
جورج قر الآن عينا بما قر فى نفسه من أنه بين القلة التى اختارها الله
قبل الخليقة ، لتلقى نعمته ورحمته وبركته الأبدية . وأحس آنذاك أنه
مساو لآى إنسان . ومنعه زهوه بهذا الاصطفاء الإلهى من « أن أخلع
قبعتى لآى من كان : حقيراً أو أميراً ، وأنتم فى حاجة إلى ، أياها الرجال
والنساء ، دون اعتبار لغنى أو فقير ، وعظيم أو حقير (٥٧) » .

وإذا اقتنع بأن الدين الحق لا يوجد فى الكنائس بل فى القلب المستنير ،
فإنه دلف إلى كنيسة فى نوتنجهام وقاطع الموعظة صائحاً بأن الاختبار
الحق ليس فى الأشعار للقدسة بل فى « النور الباطن » . وقبض عليه فى

١٦٤٩ ، ولكن عمدة البلدة أطلق سراحه ، وصارت زوجة هذه العمدة من أول الممتنعين لمذهبه . واستأنف فوكس جولاته التبشيرية ودخل كنيسة أخرى وهناك كما قال « دفعت لأعلن الحق للسكان والناس ، ولكنهم انهالوا على » في غضب شديد وطرحوني على الأرض . وضربوني ضربا مبرحا وأذوني ايذاء شديدا بأيديهم وكتبهم المقدسة وعصيمهم « فاعتقل مرة ثانية ، وأخلى الحاكم سبيله ، ولكن الأهالي قذفوه بالحجارة إلى خارج البلدة (٥٨) . وفي دربي تحدث مهاجما الكنائس والأسرار المقدسة على أنها تقرب لاغناء فيه إلى الله . فحكم عليه بالإقامة في الإصلاحية لمدة ستة شهور (١٦٥٠) ، وعرضوا عليه اخلاء سبيله شريطة الالتحاق بخدمة الجيش ، فكان جوابه مهاجمة فكرة الحرب . عند ذلك أودعه سجاووم معتقلا قذرا كربه الرائحة غائرا في الأرض ، ليس فيه فراش ، مع ثلاثين من المجرمين ، « حيث قضيت قرابة نصف عام (٥٩) . ومن سجنه كتب إلى القضاة والحكام معترضا على عقوبة الاعدام . وربما ساعدت شفاعته على انقاذ امرأة شابة محكوم عليها بالاعدام بتهمة السرقة من حبل المشنقة .

وبعد عام قضاءه في السجن استأنف التجوال لنشر تعاليمه . وفي ويكفيلد حول جيمس نايلز ، وفي بفري دخل كنيسة ، وجلس منصتا حتى انتهت للوعظة ثم سأل الواعظ : هل لم يشعر بالخلج « حين يتقاضى ثلثمائة جنيه سنويا ليبشر بالأسفار المقدسة (٦٠) ؟ » وفي بلدة أخرى دعاء القسيس لالقاء عظة في الكنيسة فأبى ، ولكنه تحدث في فنائها إلى جمع من الناس .

أعلنت إلى الناس أنني لم أنحضر لأعترض سبيل معابدم الوثنية ولا قساوستهم . ولا عبورهم . ولا احتفالاتهم وتقاليدهم اليهودية الوثنية لأنى أنكرت هذا كله . وقلت لهم أن هذا المكان ليس أكثر قدسية من أى مكان آخر . . . لذلك نصحت الناس أن ينبذوا كل هذه

الآشياء ، وأرشدتهم إلى روح الله ونعمته فيهم أنفسهم ، وإلى نور المسيح في قلوبهم (٦١) .

وفي سوورثمور في يور كشير حول إلى مذهبه مرجريت فل ، ثم زوجها القاضي توماس فل ، وأصبحت دارهما ، قاعة سوورثمور ، أول مركز أساسي لا اجتماع الكويكرز ، وهو إلى يومنا هذا مزار يحج إليه الأصحاب وليس علينا أن نقنع قصة فوكس إلى أبعد من هذا . وكانت أساليبه لغة غير فاضحة ولكنه عوض بما تذرعه به من صبر وجلد في ملاقاته فلسفة الاعتقالات والصدمات العنيفة ، وهاجته البيوريتانيون والمشيخيون والانجليكانيون ، لأنه نبذ الأسرار المقدسة والكنائس والتساوسة . وأرسل الحكام الكويكرز إلى السجون ، لأنهم انتهكوا حرمة العبادات العامة وأغروا الجنود بالكف عن الاشتراك في الحرب ، فحسب ، بل كذلك لأنهم رفضوا تأدية يمين الولاء للحكومة . واحتج الكويكرز بأن الممين أيا كانت عمل غير أخلاقي ، ويمكن القول (بنعم) أو (لا) . وتعاطف كرومول مع الكويكرز ، واجتمع مع فوكس في لقاء ودي (١٦٥٤) وقال له عند انصرافه : « تعال إلى ثمانية أننا ، أنت وأنا ، لو اجتمعنا ساعة من نهار ، لاقترب الواحد منا من الآخر » (٦٢) . وفي ١٦٥٧ أصدر (حامى الحمى) توجيهاته بالافراج عن المسجونين من الكويكرز ، كما أصدر تعليماته إلى القضاء بأن يعاملوا هؤلاء الوفاظ الذين لا كنائس لهم على أنهم (أشخاص واقعون تحت تأثير وهم شديد) (٦٣) .

إن أسوأ اضطهاد وأشده هو ما أصاب شيعة جيمس فايلر الذي بلغ به الإيمان بنظرية النور الباطن ، حد الاعتقاد أو الإدعاء بأنه هو المسيح مجسدا من جديد ، وأنه فوكس على هذا ولكن بعض أتباعه المخلصين النثوريين عبدوه ، وأكذبت إحدى النسوة أنه أعادها إلى الحياة بعد أن ظلت يومين في عداد الموتى ، وعندما ركب فايلر إلى بريستول ، أُلقت

النسوة بأوشحتهن أمام جواده وأنشدن : « مقدس ، مقدس ، مقدس » ، مقبض عليه بتهمة التجديف . ولما سأله عن دعاواه أو الدعاوى التي نسبوها إليه ، لم يكن جوابه سوى جواب المسيح « أنت قلت » . وعرض البرلمان إذ ذاك ، وكان البيوريتانيون يسيطرون عليه لقضية نايلر (١٦٥٦) وظل أحد عشر يوما يناقش موضوع إعدامه . وسقط القرار بأغلبية ٩٦ ضد ٨٢ صوتا . ولكن سادت روح تنادى بمحل وسط إنسانى فحكم عليه بأن يقف ساعتين كاملتين وعنقه في آلة التعذيب (المشهرة) ، ويجلد ١٣٠ جلدة ، وتدمغ جبهته بالحرف الأول من لفظة مجدف (B في الانجليزية) ، وأن يثقب لسانه بقضيب من الحديد المحمى ، واحتمل هذه العظائم بشجاعة . وحياء أتباعه على أنه شهيد ، وقبلوا جراحه وامتصوها واحتجزوه وحيدا في معتقل لا قلم ولا ورق ولا تدفئة ولا ضوء فيه ، وانهارت روحه المعنوية يوما بعد يوم ، فاعترف بأنه غرر به ، فأفرج عنه في ١٦٥٩ ، وقضى نحبه فقيرا معدما في ١٦٦٠ (٦٢) .

ولقد تميز الكويكرز بما بدا لبعض معاصريهم بأنه أشياء غريبة تشير المتاعب . إنهم لم يجيزوا أى أثر للزخرف والتبرج في ملابسهم . وأبوا أن يخلعوا قبعاتهم لأى إنسان مهما كانت مكانته ، حتى في الكنيسة أو القصر أو المحكمة . ولم يخاطبوا أى فرد بغير ضمير المفرد (أنت) بدلا من ضمير الجمع (أنتم) الذي يوحى أصلا بالتشريف والتسكريم . ونبذوا الأسماء الوثنية لأيام الأسبوع وشهور السنة ، فكانوا يقولون على سبيل المثال : « اليوم الأول من الشهر السادس » وأقاموا الصلوات في العراء أو بين الجدران بنفس السهولة واليسر وطيب النفس ، وكان كل فرد من المصلين يدعى ليخبر بما أوحى به إليه الروح القدس أن يقول ، ثم يروج الجميع بعد ذلك في صمت رهيب يكلله الجلال والوقار ، وكأنما هذا الصمت عقار مهدى مسكن بعد نوبة الحماس والغيرة — وهو صمت يعنى في أساسه « عندم » إحساس بروح خيرة في أصافهم . ورخص للنساء في الصلوة

الزوجية فوق أى لوم أو أية شائبة . وحد من تكاثرم ما تواضعوا عليه من الزواج بعضهم من بعض ، وعلى الرغم من ذلك بلغ عدد الكويكرز فى ١٦٦٠ فى انجلترا ستين ألف « صاحب » إن ما اشتهروا به من أمانة وكياسة وجد وبعد عن الإسراف ، ارتفع بهم من للراتب الوضيعة التى ظهروا فيها أول ما ظهروا إلى الطبقات الوسطى التى ينتسب معظمهم الآن إليها .

٧ - الموت والضرائب

أن الطبقات الوسطى هى التى تمتعت بأعظم الازدهار، فى عهد كرومول . وفوق كل شىء انصرف التجار إلى التجارة الخارجية ، وضم البرلمان آنذاك أفرادا يمثلون للمصالح الاقتصادية أو يملكونها . ومن أجلهم قضى قانون الملاحة الصادر فى ١٦٥١ بنقل الواردات من المستعمرات إلى بريطانيا على مراكب إنجليزية — ومن الواضح أن هذا إجراء موجه إلى الهولنديين . وراودت كرومول فى بعض الأحيان فكرة التحالف مع المقاطعات المتحدة ، ابتغاء حماية البروتستانتية وتعزيزها ، ولكن تجار لندن آثروا الربح على التقوى والورع . وسرطان ما وجد كرومول نفسه (١٦٥٢) متورطاً فى الحرب الهولندية الأولى . وكانت النتائج مشجعة كما رأينا .

واستعرت حمى الإمبريالية بناءً على البحرية . وأوحت ذكرى هوكنز ودريك إلى التجار وإلى كرومول نفسه بإمساك كبر شوكة الأسبان وسيطرتهم فى الأمريكتين ، واستيلاء انجلترا على تجارة الرقيق الراجحة وتوجيه المعادن النفيسة من الدنيا الجديدة إلى لندن ، وفوق ذلك كله ، كما أوضح كرومول ، فإن غزو جزر الهند الغربية يمكن المبشرين والوعاظ الإنجليز من تحويل هذه الجزر من الكاثوليكية إلى البروتستانتية (٦٥) .

وفي • أغسطس ١٦٥٤ بعث كرومول إلى فيليب الرابع ملك أسبانيا بتوكيدات الصداقة بينهما . وفي ٦ أكتوبر أرسل إلى البحر المتوسط أسطولاً بقيادة بليك . وفي ديسمبر أتبعه بأسطول آخر تحت إمرة وليم بن (والد أحد أعضاء الكويكرز) وروبرت فينابل ، للاستيلاء على جزيرة هسبانيولا (إحدى جزر الهند الغربية) من أسبانيا وأخفقت هذه المحاولة الأخيرة ، ولكن بن استولى على جايبكا لانجلترا (١٦٥٥) .

وفي ٣٠ نوفمبر ١٦٥٥ وقع كرومول ومازاران « وكلاهما يخضع الدين للسياسة » تحالفاً إنجليزياً فرنسياً ضد أسبانيا . إن الحرب التي كانت أسبانيا قد استمرت تشنها على فرنسا بعد معاهدة وستغاليا ١٦٤٨ كانت قد شغلت هاتين الدولتين أيما شغل عن التدخل في شأن كرومول واستيلائه على مقاليد الحكم في إنجلترا ، أما الآن فإنها هيأت لسياسته الخارجية نجاحاً رائعاً ، وإن كان طاراً . وترى بليك لوقت غير قصير ، لأسطول الفضة القادم من أمريكا ، حتى عثر عليه في ميناء سانتا كروز في جزر كاناري ، ودمره عن آخره (٢٠ أبريل ١٦٥٧) . وأخذ الجنود الإنجليز زمام المبادرة في هزيمة الجيش الأسباني في معركة تلال الدونز (بالقرب من دنكرك) في ٤ يونيو ١٦٥٨ . ولما انتهت الحرب بصلح البرانس (١٦٥٩) تخلت فرنسا عن دنكرك لانجلترا ، وبدأ كرومول وكأنه عوض عن فقدان ماري تيودور لشعر كاليه قبل ذلك بقرن من الزمان . أنه فكر في أن يضفي على اسم الإنجليز من العظمة ما كان للرومان من قبل ، وكان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفه ، فقد أصبح لانجلترا السيادة على البحار ، ومن ثم كانت المسألة مسألة وقت حتى تسيطر على أمريكا الشمالية ، وتمتد حكمها وسلطانها في آسيا . ونظرت أوروبا كلها بعين الفزع إلى البيوريتاني الذي كان يسبح الله ولكنه ابتنى بحرية ، وألقى المواعظ ولكنه كسب معركة ، والذي أسس الإمبراطورية البريطانية بالقوة العسكرية وهو يردد اسم المسيح . أن الرؤوس التي تعلموها

التيجان ، والتي حسبته محدث نعمة دعيا مغرورا ، بدأت الآن تخطب وده وتلتبس التحالف معه دون أن تعير اللاهوت اهتماما .

ولكن جون ثورلو سكرتير مجلس الدولة أنذر كرومول بأنه كان من الخطأ أن يساعد فرنسا ضد أسبانيا ، لأن فرنسا آخذة في الصعود على حين أن أسبانيا كانت آيلة للإضمحلال ، وأن سياسة إنجلترا في تدعيم توازن القوى في القارة ، إن لم تتطلب مساعدة أسبانيا ، تقتضى يقينا عدم مساعدة فرنسا . والآن في ١٦٥٩ كان لفرنسا السيادة في البر ، وكان الطريق أمامها مفتوحا للتوسع في الأراضي الوطيئة وفراش كونتيه والورين . وكم من رجل إنجليزي كان يجود بحياته لوقف أطماع لويس الرابع عشر العدوانية .

وفي نفس الوقت ازدهرت أحوال أمراء التجارة بسبب الحروب ، وأعيد في ١٦٥٧ تنظيم شركة الهند الشرقية بوصفها مشروطا برأس مال مشترك ، « وأقرضت » كرومول ستين ألف جنيه ، حتى تتجنب تدقيق الحكومة في خمس شئونها (٦٦) . وكانت هذه الشركة الآن من أقوى العوامل في اقتصاد إنجلترا وفي سياستها . وواجهت الحكومة نفقات الحرب برفع الضرائب إلى حد لم تبلغه في عهد شارل الأول وشارل الثاني . وباعت معظم أراضي التاج وأراضي الكنيسة الأنجليكانية ، وضياع كثير من الملاكين ، ونصف أراضي أيرلنده ، وبرغم ذلك كله بلغ متوسط المعجز السنوي ٤٥٠ ألف جنيه بعد ١٦٥٤ . ولم ينتفع المواطن العادي إلا قليلا . وطرحت جانبا كل الأهداف التي ناضلت من أجلها الثورة الكبرى فيما بين ١٦٤٢ — ١٦٤٩ . ولم يقل فظاعة عن ذي قبل فرض الضرائب دون موافقة البرلمان ، والاعتقال غير القانوني ، والمحاكمة دون محلفين ، وبات حكم الجيش وحكم القوة دون تستر أشد ازماجا وظلما عن ذي قبل ، مذ أضفوا عليه مسحة من الدين . وأضحى حكم كرومول بغيضا بغضا ليس له مثيل ، لا من قبل ، ولا من بعد (٦٢) .

وكانت انجلترا ترقب موت حامي الحمى بصبر نافذ . وكم من مؤامرة دبرت لاغتياله ، وكان عليه دوما أن يأخذ حذره ، وزاد الآن عدد حرسه إلى ١٦٠ رجلا ، واستخدم ضابط متطرف سابق (برتبة مقدم) يدعى سكسبي Serby ، أحد السفاحين لقنله . وكشفت المؤامرة (يناير ١٦٥٧) ، واعتقل السفاح ومات في السجن . وفي شهر مايو نشر سكسبي كتيباً بعنوان « قتل ليس بقتل » ، كان دعوة صريحة للإطاحة برأس كرومول ، وعثر على سكسبي ومات هو أيضاً في السجن . ودبرت المؤامرات في الجيش وفي دوائر الملكيين ، حيث ازداد أطمعهم بشكل جنوني في عودة أسرة ستيوارث إلى الحكم . واعتنقت ابنة كرومول الكبرى ، زوجة اللواء المتطرف شارل فليتوود المبادي الجهم—ورية ، ونعت على والدها دكتاتوريته (٦٨) .

وحطمت الهموم والمخاوف وفقدان الأهل والولد روح الرجل الحديدي . إنه مثل كثير ممن بلغوا ذروة السيطرة والسلطان ، استشعر الأسف أحياناً لأنه تخلى عن حياة الدعة والهدوء في أيامه الأولى يوم كان من مالكي الأرض في الريف . « إنني أقول ، وأشهد الله على ما أقول » لو أنني عشت في ظل تعريشة ورعيت قطيعاً من الغنم ، لسكان خيراً من أن أتولى حكومة مثل هذه (٦٩) ، وفي أغسطس ١٦٥٨ ماتت إليزابيث أحب بناته إليه ، بعد مرض طويل أليم ، وبعد تشييع جنازتها بفترة وجيزة لزم كرومول فراشه وقد انتابه حمى متقطعة ، وربما أفاد الكينين في شفائه ، ولكن طبيبه أبي أن يستخدمه لأنه علاج حديث أتى به الجزويت الوثنيون إلى أوروبا (٧٠) . وبدأ أن كرومول أبل من مرضه ، وتحدث في جرأة وشجاعة إلى زوجته قائلاً : « لاتظن أنني سأطرق الحياة ، أنني واثق من عكس هذا (٧١) » . وطلب إليه مجلسه أن يعين من يخلفه فأجاب « ريتشارد » أي ابنه الأكبر . وفي الثاني من سبتمبر أصيب بنكسة ، وأحس باقتراب

منيته . ودعا الله أن يغفر له خطاياه ويحفظ البيوريتانيين . وبعد ظهر اليوم التالي طارق الحياة . وكتب السكرتير ثورلو : « لقد صعد إلى السماء مضمخا بدموع شعبه ، على أجنحة صلوات القديسين ودهواتهم (٧٢) » ، ولما وصلت أنباء موت كرومول إلى أمستردام « أضيئت المدينة أيماءا ضاءة ، وكأنما نطلقت من عقابها ، ومضى الأطفال في القنوات هاتفين متهللين فرحا لموت الشيطان (٧٣) » .

٨ - طريق العودة

١٦٥٨ - ١٦٦٠

لم يمتلك الشيطان نفس ريتشارد بن كرومول . كما أنه لم يكن لديه من الصلابة والإرادة الحديدية ما يمكن أن يقيد به انجلترا في الأغلال التي صنعتها القوة والتقوى . وكان ريتشارد يشارك أخته ، رقة للمقل مما جعلهما ينظران في فزع خفي إلى سياسة الدم والحديد التي انتهجها والدهما . لقد جثا ريتشارد من قبل على ركبتيه أمام أبيه ، ضارعا إليه أن يبقى على حياة شارل الأول . وطيلة عهد الجمهورية والحماية ، طاش في هدوء وسلام في الريف على الضيعة التي حصل عليها بالزواج ولم يسكن به من طموح في أن يصبح في ٤ سبتمبر ١٦٥٨ ، بناء على وصية والده ، « حامى لخمى » انجلترا ووصفته لوسى هتشنسون بأنه « وديع مهذب فاضل ، ولكنه فلاح بطبيعته ، ولم تكن تليق له العظمة (٧٤) » .

وأفلتت الآن ، في جراءة أكثر ، كل العناصر التي كان أوليفر قد كبج جراحها ، عندما أدركت وهن نسيج ريتشارد . من ذلك أن الجيش الذي كره فيه خلفيته المدنية ، والذي رغب في أن يحتفظ بالسلطة التي كانت على عهد والده عسكرية بشكل صريح ، تقول إن هذا الجيش ألهم منه أن يتخلى عن إدارة الجيش إلى فليتوود ، فأبى ، ولكنه هدأ من روع زوج أخته

بتميينه قائدا . ولما كانت الخزانة خاوية مثقلة بالديون ، فإنه دعا برلمانا اجتمع في ٢٧ يناير ١٩٥٩ ، وراجت الشائعات بأنه يدبر عودة أسرة ستوارث إلى العرش . فجاء ضباط الجيش تتبعهم زسر من الجنود إلى ريتشارد وطلبوا إليه فض البرلمان ، فأرسل إلى حرسه ليتولوا حمايته فتجاهلوا أوامره . واستسلم ريتشارد للقوة ووقع أمرا بحل البرلمان (٢٢ أبريل) ، وأصبح الآن تحت رحمة الجيش . ودعا الجمهوريون المتحمسون في الجيش ينزعهم اللواء جون لمبرت ، أعضاء البرلمان الطويل الباقين على قيد الحياة للاجتماع من جديد ، وممارسة السلطة التي كانت لهم ، كما كانت للبرلمان المبتور ، حتى مجيء كرومول ، وطرده إياهم بمعونة الجمهوريين المتحمسين في الجيش ١٦٥٣ . والتأم عقد هذا البرلمان المبتور الجديد في وستمنستر في مايو ١٦٥٩ . ولكن ريتشارد الذي لقي من السياسة نصبا ، أرسل استقالته إلى هذا البرلمان في ٢٥ مايو . واعتزل الحياة العامة ، وفي ١٦٦٠ آوى إلى فرنسا حيث عاش في عزلة تحت اسم مستعار هو جون كلارك . وعاد إلى إنجلترا في ١٦٨٠ ، حيث وافته منيته في ١٧١٢ وهو في السادسة والثمانين من العمر .

وكتب أحد الملكيين في ٣ يونيو ١٦٥٩ يقول : « أن الفوضى كانت تعتبر كالا ، إذا قيست إلى نظامنا الراهن وحكومتنا الحاضرة (١٥) ، واستمر الصراع على السلطة بين الجيش والبرلمان ، ولكن قطاعاته المقيمة في اسكتلنده وايرلنده أيدت البرلمان . وكان ثمة حزب ملكي قوي في البرلمان الذي كانت غالبية من الجمهوريين . وفي ١٣ أكتوبر حشد لمبرت جنوده عند مدخل قصر وستمنستر وطرد البرلمان ، وأعلن أن الجيش سيتولى مقاليد الحكومة . وبدأ أن تعاقب الأحداث التي بدأت بحركة برايد في التطهير ، سوف تتكرر : مع كرومول آخر هو لمبرت .

وقال ملتون من « انقلاب » لمبرت « أنه عمل أبعد ما يكون عن

الشرعية ، ومن أشد الأهل خزيا ومارا ٠٠٠٠٠ إلى لأخشي أن أكون واحدا في مجتمع همجي متبربر ٠٠٠ والا فكيف يجرؤ جيش مأجور أن يخضع لسلطانه هو السلطة العليا التي أقامته ، على هذا النحو (٧٦) «ولكن الشاعر كان عاجزا لاحول له ولا قوة . إن القوة الوحيدة في بريطانيا ، التي كان في مقدورها أن تقف في وجه الدكتاتورية العسكرية هي جيش آخر ، أو العشرة آلاف جندي الذين خصصهم البرلمان من قبل للجنرال جورج مونك لإقرار سيادته في اسكتلنده . ولسنا ندري إذا كانت ثمة أطماع شخصية خفية وراء اعتزام مونك تمهيد الجيش في لندن ومقاومة اغتصابه السلطة . فأعلن مونك : « أن الضمير والشرف يقضيان على بأن أحرر انجلترا من حكومة اسيف التي كبلتها في أغلال العبودية التي لا تحتمل » . وأثار بيانه الحماسة والحمية في عناصر مختلفة معارضة للحكم العسكري . ورفض الأهالي دفع الضرائب وأعلن الجيش في أيرلنده والأسطول وصبيان الحرفيين ، انضمامهم إلى البرلمان . ورفض صرافو لندن أن يدفعوا للقادة المغتصبين القروض التي اعتمدوا عليها في دفع الرواتب للجند . وأحست الآن طبقات التجار والصناع الذين كانوا قد أقروا من قبل خلع شارل الأول ، أن الفوضى التي تنتشر ويتفاقم خطرها ، تهدد الحياة الاقتصادية في انجلترا ، وبدأوا يعجبون ويتساءلون : هل من المستطاع استعادة الاستقرار السياسي أو الاقتصادي دون ملك ، تهدى شرعية مركزة من روع الناس ، وتوفر الضرائب وتسكن العاصفة ؟ . وفي ٥ ديسمبر قاد مونك قواته إلى انجلترا . وأرسل قادة الجيش قوات لاعتراض طريقه ، ولكنها رفضت القتال ضد مونك ، وسلم الضباط المغتصبون بالهزيمة وأعادوا البرلمان ، واستسلموا له ، وصاروا تحت رحمته (١٤ ديسمبر) .

وكان عدد أعضاء البرلمان المنتهر ٣٦ عضوا ، ولا يزال يميل إلى النظام الجمهوري . وكان من أول القرارات التي اتخذها ، قرار يتطلب من الأعضاء

الحاضرين ومن ينضمون إليهم في المستقبل ، أن يتعهدوا بالتخلي عن أسرة ستيوارت . كما رفض هذا البرلمان عودة المشيخيين الذين بقوا على قيد الحياة من أعضاء البرلمان للمبتور السابق ، على أساس أنهم يحبذون عودة شسارل الثاني . وازدري الناس هذا البرلمان على أنه مجرد أحياء لبركان مبتور لا يمثل إنجلترا ، وعبروا عن مشاعر الاحتقار « بشواء ردف البقرة » على هيئة تمثال يلتقي به في النسيان الكثيرة المشتعلة في الهواء الطلق ، حتى بلغ عدد هذه الحرائق ٣١ في شارع واحد في لندن . وأما الجنرال مونت الذي كان جيشه قد وصل إلى لندن في ٣ فبراير ١٦٦٠ فقد أُنذر البرلمان القائم بأنه إذا لم يدع إلى انتخابات جديدة موسعة ، ويحل نفسه في موعد غايته ٦ مايو ، فإنه — أي مونت — لن يتولى حمايته بعد ذلك . كما أشار على البرلمان بإعادة الأعضاء للمشيخيين الذين سبق إبعادهم ، ففعل . وأعاد مجلس العموم للوسع (ازداد عدداً) إقرار مذهب المشيخية (البرسبترين) في إنجلترا ، وأصدر الدعوة إلى انتخابات جديدة ، وأعلن حل نفسه . وعند ذلك كانت النهاية الرسمية الشرعية للبرلمان الطويل (١٦ مارس ١٦٦٠) .

وفي اليوم نفسه محا أحد العمال ، أو لطخ بالطلاء ، عبارات « أخرج أيها الطاغية ، هذا آخر ملك » التي كانت الجمهورية قد علقتها في « بورصة لندن » . ثم ألقى العامل بقبعته وهتف « فليبارك الله الملك شارل الثاني » وعندئذ ، كما يروى ، « انضم كل من كان في المكان يهتفون بأصوات مدوية (٧٨) » . وفي اليوم التالي التقى مونت سرا برسول شارل ، سيرجون جرينفل ، الذي أسرع في الذهاب إلى بروكسل يحمل رسالة مونت إلى الملك غير ذي العرش .

٩ - ويعود الملك ١٦٦٠

منذ غادر شارل الثانى انجلترا فى ١٦٥٠ هارباً لاقى فى هربه عنقا ومشقة ، عاش متشرداً قلقاً فى القارة . واستقبلته أمه هنريتا ماريا فى باريس ، ولكن الفرنسيون كانوا قد أفقروها . وقضى شارل وحاشيته بعض الوقت فى أشد العوز ، طالة على الإعانات ، حتى أن مستشاره المخلص ، فيما بعد ، ادوارد هايد كان يعيش على وجبة واحدة فى اليوم . أما شارل نفسه الذى لم يكن لديه ما يسد الرمق فى البيت ، فكان يتناول الطعام فى الحانات فى معظم الأحوال نسيئة ، على حساب تطلعاته . ولما عاد لويس الرابع عشر إلى أيام الوفرة والرخاء أجرى شارل معاشاً سنوياً قدره ستة آلاف فرنك ، ومن ثم بدأ شارل يستمتع بحياة رغدة طليقة إلى أبعد حد ، حتى يدخل السرور على قلب أمه .

وتعلم فى أيام باريس هذه كيف يحب أخته هنريتا آن أعشق حب وأخلصه وجهدت الأم والأخت كلتا هما فى ضمه إلى الكاثوليكية ، كما أن الكاثوليك الانجليز المهاجرين إلى فرنسا لم يألوا جهداً فى تذكيره ، حتى لا ينسى ، ما فعلوه من قبل لنصرة أبيه . ووعدوه بمعوثو المهاجرين المشيخيين بالمساعدة على عودته إذا ارتضى حماية مذهبهم . واستمع لكلا الجانبين فى لطف وكياسة ، ولكنه عبر عن تصميمه على التزام مذهب الكنيسة الانجليكانية الذى قاسى أبوه من أجله ما قاسى (٦٩) ، وربما نزع به الجدل الذى حاصروه به ، إلى الشك فى الدين كله . ولكن يبدو أن العبادة الكاثوليكية التى رآها حوله فى فرنسا ، كان لها أثر قوى عليه ، وبات سراً مكتوماً فى حاشيته الصغيرة أنه لو أطلقت يده لانهاز إلى الكنيسة الكاثوليكية (٨٠) وفى ١٦٥١ كتب إلى البابا انوسنت العاشر يعده بأنه لو عاد إلى عرش انجلترا فلسوف يبطل كل القوانين التى صدرت ضد الكاثوليك . ولم يجب البابا بشئ . ولكن جماعة الجزويت أبلغوا شارل أن الفاتيكان لا يمكن أن يؤيد أميراً هرطيقاً (٨١) .

وعندما شريع مازاران في التفاوض لعقد تحالف مع كرومول أقنع شارل مستشاروه بمغادرة فرنسا . ووافق الكاردينال مازاران على الاستمرار في صرف المعاش لشارل ، فانتقل إلى كولون ومنها إلى بروكسل . وهناك في ٢٦ مارس ١٦٦٠ حمل إليه جرينفيل رسالة مونك : إذا وعد شارل بعفو تام ، باستثناء مالا يزيد عن أربعة أشخاص ، ومنح ، حرية الفكر ، وثبت الملك الحاليين للممتلكات المصادرة ، فإن مونك يلتزم بمساعدته . وفي نفس الوقت ، حيث أن اتجلبترا مازالت في حرب مع أسبانيا ، فيحسن بشارل أن يترك الأراضي الوطنية الأسبانية . فانتقل شارل إلى بريدان في إقليم برامانت الهولندي ، وهناك في ١٤ أبريل وقع اتفاقا قبل فيه شروط مونك من حيث المبدأ ، تاركا التفاصيل الدقيقة للبرلمان الجديد .

وجاءت الانتخابات لمجلس عموم ذي أغلبية ساحقة من الملكيين ، واتخذ اثنان وأربعون من صغار النبلاء مقاعدهم في مجلس اللوردات الجديد وفي أول مايو تليت في المجلسين كليهما الرسائل التي حملها جرينفيل من شارل وفي « إعلان بريدان » قدم الملك الشاب عفوا عاما فيما عدا الأفراد الذين يستثنىهم البرلمان فيما بعد ، وترك للبرلمان تسوية موضوع الأملاك المصادرة ووعد « بالألأزعج شخصا أو يستدعيه لمساءلته بخلاف في الرأي في أمور العقيدة ، وألا يعكر صفو الأمن في المملكة » . ثم أضاف بيانا حكيما أعده له المستشار هايد :

أنا تؤكد لكم ، تحت كلمتنا الملكية أن بعض أسلافنا كانوا يقدرون البرلمان أكثر مما نقدره نحن . وإنا لنؤمن بأن هذا كله جزء حيوي من دستور المملكة ، ضروري لحكومتها ، إلى حد أننا ندرك تمام الإدراك أنه ليس نعمة شعب أو أمير يمكن أن يحيا حياة سعيدة إلى درجة مقبولة بدونه . ولسوف ننظر دوما إلى نصائحهم على أنها أفضل تراث منهم ، ولسوف نكون معترين بآثرهم مهتمين بالمحافظة

عليها وحمايتها ، قدر اعتزازنا واهتمامنا بأقرب شيء إلى
أنفسنا ، وألوم شيء لصيانتنا والحفاظ علينا .

وسر البرلمان لهذا ، وفي ٨ مايو نادى بشارل الثانى ملسكا على انجلترا ،
مؤرخا لقبه من يوم وفاة والده ، غير مستند فى ذلك إلى أى قرار برلمانى ،
بل إلى حق المولد الوراثة . كما أقر إرسال مبلغ خمسين ألفاً من الجنيهات إلى
شارل مع دعوته إلى القدوم فوراً لاعتلاء عرشه .

وابتهجت انجلترا كلها تقريباً بانتهاء عقدين من السنين سادهما العنف ،
بموودة النظام دون إراقة قطرة من الدماء . ودقت النواقيس فى طول البلاد
وعرضها . وفى لندن جثا الناس فى الشوارع وشربوا نخب الملك (٨٢) .
وهلت كل الرؤوس المتوجهة فى أوروبا لانتصار الشرعية ، حتى المقاطعات
المتحدة ، وهى جمهورية بشكل قوى ، كرمت شارل طوال رحلته من ريدا
إلى لاهاي ، وقدمت له الجمعية التشريعية التى كانت قد تجاهلته حتى الآن ،
مبلغ ثلاثين ألف جنيهه لنفقاته ، عربونا للنيات الطيبة فى المستقبل . وجاء
إلى لاهاي أسطول انجليزى ترفرف عليه الأعلام مزدانة بالحروف الأولى
من « الملك شارل » وحمله إلى انجلترا فى ٢٣ مايو .

وفى ٢٥ مايو وصل الأسطول إلى دوفر ، واحتشد على الشاطئ عشرون
ألفاً لاستقبال الملك ، ولما اقتربت السفينة من الشاطئ سجد الجميع ، كما
سجد الملك عندما وطئت قدماه الأرض ، شكرا لله . وكتب فولتير :
« أنبأنى المعجائز الذين كانوا هناك أن معظم العيون أغرورقت بالدموع » .
وربما لم يحدث من قبل مشهد مؤثر إلى هذا الحد (٨٣) . وعلى طول الطريق
الذى احتشدت فيه الجموع السعيدة على مسافات قريبة ، ركب شارل
ومرافقوه ، تتبعهم مئات الناس ، إلى كنتربرى ، ثم روشستر ومنها إلى
لندن . وهناك خرج (١٢٠) ألفاً للترحيب به ، حتى الجيش الذى حارب ضده ،
انضم الآن إلى قوات مونك ، فى هذا العرض . وانتظره أعضاء مجلس

البرلمان في قصر هو يتحول . وقال رئيس مجلس اللوردات : « أيها الملك
الزهيب ، أنت مناض رغبة ثلاث ممالك ، وقوة لختلف طبقات الشعب وسند
لها ، في تخفيف الانفعالات والآلام ، وتسوية الخلفات ٠٠٠٠ واستعادة
شرف هذه الأمم المنهار ^(٨٤) . » وتقبل شارل كل هذه التحية والإطراء
في لطف وتملكه شعور خاص ، وعندما آوى إلى شيء من الراحة بعد أن
أرهقه الانتصار ، قال لأحد أصدقائه : « لا بد أنه كان من الخطأ أنى لم
أحضر من قبل ، فلانى لم ألتق اليوم بفرد واحد لم يحتج بأنه كان دوما
راغباً في عودتى ^(٨٥) . »

الفصل الثامن

ملتون

١٦٠٨ — ١٦٧٤

١ — جون بنيان : ١٦٢٨ — ١٦٨٨

في غمرة التدهور للدين والأخلاق لم يحس البيوريتانيون بالحاجة إلى أدب دينوي . وكان في انجيل الملك جيمس الأول (أى الذى ترجم إلى الإنجليزية في عهده) زاد كاف لهم من الأدب . وبدأ كل شئ فيها عدا ، تقريبا ، تافها أو خبثا آثما . وفي ١٦٥٣ اقترح أحد أعضاء البرلمان ألا يدرس في الجامعات سوى الأسفار المقدسة و « كتاب يوم ومايمائه (١) » . وقد يبدو هذا الأمر مزعجا محزنا ، ولكن يجدر أن نلاحظ أنه في ذروة هيمنة البيوريتانيين (١٦٥٣) نشر سير توماس اركهارت ترجمته الرائعة لرابليه (*) ، مؤثرا الأدب الداعر المكشوف على الإيمان بالبعث والحساب . وفي العام نفسه أخرج إيزاك والتون كتابه صياد السمك المثالي *Compleat Angler* كشف فيه عما في الماء من أسماك ، وحتى في أيامنا هذه التى نقفز فيها قفزات حكيمة من نوع من السمك إلى آخر ، نحمد هذا الكتاب ممتعا في بساطته وعذوبة أسلوبه ، كما أنه يذكرنا بأنه على حين كانت انجلترا تمر بثورة لا تقل عنفا عن ثورة ١٧٨٩ ، فإن الناس كانوا يستطيعون أن يقصدوا في هدوء إلى القنوات في الريف ليصيدوا ويوقعوا في شراكهم مخلوقا حذرا يقظا .

(*) للكتابان الأول والثاني ١٦٥٣ ، والثالث ١٦٦٣ . واكمل بييرموتيه الترجمة في ١٧٠٨ .

انحرف قليلا عن الطريق أيها العالم الجليل ، أعرج بنا عن الطريق قليلا حيث يمكن أن نجلس ونغنى عند هذا السياج من الشجيرات الغنية برحيق الأزهار ، حتى تفرغ هذه السحابة ماءها على الأرض التي تنبت الزرع (٢) .

وحافظ أندرو مارفل على حياته بحكمة وتعقل ، طيلة التعديل المستمر في الحكومات من يوم مولده في ١٦٢١ إلى يوم وفاته في ١٦٧٨ ، ورحب بعودة كرومول من أيرلنده في قصيدة غنائية قوية عذبة ، ولكنه تجرأ فيها على التعاطف مع الملك الفتيل شارل الأول : —

إنه لم يأت يأمر مبتذل أو ذنى ، في هذا المنظر المشهود ، بل تفحص بعصره الحاد نصل البلطة ، كما أنه ما أهاب بالآلهة في حنق بذى لتدافع عن محقه اليائس ، ولكنه حتى رأسه الوسيم ، وكأنه يحنيه على الفراش (٣) .

وأصبح مارفل مساعدا لملتون في وظيفة سكرتير لكرومول للغة اللاتينية . وانتخب عضوا في برلمان ١٦٥٩ ، وساعد على انقاذ ملتون من انتقام الملكيين المنتصرين ، وعاش ١٨ عاما في ظل الملكية العائدة ، واستنكر مبادئها وفسادها وعجزها ، في قصائد هجاء أحجم في حرص شديد عن نشرها .

وكتبت روائع جون بنيان ، مثلها في ذلك مثل ملاحم ملتون ، بعد عودة الملكية . ولكن الرجلين كليهما تشكلا في ظل النظام البيوريتاني . وهو يقول : « كان منبى وضيما حقيرا ، وكان بيت ألى من أحط البيوت مكانة ، وكان موضع أشد الازدراء من الأسرات ممن حولنا (٤) » . وكان أبوه (ممكريا) يصلح القدور والغلايات في قرية الستو بالقرب من بدفورد . وحصل الوالد ، توماس بنيان ، من مهنته على ما يكفي لإرسال ابنه جوب إلى مدرسة بدفورد حيث تعلم من القراءة والكتابة قدرا كافيا على الأقل « ليتفحص الأسفار المقدسة » ، ويسكتب أشهر الكتب الإنجليزية .

وفي القرية اشتغل صبيا لوالده الذي لقنه تعليما شفويا بطريقة السؤال والجواب في أمسيات أيام الأحد . وعن أولاد المدينة تعلم الكذب والتجديف في الدين . وهو يؤكد لنا « أنه لم يضارعه إلا القليل في هذه الأثنين » (٥) . وأكثر من هذا أنه أدين بالرقص وممارسة الألعاب وتناول قدح من الجمعة في إحدى الحانات . وكلها أمور يحاسب عليها البيوريتانيون الذين لم يكونوا قد استولوا بعد على مقاليد الأمور ، في سني شبابه (١٦٢٨ — ١٦٤٨) . وهو يقول عن نفسه « كنت أتزعم أعمال الرذيلة والشر والفسوق » (٦) ، ومثل هذه الاعترافات بالخطايا الجسيمة كانت أمرا شائعا مألوفاً بين البيوريتانيين ، حيث عملوا على جذب أشد الالتباه إلى اصلاحهم الديني ، وأظهروا قدرة الله على أن ينجيهم نعمة الخلاص . ولما انتشرت التعاليم البيوريتانية من حوله ، أغض مضجعه وحد من نزعة الشر عنده ، تفكيره في الموت وفي يوم الحساب وفي الجحيم . ورأى مرة فيما يرى النائم أن السماء كلها فوقه تضطرم بالنيران وأن الأرض نحته تزلزلت ، فنهض من نومه مذعورا ، وأزعج الأسرة بصرخاته : « يا إلهي ، أسألك الرحمة بي ، وقعت الواقعة ، ولم أعد نفسي ليوم الحساب » (٧) .

وفي سن السادسة عشرة سيق إلى جيش البرلمان حيث خدم لمدة ثلاثين شهرا في الحرب الأهلية . وهو يقول عن فترة الجندية « لم أكف عن الخطيئة والإثم ، وإزداد تمردى على الله ، وعدم اكتراثي بالخلاص » (٨) . وبعد تسريحه من الجيش تزوج من فتاة يتيمة (١٦٤٨) كان كل صداقها اثنين من الكتب الدينية ، وذكرياتها التي لا تفتأ ترددها عن تقى أبيها وورعه . ومذ خلف جون أباه في الحانوت ، فإنه استطاع أن يعولها « بالسكرة » . وازدهرت أحواله ، وتردد على الكنيسة بانتظام ، وتخلي عن نزوات شبابه شيئا فشيئا . وكان يقرأ الكتاب المقدس كل يوم تقريبا ، حتى صارت لغته الإنجليزية البسيطة هي لغة بنيان نفسه . وتحديث قرية الستو عنه على أنه مواطن نموذجي .

فإنه لا بد بصرف النظر عن فضائله — لاحق بالأكثرية العظمى من البشر الذين يحشرون في نار جهنم . إن تضحية المسيح المقدسة بنفسه ، هي وحدها التي يمكن أن تعدل جسامه خطيئات الإنسان . وكان من رأيه أن يلحق الأطفال هذا الأمر في وضوح تام : —

في اعتقادي أن الناس يسلكون طريقاً خاطئاً في تعليم أبنائهم العبادة ويبدو لي أنه من الأفضل أن ينبيء الناس أطفالهم ، في وقت مبكر ، وقبل قوات الألوان ، أية مخلوقات بغيضة لعينة هم ، وكيف أنهم يبوؤون بغضب من الله ، بسبب الخطيئة الأولى الأصلية الفعلية ، كما يظهرونهم على طبيعة غضب الله ، وخلود البؤس والشقاء (١٤) .

ووسط هذه النصائح والتحذيرات ، ضمت مواعظ بنيان كثيراً من الآراء الحكيمة في تنشئة الأطفال ومعاملة المستخدمين ، وكان مثل غيره من الوعاظ ، عرضة لتحديات الكويكرز ، الذين قالوا إنه ليست الأسفار المقدسة ، بل النور الداخلي هو الذي يهيء المعرفة والخلاص . وفي ١٦٥٦ وضع كتابين هاجم فيهما الطائفة الجديدة المزعجة . فكان جوابهم أنهم اتهموه بأنه يسوعي ، قاطع طريق ، زان ساحر (١٥) . أما أسوأ الشدائد فقد حلت عليه بمرودة الملكية ، فقد جدد القانون القديم الذي صدر في عهد إليزابيث والذي قضى بحضور كل الإنجليز الصلوات الأنجليكانية دون غيرها ، وأذعن بنيان إلى حد إغلاق مكان اجتماعاته الخاص في بدفورد ، وإلتقى بجمهور المصلين في أما كن خفية وألقى عليهم مواعظه ، فاعتقل ، وعرض عليه إطلاق سراحه إذا واعد ألا يعظ علانية . فرفض وأودع سجن بدفورد (نوفمبر ١٦٦٠) ، وهناك قضى اثني عشر عاماً ، مع بعض فترات تمتع فيها بحرية محدودة . وتجدد في أوقات متفرقة عرض الإفراج عنه ، بنفس الشروط ، مشيراً نفس الرد : « إذا أطلقت سراحى اليوم فسأشرع في الوعظ غداً (١٦) » .

وربما أصبحت حياة الأسرة عبثاً ثقيلاً ، لقد توفيت زوجته الأولى في ١٦٥٨ تاركة له أربعة أطفال أحدهم أعمى ، وكانت الثانية حاملاً . وعاون الجيران في إقامة أود الأسرة ، وأسهم بنيان في نفقاتها بصنع بعض المحرمات في السجن وتدبير أمر بيعها ، وأجيز لزوجته وأولاده أن يزوروه كل يوم كما أجيز له أن يعظ رفاق السجن ، وأن يغادر السجن متى شاء ، حتى للسفر إلى لندن (١٧) . ولكنه استأنف الوعظ سرّاً فضيقوا عليه الخناق في السجن . وفي المعتقل قرأ الكتاب المقدس المرة تلو المرة ، كما قرأ كتاب فوكس « سجل الشهداء » ، وأذكى حرارة الإيمان عنده بمحارق الأبطال البروتستانت ، ووجد متعة عظيمة في رؤى سفر الرؤيا ، ولا بد أنه كان مزوداً بالقلم والقرطاس ، لأنه في السنوات الست الأولى من احتجازه كتب ست قطع دينية ، كما وضع مؤلفه العظيم « الرحمة تتسع لكبير الخطائين » . وهو سيرة حياته الروحية ، وهو رؤيا تكاد تكون مفزعة من رؤى العقل البيوريتاني .

وفي ١٦٦٦ . وفي ظل « الإعلان الأول للتسامح » الذي أصدره شارل الثاني ، أطلق سراح بنيان فعاود الوعظ فأعيد إلى السجن . وفي ١٦٧٢ أجاز « الإعلان الثاني للتسامح » الذي أصدره شارل الثاني ، للقساوسة المنشقين أن يلقوا المواعظ ، فأفرج عن بنيان ، وانتخب على الفور راعياً للكنيسة القديمة . وفي ١٦٧٣ أبطل العمل بإعلان التسامح ، وتجدد تحريم الوعظ على المنشقين ، فلم يمثل بنيان له ، وأعيد إلى السجن (١٦٧٥) ، ولكن سرعان ما أخلى سبيله .

وفي هذه المرحلة الثالثة والأخيرة كتب بنيان الجزء الأول من « انطلاق الحبيب من هذه الدنيا إلى العالم الثاني » ، وقد نشر هذا الجزء في ١٦٧٨ وأعقبه الجزء الثاني في ١٦٨٤ . (في مقدمة شعرية مضحكة رديئة غير معقولة زعم بنيان أنه كان قد وضع هذا الكتاب ملهاة وتساية لنفسه دون أن يفكر في نشره) وعرض القصة ، في لطف ، في سيخة وهم أو

خيال جامع .

« بينما كنت أضرب في فيافي هذا العالم ، جئت إلى مكان معين حيث كانت ثمة « خلوة » ، فتمددت في هذا المكان لأنام ، وإذا غلبني النعاس رأيت فيما يرى النائم حلما (١٨) . »

إن كريستيان استبد به في هذه الرؤيا . التفكير في أنه يجب عليه أن يتخلى عن كل شيء وينسى كل شيء ، وألا يلتمس سوى المسيح والجنة . فمجر زوجته وأولاده ، ويبدأ رحلته إلى « المدينة السماوية » . ويصدق به « اللوحى بالأمل Hopaful » الذى يعبر عن العقيدة البيوريتانية في إحكام بارع :

كنت يوما في حزن شديد ، أحسب أنه أشد ما لقيت في حياتي . ونتاج هذا الحزن عن رؤية صادقة لجسامة آثامى وفظاعتها ، ولما كنت آنذاك لا أفكر فى شيء إلا الجحيم والعذاب المقيم . فبأنى فجأة ، وأنا غارق فى التفكير ، رأيت يسوع المسيح ينظر إلى من علياء السماء ، قائلا : « آه يا يسوع المسيح وسيكتب لك الخلاص (١٩) » . ولكنى أجبتة : « إني خطاء كبير خطاء كبير جداً ، فأجاب « رحمتى تتسع لك » ... وهنا غمرنى الفرح (٢٠) وبعد شيء كثير من المحنة والنزاع يصل الحجاج إلى « المدينة السماوية » . فنذكرك هذا الذى كانوا يأملون فيه فى حماسة بالغة :

ومن عجب أنهم حين دخلوا ، تغيرت هيئتهم وأحاطت بهم حالة من الجلال ، وارتدوا ملابس بدت وكأنها من ذهب . كما كان هناك من قابلهم بالقيثارات والتهيجان وأعطاهم إياها — القيثارات — لترتيل آيات المدح والثناء والتهيجان رمز للتكريم والتشريف ، وانظر : ان « المدينة السماوية » يتألق نورها وكأنه ضياء الشمس ، والشوارع مكسوة أرضها بالذهب ، وفيها سار خلق كثير تعلو رؤوسهم التهيجان ويمسكون بأغصان الغار فى أيديهم ، ومعهم قيثارات من الذهب ينشدون عليها ترانيم الثناء والشكر (٢١) .

أما « الجهل للمسكين » الذى تبعهم ، متعثرا فى عرجه ، دون أن يتزود بالإيمان الصادق ، فإنه يأتى إلى أبواب « المدينة السماوية » ، ويطرقها ، فيسأل عن جواز مروره فلا يجده ، فيلقى به فى الجحيم (٢٢) — إن القصة تروى بشكل جذاب ، ولكننا نعطف أحيانا على « العنيد » الذى يقول عن المسيح ورفاقه ، « هناك فئة من هؤلاء المخبولين المغرورين الذين ، حين يمسون بطرف من الخيال ، يظنون أنهم أعقل حتى ، من يستطيعون تحكيم عقولهم (٢٣) » .

أن فكرة حج النفس من نطاق المغريات الدنيوية إلى نعيم الآخرة ، فكرة قديمة ، وتلك كانت صفتها المجازية فى العصور الوسطى ، ويحتمل أن بنيان كان قد قرأ بعضا من هذه الكتب (٢٤) . وجر النسيان ذيله الآن عليها فى عمرة النجاح الخارق الذى لاقتة القصة الجديدة ، حيث صدر منها تسع وخمسون طبعة فى المائة العام الأولى من ظهورها ، وبيع منها مائة ألف نسخة قبل وفاة بنيان . وبيع منها ملايين من النسخ منذ هذا الوقت ، وترجمت إلى ١٠٨ من لغات أمريكا البيوريتانية . وكانت تقتنى فى كل بيت تقريبا . ودخلت منها إلى الحديث الدارج عبارات كثيرة — (سالمخ) التخلص من الجزع ، غرور الدنيا رجل الدنيا الحكيم . وفى القرن العشرين فقد الكتاب شعبيته بسرعة ، حيث لم يعد للخلق البيوريتانى وجود ، ولم يعد هناك إيمان بما جاء فى الكتب ولم يعد يقتنى ، ولكنه لا يزال فيضا من اللغة الإنجليزية البسيطة العذبة الواضحة .

وضع بنيان نحو ستين كتابا ، وليس ثمة ما يدعو اليوم إلى قراءتها . وبعد إطلاق سراحه للمرة الأخيرة ١٦٧٥ أصبح واحداً من ألمع الوعاظ فى عصره ، والزعيم المعترف به لطائفة الممعدانيين فى إنجلترا . وأبدى إعجابه بشارل الثانى . وأمر أتباعه بالولاء والإخلاص لملك أسرة سبتيوارت بوصفه درع إنجلترا وحاميها ضد البابا (٢٥) . وبعد انقضاء ثلاث سنوات على إعلان شارل الثانى اعتناقه الكاثوليكية وهو على فراش الموت ، أنهى

بنيان رسالته ، ومن الغريب أن نهايته كانت مثل نهاية لوتر . ذلك أنه حدث في ريدنج (مدينة في وسط إنجلترا) نزاع باعدين والد وولد كان بنيان مولعا بهما ، فسافر إليهما على ظهر جواد من بدفورد . فأصلح بين الفريقين المتخاصمين ، ولكنه عندما قفل راجعا على ظهر جواده ، فاجأته العاصفة وبلاؤه قبل أن يعثر على مأوى يعصمه منها ، وانتابته حمى لم يبيل منها قط . ووري التراب في مقبرة للمنشقين في بنهل فيلدز (Bunhill Fields) حيث يرقد حتى اليوم مع شاهد حجري على قبره .

الشاعر الشاب ١٦٠٨ - ١٦٤٠

كان جد ملتون كاثوليكيًا حكم عليه في ١٦٠١ بدفع غرامة قدرها ستون جنيهًا لتغيبه عن الصلوات الأنجليكانية ، وحرمانه من الميراث لأنه تخلى عن الكنيسة الرومانية . أما جون ملتون ، الذي تبراؤا منه وأنكروه ، فقد حصل على قدر لا بأس به من المال بوصفه كاتبًا صوميا في لندن ، صاحب قلم برع في كتابة أو نسخ المخطوطات والوثائق والمستندات القانونية . وأولع بالموسيقى ، ونظم القصائد الغزلية القصيرة ، واحتفظ في داره بكثير من الآلات الموسيقية ومن بينها أرغن ، واثقل هذا الانعطاف نحو الموسيقى إلى الشاعر الذي ربما أقر بأن المرء لسكى يجيد الكتابة ، لا بد أن تتغلغل الموسيقى في نفسه ، وأن تكون له أذن موسيقية واعية . أما الأم ، ساره جفري ، فكانت ابنة خياط تاجر ، أنجبت زوجها ستة أبناء كان صاحبنا جون ثالثهم . أما أخوه الأصغر فأصبح مالكًا يدين بالولاء لأسرة ستيوارت ، وواحدًا من رجال الكنيسة التقليدية . على حين أن جون أصبح جمهوريًا بيوريتانيًا من أنصار كرومول . وكان البيت في « بردستريت » مؤسسة بيوريتانية تقية مخلصه ، ولكن غير متزمتة ، فأنحب الجمال الذي ساد عصر النهضة ، امتزج هنا بالزروع إلى الخير والفضيلة ، الذي أتى به الإصلاح الديني .

والعامة ، في السلم والحرب ، سواء بسواء (٣٤) ، وأول واجب على المعلم هو أن يغرس الخلق القويم في نفس التلميذ ، « ويصلح ما أفسده آباؤنا الأولون » — أى أن يقهر نزعة الشر الطبيعية في الانسان (الخطيئة الأولى) — أو (كما يجدر بنا أن نذكر الآن) أن يعيد تكييف الخلق القويم الذى سبق تشكيله وفقا لحاجات مرحلة الصيد ، نقول تكييفه تبعاً لمتطلبات حياة المدنية الحالية . وأحس ملتون أن هذا يمكن تحقيقه على خير وجه بأن يغرس في ذهن الناشئ إيماناً قوياً بالله واحد بصير ، وأن نعوذه على ضبط النفس وفقاً لنظام رواقى (التحرر من الانفعال ، عدم التأثر بالفرح أو القبح ، الخضوع دون تدمير لحكم الضرورة) وضرب لتلاميذه مثلاً يحذونه : « الدراسة الشاقة والطعام اليسير » . فقلنا أجاز لنفسه يوماً « للهو والمتعة » (٣٥) وبعد الدين والأخلاق ، يجب أن تأتى الدراسات اللاتينية والأغريقية القديمة ، والتي لم يستخدمها ملتون مجرد نماذج للأدب ، بل وسائل لدراسة العلوم الطبيعية والجغرافيا والتاريخ والقانون والأخلاق والفسولوجيا والطب والزراعة وهندسة العمارة ، والخطابة والشعر والفلسفة واللاهوت . وإذا كان هذا التوفيق الفريد بين العلم والانسانيات قد افترض أن النزر اليسير قد أضيف إلى العلم منذ سقوط رومه ، فيجب أن نلاحظ أن هذا حقيقى فعلاً ، اللهم إلا بالنسبة لجاليليو ، بل أن كوبرنيكس نفسه كان له سلفه الأغريقى فى شخص أرسطارخوس . وفوق ذلك ، اقترح ملتون تعريف لتلاميذه كذلك ببعض النصوص الحديثة فى العلوم والتاريخ ، لحتى ببعض النماذج الحية فى الفنون العملية ، وكان يأمل فى أن يستقدم إلى حجرات الدراسة صيادين وبخارين وبستانيين ومشتغلين بالتشريح وصيادلين ومهندسين ومماريين ، لينقلوا إلى التلاميذ أحدث ألوان المعرفة فى هذه المجالات (٣٦) وخصص وقتاً كافياً للموسيقى والتمثيل ، وساعة ونصف الساعة يومياً للرياضة البدنية والتدريب العسكرى . ويمكن أن يطوف طلابه أرجاء البلاد فى جماعات على سهوات الجياد ، يرافقهم أدلاء معروفون

بالرزانة والحصافة ، ليتعلموا ويلاحظوا ، « أو » يلتحقون بالبحرية بعض الوقت ليتعلموا الملاحة ومصارعة البحر ، وأخيراً وبعد بلوغهم سن الثالثة والعشرين ، يمكنهم أن يسيحوا خارج إنجلترا . وهذا برنامج شاق ، ليس لدينا دليل على تطبيقه تطبيقاً كاملاً في مدرسة ملتون ، وربما كان في حينه الامكان تطبيقه لو أن التلاميذ اقتبسوا من معلمهم شيئاً من غيرته وجدده .

وراوده أحياناً حلم إنشاء أكاديمية تنافس أكاديمية أفلاطون وأرسطو . ولكنه افتتن بأحداث العصر البارزة وانشغل بها . من ذلك أن التثام البرلمان الطويل (١٦٤٠) كان نقطة تحول في حياته ، بل يكاد يكون تحولاً عنيفاً غير طبيعي عن الشعر والتعليم إلى السياسة والاصلاح . وفي ١١ ديسمبر قدم حزب « الجذر والفرع » البيوريتاني الذي انتسب إليه بعض أصدقائه . قدم إلى البرلمان عريضة صارخة ممهورة بخمسة عشر ألف توقيع (يحتمل أن يكون من بينهم ملتون) يلتمسون فيها اقضاء الأساقفة عن الكنيسة الانجليزية . ورد جوزيف هول أسقف اكستر على العريضة « باحتجاج متواضع إلى المحكمة العليا في البرلمان » (يناير ١٦٤١) ، دافع فيه عن النظام الأسقي بأنه مأخوذ عن « عصر الرسل الأبرار بلا انقطاع ٠٠٠ حتى العصر الحاضر (٢٨) » فاستل خمسة من السكينة للشيخين أقلامهم في « الرد على الاحتجاج المتواضع » (مارس ١٦٤١) وقعوه باسم مستعار مكون من الأحرف الأولى من أسمائهم (*) . ورد الأسقف هول وبعض الأساقفيين الآخرين ، وأقر مجلس العموم الاقتراح ، ورفضه اللوردات ، واشتد الجدل على المنابر وفي الصحف وفي البرلمان ، وانغم ملتون إلى اللعمة بكتيب من تسعين صفحة « إصلاح عس نظام الكنيسة في إنجلترا » (يونيو ١٦٤١) .

وفي عبارات قوية لاهثة ، استوعب بعضها نصف صفحة ، عزا ملتون تدهور الكنيسة الرسمية إلى سببين : الابقاء على الطقوس الكاثوليكية ،

(*) هم ستيفن مارشال ، ادموند كلامي ، توماس بنج ، ماتيو نيوكومن ،
يواليم سبرستو .

واحتكار الأساقفة لسلطة تعيين القساوسة . وهؤلاء ملتون « بهذه الطقوس الفارغة التي لا معنى لها ، والتي تحتفظ بها الكنيسة لجرد أنها علامة خطيرة للإنزلاق نحو روم ، والتي لا تستخدم إلا كجرد مسرحية تعرض أبهة الأساقفة (٣٩) » . إن الأساقفة — كانوا يتسللون خلسة إلى الكاثوليكية في طقوسهم — وتلك طعنة صريحة لرئيس الأساقفة لود الذي كان قد قدمت له فبعة الكاردينالية . وأنكر ملتون مازحه جيمس الأول وشارل الأول من أن الأساقفة ضرورة لازمة لحكومة الكنيسة وللنظم الملكية . وأهاب بالاسكتلنديين المشيخيين أن يواصلوا حربهم القديمة ضد النظام الأسقي ، وتضرع إلى الثالث الأقدس أن يرعى المصلحة العامة :

يا الهى : أول عنايتك لـكنيستك البائسة التي كادت تنهار وتلفظ أنفاسها الأخيرة ، لا تتركها هكذا فريسة لتلك الذئاب للزعجة التي تهرس وتفكر طويلاً لتلتهم قطيعك الوديع ، تلك الخنازير البرية التي سطت على كرمك ، وتركت بصمات حوافرها للندنسة على نفوس عبادك . لا تدعمهم ينفذون خطاهم اللعينة التي تقف الآن على مدخل الهاوية غير ذات القرار ، مترقبة أن يفتح الحارس ويطلق الجراد والعقارب الفتاكة ، لتحتويننا في ظلام جهنم الدامس ، حيث لن تشرق علينا بعمده شمس حقيقةك ، ولن نعود نأمل في بزوغ الفجر البهيج ، أو نسمع زقزقة العصفير في الصباح (٤٠) .

واختتم هذه العبارة بإلقاء جماعه الطقوس التقليدية في الجحيم : ولكن أولئك الذين يتوقون إلى مناصب الحكم الرفيعه والارتقاء هنا في هذه الدنيا ، على حساب إفساد عقيدتهم الحقه والانتقاص منها ، وعلى حساب كروب بلدهم واستعباده ، لا بد أنهم ، بعد خاتمة مزرية في هذه الحياة (التي وهبهم الله إياها) ، سيأتى بهم في الدرك الأسفل من النار ، وهناك يتلقاها من سبقهم من المحكوم عليهم بالهلاك الأبدى ، فيتجهكون فيهم في حقد وحسد ، ويطأونهم بأقدامهم ويزدرونهم ، وفي حمأة تعذيبهم ، ان يجدوا الراحة إلا في ممارسة أشد ألوان الطغيان عسفاً ووحشية ، معهم

بوصفهم أرقاءا وعبيداً لهم ، وسيبقون على هذه الحال إلى الأبد ، مخلصين
في أحط وأسفل مهاوى الهلاك الأبدي وأشدها كآبة واحتقاراً
واضطهاداً (٤١) .

وعندما رد الأسقف هول على القساوسة الخمسة للشيخين وهاجمهم
بعنف ، انبرى ملتون لنصرتهم في بيان طائف لا بد أنه أخرج الأسقف
وهو في الخامسة والستين من رده الكهنوتي : « نقد لاذع لدفاع المحتج
على بيان الشيخين » ، ظهر ، مجهول كاتبه ، في يولييه ١٦٤١ . واعتذر
ملتون في المقدمة عن عنفه فقال :

في الكشف عن إنسان سيء السمعة عدو للحق ، وإسلام بلاده وإدائه
وبخاصه إذا اغترباًن له لساناً ذريعاً منطلقاً مؤثراً ، فإنّه لا يتنافى مع اعتدال
المسيحية وتواضعها أن ترد على مثل هذا الرجل بأسلوب أعنف وأشد من
أسلوبه ، وأن تشيع غطرسته إلى مثواها مضمخه بمائه المقدس (٤٢) .

وأعاد الأسقف وابنه الكرة ببيان عنوانه « حجة داحضة متواضعة
جديدة » (يناير ١٦٤٢) هاجم فيه كاتب « النقد اللاذع » بحجة تميز بها
هذا العصر المغيظ المحقق (٤٣) . فرد ملتون كيد الأسقف في تحريره ببيان
عنوانه « دفاع ضد الحجة الداحضة المتواضعة » (أبريل) اعتذر فيه مرة
أخرى عن سوء معاملته للأسقف هول ، وشجب القرية العريضة « التي
أوردها هول » وهي اتهام ملتون بأنه طرد من كبرديج ، وأكيد ملتون
لعالم بأسره بأن زملاءه في « كريست كوليدج » دعوه ، بعد تخرجه ، للإقامة
معهم ، وأكيد من جديد طهارته التي لا مطعن فيها :

على الرغم من أني لم ألقن إلا قدراً يسيراً من المسيحية ، فإن شيئاً من
التحفظ والنزعة الطبيعية والقواعد الخلقية ، استقيته من أنبل فاسفة ، كان
كافياً ليجعلني أحتقر من ألوان الفجور ما هو أقل كثيراً مما يجري في
المواخير . ولكنني قد عرفت مبداً الأسفار المقدسة التي تكشف عن
الأسرار السامية الطاهرة . . . التي تقول بأن « الجسد الرب ، والرب للجسد »

فإني كذلك سألت نفسي : إذا كان التجرد عن العفة في المرأة التي ينعمتها القديس بولس بأنها فخر الرجل ، فضيحة وخزيًا وطارًا ، فالأمر يقينًا كذلك في الرجل الذي هو صورة الله وفخره معًا ، فإنه لا بد أن يكون أشد فسادًا وطارًا ، لأنه يقترب الإنم ضد جسده ، وهو الجنس الأكمل ، وضد فخره الذي يمكن في المرأة ، والأنكى من ذلك ضد صورة الرب وفخره مائلين في شخصه هو (٤٤) .

ومن ثم نجد ملتون يرثي لأحلاق كثير من الشعراء القدامى ، ويؤثر عليهم دأتي وبتراارك ، اللذين لم يكتبوا قط إلا تسكريماً وتشريفاً منهما لأولئك الذين نذرا لهم أشعارهما التي عرضا فيها أفسكاراً سامية نقية ، دون تأنيب وانتهاك للحرمات . ولم أثبت إلا قليلاً حتى تأكد عندى هذا الرأي : إن هذا الذي لا يمكن أن يخيب أمله في أن يكتب كتابة جيدة ، بمجرد أن يكون هو نفسه قصيدة صادقة ، أى مركباً مكواً من أفضل لأشياء وأشرفها ، لا يقدم على أن يكون قصيده عقود مدح وثناء للرجال البطوليين أو المدائن المشهورة ، إلا إذا أوتى من التجربة والخبرة والمران على كل ما هو أهل للثناء والاطراء (٤٥) .

وبعد هذا المثال الذي اقتبسناه ، انتقل ملتون إلى الحديث عن قدمى الأسقف وجوربه الذي يبعث « برأئحه منتنه إلى السماء » ، وإذا بدت هذه اللغة غير لائقة باللاهوت فإنه دافع عنها « بقواعد أعظم الباغاه » وبأنه يحذو حذو لوثر ، وذكر قراءه بأن « المسيح نفسه وهو يتحدث عن التقاليد البغيضة لا يتردد في استعمال ألفاظ مثل الغائط والمرحاض » (٤٦) .

والآن نكتفى بهذا القدر من النزاع السكريب ، الذي سقناه لأنه يلقى ضوءاً على شخصية ملتون وعلى آداب السلوك في ذلك العصر ، ولأنه وسط هذا الهراء القاسى وفوضى الأجرومية والجل الطويلة ، كانت هناك قطع ثرية ذات جرس موسيقى ، وشرقة تهز المشاعر مثل شعر ملتون

ه — قصة الحضارة

وفي نفس الوقت (مارس ١٦٤٢) ، كان قد نشر باسمه كتيباً أكثر موضوعية : « اثارة تفكير حكومة الكنيسة في حظر السلطة الأسقفية » : « هذا النير البغيض الذي لا يمكن أن يزدهر أى عقل حر أو موهبه ممتازة تحت وطأة ما يفرضه من غباء وعداء تعسفى وطغيان » (٤٧) . وسلم بالحاجة إلى نظام أخلاقى واجتماعى . والحق أن ملتون أدرك أن فى نهوض النظام وسقوطه مفتاح ارتقاء الدول وانهيارها :

ليس فى هذا العالم شىء أعظم أهمية وأشد إلحاحاً وخطراً فى كل حياة الإنسان بأسرها من النظام . وهل أنا فى حاجة إلى ضرب مثل على ما أقول ؟ إن كل من قرأ فى تبصر وتدبر عن الأمم والدول ... لابد أن يقر على الفور بأن ازدهار المجتمعات المتحضرة واضمحلالها ، وكل تحركات الأحداث البشرية وتحولاتها ، إنما تروح وتبجىء وكأنها على محور عجلة النظام . وأنه ليس ثمة كمال اجتماعى فى هذه الحياة ، مدنى أو دينى ، يمكن أن يسمو فوق النظام وقواعد الانضباط . لأن النظام هو الذى ، بفضل أوتاره الموسيقية يحافظ على كل أجزاء الحياة ويمسك بها متضامة بعضها إلى بعض (٤٨) .

ومثل هذا النظام ، على أية حال يجب ألا يستقى من أية هيئة كهنوتية متسلسلة فى رتب كنسية ، بل من ادراك أن كل إنسان بذاته يمكن ان يكون كاهناً .

وفى كل المراحل كان ملتون يعى ويدرك كل قدراته ومواهبه . أنه قدم للجزء الثانى من رسالته بقطعة عن سيرة حياته ، أبدى فيها حزنه لأن النزاع قد باعد بينه وبين إخراج عمل عظيم شغل باله طويلاً : إن هذا الذى أداه أعظم العباقرة وصفوتهم فى أثينا ورومه أو ايطاليا الحديثة ، والebraيون القدامى : لبلادهم ، يمكن أن أقوم به أنا لبلدى ، بدورى ، ويقدر حظى من الحياة والعمل ، هذا بالإضافة إلى أنى فوق كل شىء مسيحي (٤٩) . « وروى ملتون كيف أنه كان بالفعل يعد الموضوعات التى يضمها مثل هذا

الكتاب . ولكنه أراد به عملاً يستطيع من خلاله « أن يصور تصويراً نابضاً بالحياة وبصف ... سجل الطهر والفضيلة بأسره » ، و « كل ما هو سام ومقدس في العقيدة الدينية » (٥٠) ، « وكأنه كان يتنبأ بأن الأعوام الستة عشر قد تنقض قبل أن تدع له الثورة الكبرى فرصة للشروع في الكتابة : فقال يعتذر عن تأخره :

لست أخجل من الاتفاق مع قارى فطن ذى دراية ، على أنه فى بضع سنين يتعهد بدفع ديونى الحالية ، لأنه عمل ليس نتاجاً لنزوة الشباب أو لعب الخمر بالعقل ، مثل هذا الذى يسيل به « قلم عاشق شرس » بذى فى أوقات الضياع ، أو شاعر متطفل فى فورة حقه . كما أنه عمل لا يمكن إنجازه بالتضرع وقراءة التعاويذ للذاكرة وبناتها المغويات (بنات الأفكار) ، بل بالدعوات والصلوات المخلصة الخاشعة « للروح الأبدى الخالد الذى يستطيع اثرنا بالتعبير والمعرفة ، ويبعث إلينا بأحد ملائكتة (وحارس عرشه) ساروفيم ، مع نار مذبح المقدسة ، ليمس ويطهر شفقتى من يشاء . ويجدر أن يضاف إلى هذا ، دأب على القراءة الجادة المنتقاة ، ومثابرة على الملاحظة الدقيقة ، وتبصير بالفنون والمعامل العامة الجذابة والواسعة ، حتى إذا تم العمل ، إلى حد ما تحت مسؤوليتى وبجهدى الخاص ، فإنى عندئذ لا أرفض أن أذكرى هذا الأمل المنشود عند كثير ممن لا ينفرون من المغامرة بالوثوق إلى هذا الحد بما أقطع على نفسى لهم من تعهدات أو وعود (٥١) .

٤ - زواج وطلاق ١٦٣٤ - ١٦٤٨

فى « الحجة الداحضة المتواضعة » كان الأسقف هول قد اتهم ملتون بأنه يسعى لشهرة أدبية ، ويعلن عن مواهبه وقدراته وتجاربه وثقافته وبيئته السابقة ، أملاً فى الفوز « بأرملة ذات ثراء » أو أية جائزة أخرى . وفى « الرد » عليه حمد ملتون إلى تسفيه هذه الفسكرة والتنديد بها ، وقال أنه على النقيض من ذلك ، « نشأ فى محبوبحة من العيش » . واتفق فى رأى مع « أنوارك » الذين يؤثرون فى حكمة وتبصير وروح طيبة « عن زواج غير ذات

نراء عريض ، وذات أصل كريم ، على أغني الأرامل ، (٥٢) . وبينما انساقت انجلترا إلى الحرب الأهلية (١٦٤٢) ، انطلق ملتون إلى الزواج (١٦٤٣) .

لم ينضم ملتون إلى جيش البرلمان ، وعندما افتربت القوات الملكية من لندن (١٢ نوفمبر ١٦٤٢) نظم قصيدة (سونيت) يشير فيها على قادتها أن يحموا بيت الشاعر وشخصه ، كما فعل الاسكندر الأكبر مع الشاعر بندار من قبل ، واعداد إياهم بأن ينشر على الملأ شعرا « حسن صنيعهم (٥٣) » . على أن القوات الملكية ردت على أعقابها . ولم يمس بيت ملتون بأذى ، وبقي ليستقبل زوجته .

وكان ملتون قد التقى بماري باول Powell في فورست هل في اكسفوردشير ، حيث كان والدها قاض المصلح . وهذا الوالد ، ريتشارد باول كان قد اعترف من قبل ، في ١٦٢٧ ، بأنه مدين لملتون ، وكان آنذاك في كمبردج ، بمبلغ ٥٠٠ جنيه ، خفف فيما بعد إلى ٣١٢ ، ولكن لم يسدد بعد . والظاهر أن الشاعر قضى عند أسرة باول شهراً (مايو - يولية ١٦٤٣) ولسنا ندري ليستراد الدين أو يحظى بزوجة . وربما أحس جون وهو في الرابعة والثلاثين ، بأنه قد آن الأوان للزواج والنسل ، وواضح أن ماري كانت تتخلى بالمذرية التي ينشدها . وفاجأ أبناء أخته بمودته إلى لندن متأبط ذراع زوجة .

ولم تدم السعادة طويلا لأحد . فقد كره أبناء الأخت ماري كدخيلة عليهم ، وكرهت هي كتب ملتون ، وافتقدت أمها و « القدر الكبير من الصحبة والأنس والبهجة والرقص . . » الذي كانت تنعم به في فورست هل . ويقول أوبري « كثيراً ما كانت تسمع أبناء الأخت هؤلاء يضربون فيتمالي صراخهم (٥٤) مذكر أي ملتون أن ماري محدودة التفكير ضيقة الأفق ليس لديها سوى التذو اليسير من الأفسكار ، التي هي في جلتها ملكية » فلاه الصنف ثانية إلى كتبه . وتحدث فيما بعد عن « شريكة حياة يسقام

جامدة كثيبة لا روح فيها ، ورنى « للإنسان الذى يجسد نفسه مرتبطاً بأوثق رباط بهيكل من طين وبلغم ، كان يأمل منه أن يكون شريك مجتمع تملؤه السعادة والبهجة والسرور (٥٥) » ويعتقد بعض الباحثين فى الزواج غير المتسكاف أن ماري أبت عليه البناء بها (٥٦) . وبعد شهر طلبت السماح لها بزيارة والديها ، فوافق ملتون ، مع التفاهم بينهما على عودتها . ولكنها ذهبت ولم ترجع . وبعث إليها برسائل تجاهلتها ، ولما لم يجسد أى متنفس آخر لمشاعره ، كتب ونشر دون توقيع « مبدأ الطلاق ونظامه » (أغسطس ١٦٤٣) ، وأهداه إلى « برلمان إنجلترا والجمعية » أى جمعية وستمنستر التى كانت تصوغ آنذاك اعترافاً بالمذهب المشيخى . وتقدم إلى البرلمان برجاء أن يتحلل من أغلال التقاليد ، ويسير بالإصلاح قدماً ، باقرار أسس أو شروط أخرى للطلاق ، غير الزنى ، وعرض أن يوضح : —

أن التصور ، وعدم الأهلية أو تنافر العقول الناشئ عن سبب طبيعى لا يتسنى تغييره ، مما عوق ، والأرجح أنه كثيراً ما يعوق إلى الأبد ، مزايا الحياة الزوجية ، وهى السلوى والبهجة والهدوء والطمأنينة ، نقول أن هذا سبب للطلاق أقوى من البرودة الزوجية الطبيعية ، لا سيما إذا لم يكن هناك أطفال ، وكانت هناك موافقة من الطرفين (٥٧) .

واقبس ملتون القانون اليهودى القديم الذى ورد فى التوراة (سفر التثنية ٢٤ - ١) « إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها ، فإن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شئ » . وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته . وواضح أن السيد المسيح رفض هذا الجزء من شريعة موسى . فقد جاء فى انجيل متى (٥ - ٣١ ، ٣٢) « وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق . وأما أنا فأقول لكم أن من طلق امرأته إلا لعل الزنى يجعلها تزنى » ، واحتج ماتون بأنه « المسيح لم يقصد أن يؤخذ كلامه بمعناه الحرفى ، كلمة بكلمة » (٥٨) ، وكثيراً ما أعلن أنه لم يأت ليغير مقدار ذرة من شريعة موسى . وكافح ملتون حتى يجعل تفسيره الواسع يشتمل

قضيته الشخصية ، حتى أنه ذهب إلى حد تبرير الطلاق لعدم القدرة على الإسهام » في حديث مناسب معقول . « لأن عدم الصلاحية والتخلف في العقلية التي تنفر من الزواج » يمكن أن تهبط بالزواج إلى « حالة أسوأ من حياة الوحدة الموحشة » حيث تكون النفس النابضة بالحياة مربوطة إلى مجرد جثة (٥٩) .

ونفذ الكتاب الصغير بسرعة ، لأنه قوبل باستنكار عام . وفي فبراير ١٦٤٤ نشر ملتون طبعة مزيّدة منقحة ظهر عليها اسمه في جرأة وشجاعة . ورد على ناقديه في أسلوب العالم المتفقه ، في « Tetrochordon » ثم في أسلوب أخف في Colasterion (صدر كلاهما في ٤ مارس ١٦٤٥) ، تناولهم فيهما بأقصى القدح والألفاظ المقذحة — كتلة من الطين ، خنزير ، خنزير برى ، ذو أنف بشع ، محام له مخ الديك ، حمار صفيق ، بغيض ، كرية الرأثمة (٦٠) لقد استطاع ملتون في الصحيفة الواحدة أن يقفز من مرتفعات بارناسوس إلى أحط مهاوى السفاهة والبذاءة .

وحيث أخفق في أن يحصل من البرلمان على تعديل في قانون الطلاق ، اعتزم أن يتحدى القانون ، ويتخذ زوجة ثانية ، وكان يفضل مس دافيز التي لا تعرف عنها شيئاً إلا أنها رفضته . ولما ترامت شائعات هذه الخطية إلى مسامع ماري باول قررت أن تستعيد زوجها ، على أي الأحوال ، حلوها أو مرها ، قبل فوات الأوان . وذات يوم بينما كان ملتون في زيارة لصديق فاجأته ماري وجئت بين يديه وتوسلت إليه أن يعيدها إلى مخدعه وبيته . وتردد هو ، ولكن أصدقاءه ناصروا قضيتها ، فقبل عودتها إليه . وانتقل الآن إلى بيت أوسع في باربيكان ستريت ، ضمها كما ضم أباء وتلاميذه . وسرعان ما جاء أبواها للقامة أيضاً مع الشاعر ، بعد أن تدهورت حالهما بهزيمة الملكية ، مما جعل هذا البيت أقرب ما يكون إلى دار الهجائين ، أو للفلسفة . وزاد الأمر ضغطاً على أبالة في ١٦٤٦ ، مولد طاملة ملتون الأولى آن . وخفف من هذه الفوضى موت ريتشارد باول في يولية ، كما أن جون

ملتون الأكبر (الوالد) اختتم حياته المديدة الكريمة في مارس التالي .
ومن ثم أصبح الشاعر وريثا لمنزليين أو ثلاثة في لندن ، ولبعض المال ، وربما
لبعض العقارات في الريف . وفي ١٦٤٧ فض ملتون مدرسته وانتقل مع
زوجته وابنته واثنتين من أبناء أخته إلى « هاي هلبورن ستريت » وفي
١٦٤٨ ولدت له ابنته الثانية ماري .

ه — حرية الصحافة ١٦٤٣ - ١٦٤٩

في ١٣ أغسطس ١٦٤٤ ، تحدث الكاهن المشيخي هربرت بالمر أمام
مجلس البرلمان ، واقترح أن تحرق علنا رسالة ملتون عن الطلاق . ولم تحرق
الرسالة ، ولكن شكوى بالمر ربما أدت « بشركة المكاتب » التي تضم كل
باعة الكتب الإنجليز ، إلى لفت نظر مجلس العموم (٢٤ أغسطس) إلى أن
الكتب والنشرات تخالف القانون الذي يتطلب تسجيلها واجازتها بمعرفة
الشركة . وكان هذا القانون قد صدر في عهد إليزابث ، كما أن البرلمان كان
قد جدد العمل به في ١٤ يونيو ١٦٤٣ ، بإصداره أمرا ينص على :
أنه لا يطبع كتاب أو نشرة أو ورقة ، أو أى جزء من شىء من هذا
القبيل ، أو يعرض للبيع ، قبل التصديق على نسخة منه واجازته ، من
أشخاص معينهم لهذا الغرض أحد المجلسين أو كلاهما معا ، وقبل أن يسجل
في السجل للمعد لذلك في شركة المكاتب ، طبقا لما جرى عليه العرف من
زمن بعيد (٦١) .

ويماقب أى خرق لهذا القانون بالقبض على من تولوا التأليف والطبع .
وكان ملتون يهمل دوما تسجيل ما ينشره ثرا . وعلى الرغم من أن
كتابه « مبدأ الطلاق ونظامه » ظهر بعد صدور الأمر سالف الذكر
بشهرين ، فإنه تجاهل ما يقضى به . وربما كان شاعرنا ذا حظوة لدى البرلمان
لأنه ناصره في صراعه مع الملك . على أن البرلمان على أية حال ، تغاضى
عنه وحده . ولكن الأمر ظل سييفا مصلتا على رأسه وعلى رؤوس سائر
للؤلئين في بريطانيا . وبدا للملتون ضربا من المحال أن يزدهر الأدب في ظل

مثل هذه الرقابة . فإذا يجدى خلع ملك وتحطيم نظام أسقفى استبدادى قاس ، إذا استمر البرلمان والكنيسة على التدقيق والتحقيق فى كل كلمة يتفوه بها الإنجليز ؟ . وفى ٢٤ نوفمبر ١٦٤٣ أخرج درن تسجيل أو إجازة أروع أعماله النثرية « أريوباجيتيكا : حديث من جون ملتون عن حربى للطبوعات دون أجازة ، إلى برلمان انجلترا » (١) وليس فى هذا الحديث قذف ولا طعن ولا نقد لاذع ، بل كان على مستوى عال من اللغة والفكر وفيه يطلب إلى البرلمان بكل اجلال واحترام ، أن يعيد النظر فى قانون الرقابة ، من حيث أنه ينزع إلى « تثبيط الهمم فى سبيل العلم والمعرفة ، ويعوق بل يقضى على أى ابداع واكتشاف يمكن أن يخرج فى المستقبل إلى حين الوجود فى مجال الحكمة الدينية والمدنية كليهما . » ثم يستطرد فى قطعة مشهورة قيمة :

لست أنكر أنه من أعظم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب بعين يقظة كيف تخط الكتب من قدرها ومن أقدار الناس ، ومن ثم تحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ما تقضى به العدالة على عوامل الشر لأن الكتب ليست أشياء ميتة اطلاقاً ، بل أن فيها من الفعالية والحيوية ما يجعلها نشيطة فى مثل نشاط النفس التى أنتجتها . ليس هذا لحسب ، بل أنها كذلك ، تحفظ ، وكأنا تحفظ فى قنينة ، أبقى عصارة وقوة مؤثرة للفكر الحى الذى نماها وأبدعها . وإنى لأدرك أنها نشيطة قوية الإنتاج مثل أسنان التنين الخرافية إذا نثرت على الأرض هنا وهناك انبعث منها رجال مسلحون (هكذا تقول الخرافة) . ومن جهة أخرى ، فإنها إذا لم يكن تمه حيطة وحذر ، فإن قتل الإنسان يعدل تقريباً قتل الكتاب الجيد . إن من يقتل رجلاً يقتل مخلوقاً طاقلاً ، صورة الله ، على حين أن من يدمر الكتاب الجيد ، يقتل العقل نفسه ، بل يقتل صورة الله ، فى صميمها . وكفى من إنسان

(١) Areopagitica — يقصد بها المسائل المتعلقة بالحكمة العليا فى أثينا ، واسمها أريوباجوس ، نسبة إلى الجبل الذى كانت يجتمع عليه . واقتبس ملتون هذا العنبران من رسالة وجهها آيزوقراط ٣٥٥ ق . م . إلى هذه الحكمة .

يعيش حملاً ثقيلاً على الأرض ، ولكن الكتاب الجيد هو دم الحياة الغالي للروح السامية يسان ويحترن ، قصداً لحياة وراء الحياة . حقاً أن أى عصر لن يستطيع استعادة الحياة ، وقد لا يكون فى هذا خسارة ، ولا تعوض ثورات العصور فى الغالب عن فقدان حقيقة منبوذة ، ساءت حال أهم بأكملها من أجل افتقارها إليها .

وينبغي لذلك أن نكون حذرين يقظين لأى اضطهاد نصبه على الأعمال الحية لمشاهير الرجال البارزين ، وكيف نبدد حياة الرجل الناضجة المحفوظة المخزنة فى كتاب . فإذا رأينا عملاً من أعمال القتل يرتكب على هذه الصورة ، وهو فى بعض الأحيان استشهاد ، وإذا امتد هذا إلى كل الإنتاج ، حتى ينتهى الأمر إلى مذبح ، فمن ثم لا ينتهى الإعدام عند خلق الحياة للفطرية ، بل ينفذ إلى الجوهر السماوى الخامس البالغ الرقة ، أى روح العقل ذاته ، فيقضى على الخلود أكثر مما يقضى على مجرد حياة (٦٢) .

ويستشهد ملتون بالنشاط الفكرى فى أثينا القديمة ، حيث لم تفرض الرقابة إلا على الكتابات التى تتضمن إلحاداً أو قذفاً ، وهكذا حكم قضاة محكمة أريوبا جوس العليا بإحراق كتب بروتاجوراس ، وبنفيه خارج البلاد ، لمقالة بدأها بالاعتراف بأنه لا يدري « إذا كان هناك آلهة أم لا » . ويمتدح ملتون حكومة رومة القديمة لإتاحتها قدراً كبيراً من الحرية للكتاب ، ثم يصف نمو الرقابة فى رومة الإمبراطورية والكنيسة الكاثوليكية . ويحس ملتون بأن قانون الرقابة هذا أشتم منه رائحة « البابوية » « وما فائدة أن تكون رجلاً : لا مجرد تلميذ فى مدرسة ، إذا كنا فقط هربنا عن الدرة أو العصا » أنتقم تحت نير الرخصة (للطباعة) (٦٣) ؟ أن الحكومات ومراقبيها ليسوا معصومين من الخطأ ، فليس لهم أن يفرضوا ما يروق لهم أو ما يفضلونه من آراء ومبادئ على الناس ، والأولى بهم أن يتركوا الناس ليختاروا ويتعلموا ، حتى ولو كلفتهم التجربة والخطأ أبهرظ الثمن :

إني لا أستطيع أن أمتدح فضيلة مفروضة عليها الحماية والرقابة ، لا يمارسها أحد ولا ينشق غيرها أحد ، لا تنطلق قط لترى خصومها ، بل تتسلل بمعزل عن الناس (٦٤) . . أعطى الحرية لأعرف وأتحدث وأناقش ، بلا قيد ، وفقاً لما يحليه الضمير ، فوق كل الحريات (٦٥) . . ومع أن كل رياح للمذاهب وللبادئ أطلقت لتهب على الأرض ، حتى إذا دخلت الحقيقة إلى اللبدان ، أسأنا إليها بالرقابة والحظر ، لنشكك في قوتها ، فلنتركها مع البهتان يتصارطان ، فمن ذا الذي رأى يوماً أن الحقيقة تهزم في معركة حرة مفتوحة (٦٦) ؟ .

ومهما يكن من أمر فإن ملتون لا يطالب بالحرية المطلقة للمطبوعات ، فهو يؤمن بأن الإلحاد والتشهير والفحش يجب أن يجرمها القانون ، ويرفض التسامح مع الكاثوليكية لأنها عدو للدولة ، ولأنها هي نفسها موصومة بالتعصب (٦٧) . وفيما عدا ذلك ، فإن الدولة التي تسود فيها حرية الفكر والكلام لا بد أن ترقى وتنمو فيها سائر الأشياء سواء بسواء .

يخيل إلى أنى أرى بعين البصيرة أمة كريمة قوية تستيقظ وتنفض النوم عن جفونها ، مثل رجل قوى يفوق من سباته ، وتمز خصلات شعرها . ويبدو لي أنى أراها مثل نسر ، يجدد شبابه ويفتح عينيه الحادتين (٦٨) ، في وقدة الظهيرة .

ولم يلتفت البرلمان لدفع ملتون أو حجته ، بل على النقيض من ذلك ، سن قوانين تصاعدت صرامتها (١٦٤٧ ، ١٦٤٩ ، ١٦٥٣) ضد إصدار مطبوعات غير مرخصة . وشكا أعضاء شركة المكتبات من أن ملتون لم يكن قد سجل « الأريوباجيتيكا » . وعين مجلس اللوردات اثنين من رجال القضاء لمساعدته ، ولسنا نعرف النتيجة . ولكن من الواضح أنهم لم يزعموه ، لأنه كان صوتاً ذا نفع وقيمة للبيوريتانيين المنتصرين .

وفي فبراير ١٦٤٩ ، أى بعد اعدام شارل الأول بأربعين اثنين ، نشر ملتون رسالة عن « ولاية الملوك والحكام » ، ارتضى فيها نظرية العقد

الاجتماعى التى تقول بأن سلطة الحكومة مستمدة من سيادة الشعب ، وأنه من حق من يملكون السيادة أن يحاسبوا أى طاغية أو ملك شرير ، وعزله وإعدامه ، بعد إدانته إدانة عادلة (٦٩) . وبعد شهر واحد داه بحاس الدولة فى الحكومة الثورية ليكون « سكرتير المجلس للغات الأجنبية » . فنهى ملصحته جانباً ، ليتفرغ لمدة أحد عشر طاماً ، لخدمة جمهورية البيوريتانيين وحكومة « الحماية » على عهد كرومول .

٦ - سكرتير اللغة اللاتينية ١٦٤٩ - ١٦٥٩

كان النظام الجديد فى حاجة إلى من يتقن اللغة اللاتينية ، ليحرر للرسائل الأجنبية ، وكان ملتون للشرح البارز لهذا العمل . حيث كان يستطيع الكتابة باللغات اللاتينية والايطالية والفرنسية كأحد أبناء رومة القديمة أو فلورنسة أو باريس ، كما أنه كان قد أثبت فى أشد أوقات الحرج أنه مخلص لقضية البرلمان فى نزاعه ضد الأساقفة والملك . وكان بحاس الدولة لا « كرومول » هو الذى استخدمه لهذا العمل . ولم يكن له صلة وثيقة بالحاكم الجديد ، ولكنه لا بد أن يكون قد رآه كثيراً ، وأنه قد أحس فى تفكيره وفى كتاباته ، بالتقارب مع هذه الشخصية المرموقة . ولم يستخدم المجلس ملتون لجرد ترجمة رسائله الأجنبية إلى اللاتينية ، بل كذلك ، ليعرز للحكومات الأجنبية ، فى نشرات لاتينية ، وجه العدالة والحق فى سياسته الداخلية التى ينتهجها المجلس ، كما يبرز ، فوق ذلك كيف كان من الحكمة وسداد الرأى الاطاحة برأس الملك .

وفى أبريل ١٦٤٩ ، فور تقلده منصبه ، انضم ملتون إلى موظفين آخرين فى المجلس فى وقف نشرات الملكيين وأصهار المساواة ضد نظام الحكم الجديد (٧٠) . وكانت الرقابة على المطبوعات آنذاك أشد صرامة منها فى أى وقت مضى فى تاريخ إنجلترا ، متبعة فى ذلك القاعدة العامة التى تقول بأن الرقابة تشدد بتزعزع مركز الحكومة . إن الرجل الذى كان قد دبح بأفصح بيان النداء الذى لم يكن له نظير من قبل ، من أجل حرية الصحافة

بات الآن ينظر إلى الرقابة من وجهة نظر السلطة الحاكمة ، على أنه . يجدر بنا أن نلاحظ أن ملتون قال من قبل الأريوباجيتيكا : إنه من أهم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب بعين يقظة كيف تحط الكتب من قدرها ومن أقدار الناس ومن ثم تحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ما تقضى به العدالة على عوامل الشر » (٧١) .

ومذ كان جون للبيرن بصفة خاصة كاتباً مزعجاً من أنصار المساواة ، فإن المجلس أصدر تعليماته إلى ملتون ليتولى الرد على كتابه المتطرف « اكتشاف أغلال جديدة » . ولسنا ندري هل قام ملتون بهذه المهمة أو لم يقم . ولكنه يروي هو نفسه (٧٢) أنه « أمر » أن يرد على « صورة ملك » وامتثل لهذا الأمر فنشر في ٦ أكتوبر ١٦٤٩ كتاباً من ٢٤٢ صفحة تحت عنوان « محطم الصورة » . وارتياباً ، ولكن امتراضاً منه بأن « صورة الملك » هو ما أوهم بأنه من تأليف شارل الأول نفسه ، فإنه — أى ملتون تناول حجة الملكية فقرة فقرة ، وانبرى لتفنيدها بكل ما أوتى من قوة ومن خلال ذلك دافع عن سياسة كرومول ، وبرر إعدام الملك ، وأبدى احتقاره « لتلك الشرذمة من الغوغاء المتقلبين الذين يعوزهم التفكير الباسم المولعين بالصور ، . . . قطيع ساذج عاجز تربى على الدل والخنوع يفتتن بالطغيان » (٧٣) .

واستبد الغيظ والحلق بشارل الثانى ، وهو يتجول فى القارة ، فاستأجر أعظم علماء أوربا كلود سومير ليتولى الدفاع عن الملك الميت ، وسرطان ما أصدر « سالماسيوس » « دفاعه عن الملك السابق شارل الأول » ، فى ليدن (نوفمبر ١٦٤٩) ، نعت فيه كرومول وأتباعه بأنهم « أوغاد متعصبون . . . وأنهم العدو المشترك للبشرية » وأهاب بكل الملوك ، من أجلهم هم أنفسهم : أن يجهزوا الجيوش للقضاء على هذا الوباء بقينا أن دم الملك العظيم يستصرخ كل الملوك والأمراء فى العالم للسيحى للتأمله . ولا يمكن أن يقوموا بعمل فيه هدوء وروحه وسكونها خيرا من أن يعيدوا لوريثه

الشرعى كل حقوقه كاملة ، ويستردوا له عرش أبيه وأن يذبحوا ،
كضحايا على جثث الميت للمقدس ، هذه الوحوش البالغة الضراوة ، الذين
تأمروا على قتل مثل هذا الملك العظيم (٧٤) .

وخشى كرومول أن — تزيد حملات مثل هذا العالم الذائع الصيت في
أوروبا من الاستياء السائد في القساسة ضد حكومته ، فطالب إلى ملتون
الرد على سالماسيوس . وجهد السكرتير اللاتيني في انجاز هذه المهمة قرابة
عام كامل ، في ضوء الشموع ، على الرغم من تحذير طبيبه له بأنه يفقد بصره
تدريجيا ، وأنه مهدد بالعمى . وكانت إحدى العينين عاطلة بالفعل ، وفي ٣١
ديسمبر ظهر « دفاع الشعب الإنجليزى عن نفسه ضد دفاع سالماسيوس عن
الملكية — لجون ملتون » ، بدأ بالسخرية من سالماسيوس لبيعه خدماته
لشارل الثانى ، واستطرد ليظهر أن سالماسيوس قبل أربع سنوات فقط
كتب يهاجم النظام الأسقفى الذى يدافع عنه الآن :

أيها العميل الفاسد المرتشى المـ أجور . . . أيها الجبان المحقر المرتد
الخارج على مبادئك . . . يا أشد الحمقى سذاجة وبلاهة . . . أنت جدير
بمكازة المهرج ، حين تظن أنك تغرى الملوك والأمراء بالحرب ، بمثل هذه
الحجج الصببانية الواهية . . . هل تتخيل إذن ، أيها المتعلم المحامى الصغير
الحقير ، الذى لم يولد إلا لينسخ ويقلد كبار الكتاب ، الذى لم يؤت أية
موهبة أو ذكاء أو عبقرية ، أنك ستنتج شيئا تكتب له الحياة من عندياتك ؟
صدقنى أنك وكتاباتك العقيمة معا ، ستلقى فى زوايا النسيان فى الجليل
القادم . لولا أن « دفاعك عن الملك » سيدين ببعض الفضل للرد عليه ،
بمحض الصدفة ، وعلى الرغم من أنه قد أغفل وطرح جانبا لبعض الوقت ،
فإنه لذلك سيبحث من جديد (٧٥) .

وهذا هو ما حدث على وجه الدقة . أن سالماسيوس كان قد أضنى على
شارل الأول صورة مثالية . ولكن ملتون يحط من قدره . ويشتبه فى
أن شارل عرض دوق بكنجهام على دس النعم لوالده جيمس الأول ، ويتم

الملك الميت بكل « ضروب الفساد الخلقى والإثم » مع الدوق المذكور ، ويهتم شارل بتقريب النسوة فى المسرح ، وبمداعبته أثناء العذارى والعقيلات علنا (٧٦) . « وكان سالماسيوس قد أطلق على ملتون أسماء كثيرة ، فثأر ملتون بأن نعت سالماسيوس بأنه ، غبي ، خنفساء ، حمار ، كذاب ، قذاف مغتر ، مرتد ، معتوه ، جهول ، متشرد ، عبد ذليل ، ويسخر من سالماسيوس لسيطرة زوجته عليه ، ويعنفه على أخطائه اللاتينية . ويدعوه إلى أن يشنق نفسه ، ويضمن له الدخول إلى الجحيم (٧٧) . ونظر توماس هوين إلى هذه الكتب المتنافسة من علباء فلسفته ، فأعلن أنه عاجز عن أن يقرر أى الفريقين أقوى لغة وأيهما أضعف حجة (٧٨) . على أن مجلس الدولة قدم الشكر لملتون .

تلقى سالماسيوس نسخة من « دفاع » ملتون أثناء وجوده فى بلاط الملكة كريستينا فى ستكهلم ، ووعد بالرد عليه ، ولكنه أبطأ . وفى الوقت نفسه انصرف ملتون عن الشؤون الخارجية إلى شئون بيته . فى ١٦٤٩ انتقل إلى دار فى « شيريج كروس » ليكون قريبا من صله . وهناك وضعت زوجته ولدا ، لم يلبث أن مات ، وفى ١٦٥٢ وضعت بنتا ، « ديبورا » كلفته ولادتها حياة أمها . وفى تلك السنة فقد ملتون بصره تماما . وعندئذ نظم قصيدة من أروع قصائده (السونية) « عندما أتدبر كيف فقدت نور عيني » . وأبقى عليه المجلس سكرتيرا لاتينيا ، وخصص له كاتباً ليدون له ما عليه عليه .

ومنى ، وهو رهين العمى ، بخسارة أخرى ، فى ١٦٥٣ انهارت الجمهورية التى طالما هلك لها ورحب بها ، إلى « ملكية عسكرية » وأصبح فيها « حامي الحمى » كرومول ، فى واقع الأمر ملكا . وراض ملتون نفسه على هذه التطورات بقوله : « أن أساليب العناية الإلهية يحوطها الغموض والإبهام (٧٩) . وظل على إعجابه بكرمول وامتدحه بأنه « أعظم نبي الوطن وأكثرهم تألقا وامتيازاً » . إنه « أبو البلاد » ، وأكده « أنى فى التلاف

المجتمع الإنساني ليس نعمة شيء أحب إلى الله ، أو أكثر إلتزاما مع العقل من أن يتولى أممي العقول السلطة العليا (٢٨) .

وسرعان ما طلب إليه أن يتولى الدفاع عن « حامى الحمى » فى اتهام خطير . ذلك أنه فى ١٦٥٢ ظهر كتاب يشكل عنوانه نفسه صيحة الحرب « صرخة الدم الملكى إلى السموات ضد الإنجليز الذين قتلوا أباهم » وبدأ الكتاب بأن نعت ملتون بأنه « حيوان شرير بشع ، قبيح المنظر ، ضخيم الجسم ، مكفوف البصر ٠٠٠٠ جلاذ ٠٠٠ يستحق الشنق » . وقرن الكتاب اعدام شارل الأول بصلب المسيح ، واعتبر قتل الملك كبرى الجرائم (٨١) وسخر من جهر « الفاصبين » بإيمانهم بالدين :

أن لغة وثائقهم العامة محشوة بالتقى والورع وكان لزاما أن يجاريها أسلوب كرومول ومن يدافعون عنه ، وأنه للمهايشير الاشتمزاز ، كما يشير السخرية للريرة ، إلى أى حد من الوقاحة والصفاقة يخفى هؤلاء الأوغاد الخفيون والاصوص الظاهرون حقيقة شرورهم بذريعة أوستار من الدين (٨٢) .

وكما فعل سالماسيوس ، آهاب للؤلأف المجهول بدول القارة أن تغزو انجلترا وتعيد آل ستيوارث إلى العرش . وختم الكتاب بتوجيهه إلى الحارس القدر للتوحش ، جون ملتون ، المدافع عن قتل الآباء وقتلتهم ، مع الأمل فى أن يلتقى وشيكا شر الجزاء فيضرب بالسياط :

حول هذا الرأس الحانث سدد الضربات جيدا ، وشوه كل بوصة فيه بآثار العصا ، إلى أن تصبح الجلثة كثلة هلامية واحدة . هل توقفت ؟ اضرب حتى تتفجر الصفراء من كبده من خلال عينيه الداميتين (٨٣) .

واستحث مجلس الدولة ملتون للرد على هذا العنف ، ولكنه تمهل توقعا لحملة من سالماسيوس ، أملا فى أن يرد على الخصمين فى رسالة واحدة . ولكن سالماسيوس قضى نحبه (١٦٥٣) دون أن يتم رده . وخدع ملتون فى اعتقاده بأن كاتب « صرخة الدم الملكى » هو الكساندر مورس —

Morus ، وهو قسيس طالم في مدلبرج فطلب إلى مراسليه في المقاطعات المتحدة موافقاته ببيانات عن حياة مورس العامة والخاصة (٨١) . وكتب أوريان أولاك ، طابع الكتاب ، إلى هارتاب ، صديق ملتون ، مؤكداً أن مورس ليس هو المؤلف (٨٥) . ولكن ملتون أبي أن يصدق هذا ، وأيده في هذا ، ما يتناقضه الناس في امستردام . وفي أبريل ١٦٥٤ كتب جون دروري إلى ملتون ، محذراً إياه بأنه نخطيء في نسبة « صرخة الدم للملكي » إلى مورس ، ولكن ملتون تجاهل هذا التحذير ، وفي ٣٠ مايو كتب الدفاع الثاني للشعب الإنجليزى « ... جون ملتون .

وكان سحر البيان في هذا الكتاب الذى بلغ عدد صفحاته ١٧٣ ، أمراً مشهوداً ، حيث أملاه باللاتينية رجل كف بصره تماماً . وعزا أعداؤه ما أصابه من عى إلى العقاب الإلهى جزاء خطايا الفادحة . وأجاب ملتون على هذا بأنه لا يمكن أن يكون ، لأن حياته كانت مثالية ، وهو يشعر بالفرح والابتهاج لأن الدفاع الأول :

هكذا أصاب غريمى بهزيمة ساحقة ٠٠٠٠ إلى حد أنه استسلم من فوره وقد تحطمت روحه وانهارت سمعته ، وعلى مدى السنوات الثلاث التالية من حياته ، ولو أنه كان يهدد ويرغى ويزيد كثيراً ، فإنه لم يعد يزعجنا ، فيما عدا أنه استعان بالجهد التافه لشخص جدير بكل الازدراء ، حرصه بما لست أدري من الللق القبيح للسرف ، على أن يرقم قدر الإمكان يمدىحهما ، ماحل بشخصه مؤخراً من دمار غير متوقع (٨٦) .

ثم يهرج ملتون على عدوه الجديد ، فيذكر أن « مورس » تعنى بالأغريقية « مخفل » ، ويتهمه بالهرطقة والتهتك والزنى ، وبأن خادمة سالما سالما سيوس حملت منه سفاحاً ، ثم هجرها . بل أن طابع « صرخة الدم للملكي » نفسه يجلد بالسوط ، وكل إنسان يعرف أنه غشاش مفلس سيء السمعة (٨٧) . وفي ظرف وصرح أكثر ، يستعرض ملتون أعمال كرومول ، ويدافع عن حملاته في أيرلنده ، وعن حل البرلمان ، وعن استيلائه على السلطة ،

ويوجه الحديث إلى « حامى الحمى » :

إننا جميعاً نقدرك حق قدرك ونقر بفضلك الذى لا يدانيه فضل ، فاهض
فى طريقك القويم ، يا كرومول ، يا محرر بلادك ، ويا من أرسى دعام
الحرية فيها ، ويا من تفوقت بأعمالك المجيدة ، لا على انجازات الملوك فحسب ،
بل على مغامرات أبطالنا الأسطورية أيضاً (٨٨) .

ولكن بعد عبارات الإجلال والإكبار هذه ، لم يتردد ملتون فى أن
يمحض كرومول النصيح فى أمر السياسة . فأشار عليه بأن يحيط نفسه برجال
من أمثال فليتوود ولبرت (وهما من المتطرفين) ، وأن يدعم حرية الصحافة
وأن يترك الدين منفصلاً تمام الانفصال عن الدولة . كما ينبغى ألا تجمع أية
عشور لرجال الدين ، فانهم بالفعل متخمون ، (وكل ما فيهم سمين ، حتى عقولهم
دون استثناء ١٨٩) . ويسترسل ملتون فيحذر كرومول من أنه « ونحن
نعده ، دوننا جميعاً ، أعدل وأقدس وأفضل رجل » إذا أقدم على قمع الحرية
التي دافع عنها ، فلن تكون النتيجة إلا وبالا ودماراً ، لا لشخصه فحسب ،
بل كذلك لكل متطلبات الفضيلة والتقوى (٩٠) . ويوضح ملتون بأجلى
بيان أنه لا يقصد « بالحرية » الديمقراطية ، وهو يسأل الناس :

لماذا يؤكد لكم أى إنسان حقكم فى الاقتراع العام ، أو قدرتكم
على انتخاب من تريدون للبرلمان ؟ هل من أجل أن تتمكنوا من انتخاب
رجال من حزبكم فى المدن ، وفى الأقاليم ، تنتخبون الرجل الذى مد لكم
الموائد فى بذخ بالغ ، أو أسرف فى تقديم الشراب لرجال الريف والفلاحين
السذج ، سواء كان جديراً أو غير جدير بالانتخاب ؟ ومن ثم لا يجتمع لنا
فى البرلمان أعضاء اتسموا بالخصافة والحكمة والخبرة والثقة ، بل أعضاء
صنعتهم الحزبية وموائد الطعام !! . وبعبارة أخرى تحصل على أعضاء من تجار
الخمر والباعة للتجولين ، من الخائبات فى المدن ، ومن الرعاة ومربي الماشية
فى الريف ، فهل يجدر بأى إنسان أن يكل أمور الجمهورية لأمثال هؤلاء
الذين لا يثق أحد فى أن يعهد إليهم بشأن من شئونه الخاصة (٩١) ؟ .

كلا ، إن مثل هذا الاقتراع العام لا يعتبر حرية :
فلأن أن تكون حراً ، هو بالضبط أن تكون تقياً قاطباً مادلاً معتدلاً
مكتفياً بذاتك ، لا تتمد يديك إلى ما بأيدي الناس ، وقصارى القول ، أن
تكون شهماً رحب الصدر شجاعاً . أما إذا تجردت من هذا كله أو كنت
على نقيضه ، فإنك لن تعدو أن تكون عبداً رقيقاً . وقد حكم الله على
الامة التى لا تستطيع أن تحكم نفسها وتدبر أمورها بنفسها ، والتى
استعبدتها شهواتها ، بأنها لا بد أن تستسلم لسلطان غيرها ، فتقع فى ذل
العبودية بإرادتها وضد إرادتها معاً (٩٢) .

وفى أكتوبر ١٦٥٤ أطاد أولاك طبع « الدفاع الثانى » لملتون ، فى
لاهاى ، مع رد عليه بقلم مورس بعنوان « دليل دامنغ » . وفى المقدمة
أكد الطابع أن مورس ليس مؤلف « صرخة الدم للملكى » ، وأنه ، أى
أولاك ، تسلم مخطوطته من سلفاسيوس الذى أئى أن يعيط اللثام عن اسم
المؤلف . وأنكر مورس انكاراً تاماً أنه المؤلف ، وأكد أن ملتون قد
أبلغ بهذا مراراً وتكراراً ، واتهمه بأنه قد رفض من قبل تغيير « دفاعه » ،
لأنه لن يتبقى منه شئ يذكر إذا حذف منه السباب الذى وجهه إلى مورس .
وفى أغسطس ١٦٥٥ أصدر ملتون كتاباً من مائتين وأربع صفحات « دفاع
عن النفس » ورفض أن يصدق انكار مورس ، وأورد من جديد فعلته
الشائنة مع خادمه سالما سيوس ، وأضاف أنها ، فى شجار مشروع أوسعت
مورس ضرباً وطرحته أرضاً ، وكادت أن تفقأ عينيه (٩٣) . واسكن تبين فى
خاتمة اللطاف أن أحد رجال اللاهوت البروتستانت ، واسمه بيير دى مولان ،
هو الذى كتب « صرخة الدم للملكى » ، وأن مورس هو الذى نشره
وكتب إهداءه (٩٤) . ولما دعى مورس ليسكون راعياً لإحدى كنائس
الإصلاح قرب باريس ، أرسل شاعرنا عدة نسخ من « الدفاع الثانى » إلى
الأبرشية لمنع تعيينه (٩٥) . واسكن مجلس الأبرشية عينه على الرغم من ذلك
كله ، وختم مورس سيرته التى اكتنفها للمضايقات (١٦٧٠) وهو أنصح

الوظائف البروتستانت بياناً في باريس أو فيما حولها .

ويبدو ملتون في مظهر أرق في قصيدة السونيت « مذبحة بيد مونت » (١٦٥٥) (١٦). ويحتمل أنه هو الذي دون الرسائل التي أهاب فيها كرومول بدوق سافوي ليضع حداً لاضطهاد « الفدوا Vaudois » (أتباع بيتر خالدو — بيوريتانيون منشقون في جنوب فرنسا) ، وإلى مزران وحكام السويد والدنمرك والمقاطعات المتحدة ومقاطعات سويسرا ، ليتوسطوا لدى الدوق .

وفي ١٦٥٦ ، بعد أربع سنوات من حياة العزوبة ، تزوج ملتون من كاترين وودكوك التي لم تسكت حل عيناه بمرآها ، بطبيعة الحال ولكنها أثبتت أنها بركة ونعمة عليه ، فكانت ممرضة صابرة متجلفة لزوج مكفوف عنيف ، وأما لبناته الثلاث ، ولكنها قضت نحبها (١٦٥٨) ، أثناء وضع طفل لم يعمّر . وكانت تلك سنة عصبية على ملتون ، حيث رحل عن الوجود وكرومول أيضاً ، فكان لزاماً على السكرتير اللاتيني أن يحافظ على منصبه ، بقدر طاقته ، في غمرة فوضى الأحزاب التي انحدرت بريتشارد كرومول إلى مجرد رجل عاجز تافه محب للخير . وعلى الرغم من أن ملتون لا بد كان يدرك أن انجلترا سائرة في طريق استعادة ملكية آل سنيوارث ، فإنه أصدر في أكتوبر ١٦٥٨ طبعة جديدة من « دفاع الشعب الانجليزي عن نفسه » في أسلوب يغري بالاستشهاد . وفي مقدمة رائعة وصف ملتون « الدفاع الأول » بأنه « أثر ... تمنعذر إزالته بسهولة » ، وزعم أنه من وحى السماء ، ووضعه في المرتبة التالية لما أثر كرومول ، الذي ألقه حرية انجلترا (٩٦).

وقاوم في شجاعة صمياء حركة إعادة شارل الثاني ، وعندما وصل جيش مونك إلى لندن ، وتردد البرلمان بين الجمهورية والملكية ، نشر ملتون في فبراير ١٦٦٠ رساله موجهة إلى البرلمان ، تقع في ١٨ صحيفة ، « الطريق الممهد السهل لإقامة جمهورية حرة ، ومزاياه المرتقبة بالمقارنة إلى مساويء ومخاطر

إعادة الملكية في هذه الأمة . ومهرها في جرأة وإسالة باسمه (بقلم جون ملتون) وفيها ناشد البرلمان :

ألا يلوث ويهزأ بدم آلاف الانجليز المخلصين البواسل الذين خلفوا لنا هذه الحرية ، التي اشترينا بحياتنا نحن . وماذا عسى أن يقول خيرائنا عنا وعن اسم إنجلترا ، إلا أنهم على أحسن الفروض ، سيسخرون منا ، قدر السخرية بهذا الرجل النقي ، الذي أورد (مخلصنا) ذكره ، والذي بدأ يبني صرحاً وعجز عن إتمام البناء ؟ أين صرح الجمهورية الشامخ الذي تباهى الانجليز بأنهم سيقومونه ليتقلص ظل الملوك ، وتصبح إنجلترا رومة أخرى في الغرب ؟ ما هذا الجنون الذي اعتري هؤلاء الذين يستطيعون في شرف وكرامة أن يدبروا شئونهم بأنفسهم ، حتى يحولوا كل هذه السلطات إلى شخص رجل واحد ! يا للجبين والنذالة أن نحسب أن مثل هذا الفرد هو مناط حياتنا ، ونعلق عليه كل سعادتنا وأمتنا وسلامتنا وخيرنا ، وبدونه لا يكون لنا وجود ، أو نكون مجرد أفراد كسالى بلداء أو أطفال ! إنه ليجدر بنا أن نعتمد على الله وحده ، وعلى أنفسنا نحن ، وعلى فضائلنا العملية وفضلنا الجاد (٩٧) .

وتنبأ ملتون بأن كل (الاعتداءات القديمة) التي ارتكبتها الملكية ضد حرية الشعب سوف تعود وشيكاً بعودة الملكية . واقترح أن يحل محل البرلمان (مجلس عام) يضم أقدر الرجال الذين ينتخبهم الشعب للعمل حتى الموت ، ولا يخضعون للعزل إلا عند الإذانة بإحدى الجرائم ، ويجدد المجلس بانتخابات دورية . وعلى هذا المجلس ، على أية حال أن يوفر أكبر قدر ممكن من حرية الكلام والعبادة والحكم المحلي . واختتم ملتون رسالته بقوله : « أرجو أن أكون تحدثت إلى حد الإقناع إلى مجموعة كبيرة من الرجال الواعين المخلصين ، أو إلى بعض من قد يقيمهم الله من هذه المقاعد الحجرية ليصبحوا « أبناء الحرية » ، ويوفقهم ويجمعهم على قرارات حكيمة تقيم ما أهوج من أمورنا ، وتصلح ما فسد من أحوالنا ، وتعالج هذا الخلل العام

الملتقى في الجمهور الذي أسى واستغلاله وأعوزه من يوجهه ويرشده (٩٨) .
وتجاهل البرلمان هذا الالتباس الذي ينطوي على القضاء عليه . وظهرت
النشرات المطبوعة التي تهاجم ملتون ، وحبدت إحداها شنته وأصدر مجلس
الدولة ، وهو آتخذ ملكي النزعة ، أمرا بالقبض على طابع رسالة ملتون ،
وفصله من منصبه (السكرتير اللاتيني للمجلس) فكان جوابه على ذلك إنه
أصدر طبعة ثانية مزيّدة من الرسالة « الطريق للمهد السهل » (أبريل ١٦٦٠)
وحذر البرلمان من أن الوعود التي يقطعها الآن شارل من اليسير أن تنقض
بمجرد تثبيت دوائيم السلطة الملكية الجديدة . وسلم بأن غالبية الشعب ترغب
في عودة شارل الثاني ، ولكنه دفع بأن الأغلبية ليس لها الحق في استبعاد
الأقلية أو التحكم فيها . إنه لمن الأعدل ٠٠٠٠ إذا وصل الأمر إلى حد
الفرض بالقوة ، أن ترغب الأقلية مجموعة أكبر منها على أن تعيد إليها حريتها .
من أن تفرض الأغلبية على أقلية من الناس من بني وطنهم أن يكونوا عبيدا
أرقاء لهم ، بشكل يسيء إليهم أبلغ إساءة (٩٩) . وتكاثرت الهجمات والتملات
على ملتون وناشدت إحداها الملك شارل الثاني ، وكان آنذاك في بريدا
أن يتذكر جيدا الإهانات التي وجهها ملتون من قبل في رسالته « محطام
الصور » وغيرها ، إلى والده شارل الأول . واقترحت أن يفهم ملتون إلى
قائمة قتلة الملك الفعليين ، لأنه يستحق الإعدام (١٠٠) .

وقبل أن تصل هذه النشرة إلى شارل الثاني ، كان قد أبحر هو بالفعل
إلى إنجلترا ، وفي ٧ مايو ، ودع ملتون أولاده وآوى إلى مخبأ مع أحد
الأصدقاء . ولكن ككشف أمره وأودع السجن وبات مصيره لمدة ثلاثة
أشهر مرهونا بما يقرره البرلمان الملكي ورأى كثير من الأعضاء أنه إذا كان
نعمة من يستحق الإعدام ، فهو ملتون . وكان هذا متوقعا . ولكن مارفل
دافينانت وبعض الأعضاء الآخرين توصلوا إلى البرلمان أن يرحم شيخوخته
وبصره المكفوف . فاكتمل البرلمان بالأمر بإحراق بعض كتب بعينها
من مؤلفاته ، حينما وجدت . وأطلق سراحه في ١٥ ديسمبر ، فالتخذ دارا

في هلبورن ، انتقل إليها هو وأولاده ، حيث انصرف — بعد أحد عشر عامًا —
صاخبا غصيبا مضطربا ، عن النشر ، إلى الفترة الثانية من نظم الشعر ، وهي
فترة بالغة الروعة والعظمة .

٧ — الشاعر العجوز : ١٦٦٠ — ١٦٦٧

وجد ملتون بعض السلوى والعزاء في العزف على الأرغن وفي الغناء ،
ويقول أوبري « كان صورته رخيما رقيقة » (١٠١) « وفي ١٦٦١ انتقل إلى
دار أخرى ، وفي ١٦٦٤ استقر به للمقام نهائيا في بيت في Artillery Wolk ،
فيه حديقة صغيرة استطاع أن يتمشى فيها دون أن يقوده أحد سوى يديه
وقدميه . وكثيرا ما قدم إليه أبناء أخته لزيارته ومعاوئته ، وقد نسوا
ما كال لهم من ضرب في سابق الأيام ، كما جاء إليه الأصدقاء ليقرأوا له ،
أو يسكتبوا ما عليه عليهم . وتولى بناته الثلاث خدمته بصبر نافذ وجهد
جهيد . وكانت كبراهن — آن — عرجاء شوهاء لكناء . وكانت ديبورا
تتولى له الكتابة ، وتعلمت هي وأختها ماري قراءة اللاتينية واليونانية
والعبرية والفرنسية والإيطالية والأسبانية ولو أنهما لم تكونا تفهمان
ما تقرأن (١٠٢) . والحق أن أيا منهن لم تذهب قط إلى مدرسة ، ولكنهن
تلقن بعض الدروس الخاصة . ولكن لم يحظين من التعليم إلا بأقل نصيب ،
على أحسن الفروض وباع ملتون معظم مكتبته قبل وفاته ، لأن بناته لم تعين
بالسكتب إلا قليلا . وشكا من أنهن يعن السكتب خفية ، وأنهن أهملن شأنه
في وقت الحاجة والشدّة ، وأنهن تأمرن مع الخدم على مخالطته وسلبه عند
شراء حاجيات المنزل (١٠٣) ، ولم يشعر البنات بالسعادة في هذا البيت
الكئيب ، مع والد قاس كثير المطالب سريع الغضب . ولما سمعت ابنته ماري
بأنه يرتب لزواج جديد قالت : « ليس نمة أبناء تستحق أن تسمع عن زفافه ،
واسكن النبأ الجدير بالاستماع هو نبأ وفاته » (١٠٤) . وأخذ ملتون في
١٦٦٣ ، وهو آنذاك في الخامسة والخمسين ، زوجة ثالثة ، هي إليزابث
منشول M nsull ، وكانت في الرابعة والعشرين من العمر . وتولت خدمته

بإخلاص وأمانة حتى آخر أيام حياته . وبعد سبع سنوات مع زوجة الأب التي وصفها أوبري بأنها « وديعة مسالمة مرححة مقبولة » (١٠٥) هجر البنات الثلاث منزل والدهن ، ليتعلمن ، على نفقة ملتون بعض الحرف .

وكانت عودة الملك قد كلفته كثيراً ، وكادت أن تسكفه حياته ، ولكنها مهدت الطريق لنظم « الفردوس المفقود » . فلولاها ربما أفنى ملتون نفسه في التراشق بالنشر في المعركة ، لأن « المقاتل » كان في مثل قو « الشاعر » في شخصه . ورغم هذا كله ، لم يودع ملتون قط الأمل في أن يكتب لآنجلترا شيئاً تنفى به لقرون قادمة . وفي ١٦٤٠ أعد بياناً بموضوعات يمكن أن تكون ملحمة أو دراما ، كان من بينها موضوع خطيئة آدم (خروجه من الجنة) ، وأساطير الملك آرثر (ملك بريطانيا الذي يفترض أنه عاش في القرن السادس ق . م ، وبطل المائدة المستديرة) وتأرجح بين اللاتينية والإنجليزية ، بأيتهما يكتب ، وحتى حين قرقراره على « الفردوس المفقود » ، موضوعاته ، فكر في أن يكتبه على شكل مأساة إغريقية ، أو رواية دينية ، على غرار روايات العصور الوسطى ، وفي أوقات مختلفة نظم بعض أبيات أو مقطوعات أدخلت فيما بعد في القصيدة . ولم يتسن له إلا بعد وفاة كرومول ، أن يجد فسحة من الوقت بوميا ، ليكتب الملحمة ، وفي ١٦٥٨ فقد بصره تماماً .

في الأيام السود ، وألسنة سوء ، ولو أنها ولت ، فقد لفنا الظلام واكتنفتنا الأخطار من كل جانب (١٠٦) .

وتواردت على ذهنه الأبيات ، حين كان برقد طاجراً أرقاً ، ويكاد ينفجر بها . فينادي على من يكتب له قائلاً : « إنه يحتاج إلى من يحابه » (١٠٧) . وكانت تنتابه حمى الشعر ، فيملي أربعين بيتاً « في نفس واحد » ، ثم يجد في تصحيحها عندما تماد تلاوتها عليه . ويحتمل ألا تكون ثمة قصيدة نظمت بمثل هذا الجهد والسكد والشجاعة والجراءة . وداخل ملتون شعور قوي بأنه يمثل لآنجلترا هوميروس وإشعيا معا ، حيث اعتقد بأن الشاعر

صوت الله ، وأنه نبي أوحى إليه أن يعلم الناس .

وفي ١٦٦٥ ، حين انتشر الطاعون بلندن ، اتخذ التدابير صديق سجين من الكويكرز ، هو توماس الود ، لنقل ملتون ليقم في « كوخه المكون من عشر حجرات في « كالفونت سانت شيل في بكنجها مشير » . وهناك في هذه « المقصورة الجميلة » أكمل الشاعر « الفردوس المفقود » ولكن من ذا الذي يقدم على نشرها ؟ لقد كانت لندن في اضطراب بالغ في ١٦٦٥ - ١٦٦٦ بسبب الحريق الذي جاء في أعقاب الطاعون ، وإذا كان ثمة شيء من الفرح والمرح باق ، فهو عودة الملكية في صخبها وعربدتها . وفي حالة نفسية ليس معها مجال للمحمة من ١٠٥٥٨ بيتا عن الخطيئة الأولى . لقد حصل ملتون من قبل على ألف من الجنيهاات عن رسالته « دفاع الشعب الإنجليزي » أما الآن ، في ٢٧ أبريل ١٦٦٧ ، فقد باع كل حقوقه في « الفردوس المفقود » إلى الناشر صمويل سيمونز لقاء خمسة جنيهاات نقداً ، مع الاتفاق على دفعات أخرى قيمة كل منها خمسة جنيهاات ، يتوقف تسديدها على ما يباع من الكتاب ، فكان كل ما حصل عليه هو ١٨ جنيها (١٠٨) . ونشرت القصيدة في أغسطس ١٦٦٧ . وبيع منها في العامين الأولين ١٣٠٠ نسخة ، وفي الأحد عشر عاماً الأولى بيع ٣٠٠٠ نسخة . وربما لا يقبل على قراءة القصيدة بأكملها مثل هذا العدد من القراء في أية سنة في أيامنا هذه ، فليس لدينا فراغ كبير ، حتى لقد اخترعنا كثيراً من الأدوات التي توفر الجهد .

وتشارك « الفردوس المفقود » مع « ابيادة فرجيل » ، فيما أصاب كليهما من نسكسة وتعويق ، اظهروهما بعد الياذة هو ميروس ، فان مشاهد المعركة والحاربين للطبيعة يفقدون قوتهم وسحرهم ، اسكونهم تقليداً ومحاكاة . ولا ريب في أن هو ميروس قد نماذج قديمة ، ولكننا استيناها ولم نعد نذكرها ، وذهب جوانسون إلى أن « الفردوس المفقود » ، بطبيعة موضوعها ، تمتاز على ما عداها ، بأنها ممتعة مشوقة للجميع دائماً ، ولكنه

اعترف بأن « أحدا لم تساوره الرغبة في أن تكون أطول مما هي (١٠٩) .
 أن موضوع « الخطيئة الأولى للإنسان . ونمار الشجرة المحرمة التي جلب
 مذاقها القاتل الموت والفناء على العالم ، وجلب علينا كل الكروب
 والويلات » ، كان موضوعا مناسبا إلى حد كبير ، لأيام شباب ملتون ،
 حين كان يتلقى سفر التكوين على أنه تاريخ ، وحين كانت الجنة والنار ،
 ولللائكة والشياطين ، هي نسيج التفكير اليومي . أما اليوم فان موضوع
 القصيدة أكبر عائق في سبيلها ، إنها قصة خرافية تروى للشبان في أحد عشر
 قسما ، وأن الاستمرار في مشاهدة مثل هذا العرض الطويل اللاهوت من
 البداية حتى النهاية جاف قاس عتيق ، ليتطلب اليوم جهدا شاقا متسللا .
 وما كان الهراء ليسع عليه يوما مثل السمو والرفعة قط . ان عظمة المشهد
 وجلاله ، ومعانقة الجنة والنار والأرض ، والانسباب الفخم المهيّب للشعر
 المرسل ، ومعالجة الموضوع المسقد ببراعة فائقة ، والوصف الرقيق الجديد
 للطبيعة ، والمحاولة الموفقة لأسباغ الواقعية والشخصية على آدم وحواء ،
 وكثرة القطع الشعرية البالغة الروعة والقوة ، كل أولئك بعض الأسباب التي
 جعلت من « الفردوس المفقود » أعظم قصيدة في اللغة الإنجليزية .

وتبدأ القصه في جهنم حيث الشيطان على هيئته طائر « ضخّم الجسم » ،
 ذى جناحين مبسوطين ، ينصح ملائكته الهاطّين بالآيأسوا :

لم يضع كل شيء ، فان الإرادة التي لا تقهر ، وتدبر الأخذ بالثأر
 والكراميه التي لا يخبوا أوارها أبداً ، والشجاعة التي لا تخضع ولا تستسلم ،
 أما أن تلثني متوسلة للرحمه ، هلى ركبتين ضارعتين ، وتعظم من سلطانه . . .
 فهذا أمر دنيء خفا هذا خزي وعار أنكى من هذا السقوط ويبقى العقل
 والروح ولا سبيل إلى قهرهما (١١٠) . . .

وكأنني بهذه الأبيات تردد صدى كرومول وهو يتحدى شارل الأول ،
 وصدى ملتون وهو يتحدى شارل الثاني ؛ ونعم عدة قطع في وصف
 الشيطان تذكرنا بملتون :

عقل لا يغير منه زمان أو مكان ، فالمقل راسخ في مكانه ، يستطيع في نفسه أن يجعل من الجنه جحيماً ، ومن الجحيم جنه (١١١) .

وفي الأجزاء القديمة من القصيدة نجد أن فصاحه ملتون أفترته بأن يرسم لا بليس صورة تسكاد تتسم بالود والعطف ، وكأته زعيم ثورة ضد الساطة الرسمية الاستبدادية . وتخلص الشاعر من أن يجعل الشيطان بطل الملحمة بتصويره ، فيما بعد ، بأنه « أبو الأكاذيب » الذي « يحتم مثل ضفدع الطين » . أو كالأفعى التي تنزلق ملتوية فوق الوحل (١١٢) . ولكن في هذا القسم من الملحمة نفسه ينهض الشيطان مدافعاً عن المعرفة :

المعرفة محرمه محظورة ؟ لماذا ينفس عليهما ربهما ذلك ؟ هل تكون المعرفة انما ؟ أو تكون فناء ؟ هل يعيشان (آدم وحواء) على الجهل وحده ؟ أو أن حالتهما السعيدة هي دليل طاعتها وإيمانها ؟ سأثير في عقليهما مزبداً من الرغبة في المعرفة (١١٣) . . .

ومن ثم يحاور حواء وكأن كنيسة عقلانية تحمل على كنيسة جامدة تعيش في ظلام الجهل ، تقف عقبه كأداة في طريق انتشار المعرفة :

لماذا إذن كان هذا التحريم ؟ . لماذا كان ، إلا ليرهب عباده ويبقيهم على حالة من الإنحطاط والجهل ، إنه يعلم أنه في اليوم الذي تأكلان من تلك الشجرة ، فإن أعينكما التي تبدو الآن صافية ولكنها كيلة ، سوف تنفتح وتصفو تمام الانفتاح والصفاء ، ومن ثم تكونان مثل الآلهة (١١٤) .

ويأمر روقائيل ، وهو أحد الملائكة ، آدم ، بأن يسكب من حبه لاستطلاع الكون ، فليس من الحكمة أن يتطلع الإنسان إلى معرفة ما وراء نطاقه الفاني (١١٥) فالإيمان أعقل من المعرفة .

وكان لنا أن نتوقع ألا يفسر ملتون « الخطيئة الأولى » بأنها رغبة في المعرفة ، بل أنها علاقة جنسية . أنه على المقيض من ذلك ، ينشد تسبيحة غير بيوربتانيه اطلاقاً ، من أجل مشروعيه اللذة الجنسية ، في حدود الزواج ، ويصور آدم وحواء منغمسين في مثل هذه القيم المادية ، مع

بقائهما على « حالة البراءة » (١١٦) ، ولكن بعد « الخطيئة » أى أكل
الفاكهة المحرمة من شجرة المعرفة — بدأ يستشعران الخزي والعار فى
الاتصال الجنسي (١١٧) . وهنا ينظر آدم إلى حواء على أنها مصدر كل
الشر ، « ضلع أعوج بالطبيعة » ويرثى لأن الله خلق المرأة :

لماذا خلق الله فى النهاية هذه البدعة على الأرض ، هذه العلة الجميلة
فى الطبيعة ، ولم يملأ العالم على الفور ، برجال مثل الملائكة ، دون إناث ،
أو يجد طريقة أخرى لتوالد بنى البشر (١١٨) ؟ .

ومن ثم فإن الإنسان الأول ، فى تاريخ الزواج فى الكتاب المقدس ،
سبرعان ما اصطنع ذريعة ليطلق الرجل زوجته فى سهولة ويسر ، وهنا نجد
ملتون ينسى آدم ، ويكرر شعرا ما سبق أن ذكره نثرا ، عن خضوع
للرأة خضوعا حقيقيا تاما للرجل (١١٩) . وسيعود إلى هذه اللازمة فى قصيدة
« Samson Agonistes » (١٢٠) . فهى حمله الأثير الحبيب إلى نفسه . وفى
رسالته السرية « العقيدة المسيحية » دافع عن إعادة « تعدد الزوجات ،
ألم يحزه العهد القديم . ألم يترك العهد الجديد هذا القانون الحكيم الشجاع
دون إلغاء أو تعطيل ؟ (١٢١) .

ومهما فسرت « مخالفة الإنسان الأول لأمر ربه » (الخطيئة الأولى) ،
فقد ثبت أنها موضوع أصغر من أن يملأ اثنى عشر قسما ، لأن لللاحمة تتطلب
سلسلة من الأحداث والأعمال ، ولكن حيث أن ثورة الملائكة انتهت حين
بدأت القصة . فان المسرحية لا تدخل إلى القصيدة إلا عن طريق الذكريات
أو العودة إلى الماضى ، وهو صدى آخذ فى الذبول والثروال . ومشاهد المعركة
موصوفة وصفا جيدا ، بما فى ذلك التصارع المناسب بالسلاح ، وشج
الرؤوس وتقطيع الأوصال ، ولكن من العسير أن تشعر بالآلم أو بنشوة
الابتهاج لهذه الضربات الخيالية . وعلى غرار الكتاب المسرحيين الفرنسيين
يطلق ملتون لنفسه العنان للخطابة ، فالجميع ابتداء من « الله » إلى حواء
يخطبون ، ولم يجد الشيطان فى سمير جهنم ما يحول بينه وبين البلاغة وأنه

لمن المزعج حقا أن نعلم أنه حتى في الجحيم سنكون مضطرين إلى الاستماع إلى محاضرات .

« والرّب » في هذه القصيدة ليس هو التّألق الذي يجلب عن الوصف الذي تحس به في « جنة دانتى » فهو في القصيدة فيلسوف سكولاس (فيلسوف نصراني من العصور الوسطى) ، يدلى بأسباب مطولة غير مقنعة ، لأنه وهو القادر على كل شيء ، يجيز للشيطان أن يوجد ، وأن يغوى الإنسان ، متنبئاً ، طوال الوقت ، بأن هذا الإنسان سيذل وينحضع ، ويحلب على البشرية بأسرها قرونا من الخطيئة والشقاء والتماسة . ويحاج بأنه بدون حرية الإثم لا تكون القضية ، وبدون التجربة لا توجد الحكمة والتعقل ، ويرى أنه من الأفضل أن يواجه الإنسان الإغراء ويقاومها ، من عدم التعرض للإغراء إطلاقاً ، دون أن يتوقع أبداً أن الصلوات سوف تتوصل إلى الله ألا يقود الإنسان إلى الغواية والإغراء . ومن ذا الذي يطبق التعاطف مع تمرد الشيطان على هذا السادي الذي لا يصدق ؟ (السادية : الابتهاج بالقسوة المفرطة) .

وهل كان ملتون يؤمن حقا بهذا الهول الجبري المقدر ؟ . من الواضح أنه كان كذلك ، لأنه بسط الكلام فيه ، لافي « الفردوس المفقود » فحسب ، بل في رسالته المرية « العقيدة المسيحية » كذلك (١٢٢) . أي أن الله ، قبل خلق الإنسان زمن طويل ، قدر أي الأرواح يكتب لها الخلاص ، وأياها قدر عليها العذاب المقيم . وانطوت هذه الرسالة ، على أية حال ، على شيء من الهرطقة . ولم ينشرها ملتون قط ، ولم يكشف أمرها إلا في ١٨٢٣ ، ولم تصل إلى المطبعة إلا في ١٨٢٥ .

إن هذه الرسالة وثيقة جديدة بالذّكر ، فهي تبدأ في إطار من النقوى ، وبدون جدل أو لجاجة ، بافتراض أن كل كلمة في الكتاب المقدس هي وحي من عند الله . وسلم ملتون بأن نصوص الكتاب المقدس قد طرأ عليها « التزييف والتشويه والتبديل » ولكنها حتى في صيغتها الراهنة ، من صنع

الله . وهو لا يجيز غير التفسير الحرفي الأمين . فإذا جاءت الأسفار بأن « الرب » ، إستراح ، أو خاف ، أو ندم ، أو كان غاضبا ، أو حزينا ، فإنه ينبغي أن تؤخذ هذه الألفاظ بمعناها الظاهري ، وألا تخفف على أنها مجازات ، بل كذلك أجزاء الجسم والصفات الجسدية التي تنسب إلى « الله » يجب قبولها على أنها حقيقية من الوجهه المادي (١٢٣) . ولكن « الله » بالإضافة إلى هذا الكشف الظاهري الذي جاءت به الأسفار المقدسة والذي يكشف به عن كنهه فإنه ، زودنا بوحى داخلى ، هو الروح القدس الذى يتحدث فى داخل قلوبنا . وهذا الوحى الداخلى « الملك الخاص لكل مؤمن ، أسمى بكثير ... ومرشد أصدق ، من الأسفار المقدسة (١٢٤) . ومهما يكن من أمر ، فإن ملتون يقتبس من الكتاب المقدس ، ما يؤيد ما يسوق من حجج ، على أنه البرهان الحاسم الدامغ .

وعلى أساس من الأسفار المقدسة ، ينبذ ملتون نظرية الثالوث الأقدس التقليدية ، وبؤثر عليها هرطقة آربوس (الذى يقول بأن المسيح ليس من مادة الله ، بل هو خير خلقه فقط) ، فالمسيح بكل معنى الكلمة ، ابن الله ، ولكن الأب ولده فى زمن ما ، ومن ثم فهو غير معاصر للأب وليس متساويا معه أبدا . فالمسيح هو الوسيط الذى خلقه الله على أنه « الوجود أى الكلمة » الذى سيخلق منها كل من عداه . ولا يسلم ملتون « بالخلق من العدم » ، فعالم المادة ، مثل عالم الروح ، إنبثاق أو فيض سرمدى من المادة الإلهية . وحتى الروح نفسها ، فهى مادة رقيقة جدا أثيرية ، ولا يجوز تمييزها تمييزا حادا عن المادة . وفى النهاية ، المادة والروح ، والجسم والنفس فى الإنسان ، شىء واحد (١٢٥) . وثمة شبه كبير يستحق الملاحظة بين هذه الآراء ، وآراء هوبز (١٥٨٨ — ١٦٨٩) وسبينوزا (١٦٣٢ — ١٦٧٧) ، وقد نرى أنهما فارقا الحياة فى نفس العقد من السنين الذى مات فيه ملتون (١٦٠٨ — ١٦٧٤) . وربما اطلع ملتون على مؤلفات هوبز التى كان لها دوى ملحوظ فى بلاط شارل الثانى .

وظلت عقيدة ملتون خليطاً غريباً من التوحيد والمادية ، ومن مذهب
حرية الإرادة عند جاكوب أرمينيوس (لاهوتى برتستانتى هولندى
(١٥٦٠ - ١٦٠٩) ، ومن مذهب الجبرية أو القضاء والقدر عند كلفن .
ويبدو فى كتاباته أنه كان رجلاً متعمقاً فى أمور الدين . ومع ذلك لم يذهب
قط إلى الكنيسة حتى قبل فقد بصره ، ولم يقيم الشعائر الدينية فى
بيته (١٢٦) . وكتب دكتور جونسون : « فى توزيع ساطاة لم يخص وقتاً
للصلاة ، وحده ، أو مع أهل بيته . وحذف الصلوات العامة ، لقد حذف
الصلوات جميعاً (١٢٧) » . وازدرى رجال الدين ، ونعى على كرومول احتفاظه
بعدد من رجال الدين تدفع الدولة رواتبهم ، على أنه لون من « عبادة
الأوثان » ، يؤذى الدولة والكنيسة معاً (١٢٨) . وفى أحد بياناته الأخيرة
« بحث فى العقيدة الحققة ، والهرطقة والإلشقاق عن الكنيسة والتسامح ،
وأمثل الطرق للحيلولة دون نمر البابوية » (١٦٣٣) عارض بطريق مباشر
الاعلان الثانى الذى أصدره شارل الثانى عن التسامح (١٦٧٢) ، محذراً
المجترات من التسامح مع الكاثوليك وأنصار التوحيد ، أو أية شيعة أخرى
لا تعترف بالكتاب المقدس أساساً وحيداً لمذهبها .

أن هذا الرجل الذى تفوح منه رائحة الهرطقة ، عرف عنه مقاومة رجال
الدين وتدخلهم فى الشؤون العامة والخروج على الكنيسة ، هو نفس الرجل
الذى أخرج للعقيدة المسيحية أكرم شرح حديث لها .

٨ — السنوات الأخيرة : ١٦٦٧ - ١٦٧٤

احتفظ ملتون مع دخوله فى العقد السابع من العمر ، فيما خلا فقد
البصر ، بصحة جسمه وإعتداده بنفسه ، وهما اللذان دهماه وسانداه فى كل
الصراعات الدينية والسياسة التى خاضها . ويصفه أوبرى بأنه « نحيل ...
متوسط القامة » ... فهو جسم جميل متناسب الأجزاء ، وبشرته فوق
المتوسطه ... صحيح الجسم ، لا يشكو علة ، قلما يتناول الدواء ، وكل ما فى
الامر أن النقرس انتابه فى أخريات أيامه (١٢٩) . وكان شعره الذى فرقه

في الوسط يتدلى على كتفيه في حليقات أو عقصات • ولم تنبذ عيناه عن
فقد بصره • وظلت مشيته ثابتة منتصبه • وكان إذا غادر بيته بدا على زيه
شدة الحساسه والكلف بملابسه ، وتمنطق بسيف ، لأنه كان فخورا ببراعته
في المبارزة واللعب بالسيف (١٣٠) • وأضفت عليه الثقة الزائدة عن الحد
وقارا ، وعزوا عن المرح • ولكنه كان مع ذلك حلو الحديث إلا إذا لقي
سعارضه • ولم يكن بيوريتانيا بكل معنى الكلمة : كان عنده شعور
البيوريتانيين بالإثم ، والجحيم والإصطفاء والأسفار المقدسه التي لا تخطئ • ،
ولكنه استساع الجمال واستمتع بالموسيقى ، وألف روايه ، واحتاج إلى
عدة زوجات ، وتخلفت أثارة من حيويه عصر الزايت وسط رزائمه الخاليه
من المرح • وكان أنانيا ، أو أنه كشف عن أنانيته الطبيعيه إلى حد الافراط
غير المؤلف • إنه كما قال أنطوني رود : « لم يكن يجمل مواهبه (١٣١) » ،
وكما قال جونسون « قل من الرجال من كتب كثيرا وامتدح قليلا من
الناس ، مثله (١٣٢) » ، وربما تطلبت العبقرية أنانيه يدهمها اعتداد داخلي
بالنفس ، حتى تقف في ثبات في وجه الجمهور • إن أثقل ما يمكن قبوله
في ملتون هو طاقه الكراهيه والبغضاء عنده ، وإساءته المفرطه لمن اختلفوا
عنه وذهب إلى أنه ينبغي علينا أن نصلي من أجل اعدائنا ، ولكن ينبغي
أيضا أن نستنزل اللعنات جهاراً على أعداء الله وأعداء الكنيسه ، وكذلك
على الأخوان المضللين الزائفين ، أو من يقتربون الآثام الفظيحه ضد الله ، أو حتى
ضد أنفسهم (١٣٣) • أما الوجه الآخر لهذه العاطفه المشبوهه ، فهو شجاعه
النبي في استنكار زمانه ، فإنه بدلا من أن يكتم فاه ما افترن بعودة الملكيه
من شعب وصخب ، هاجم في عنف ، غراميات البلاط « في عهد شارل
الثاني » ، « والشهوات والاعتصاب » في القصور ، و « البسات المشتراة على
شفاه بنات الهوى » و « المسرحيات الخليعه أو حفلات الرقص في منتصف
الليل (١٣٤) » •

وكانما كان ملتون يقذف ، بآخر سيم في جمبته تحديا للعصر المظلم ،

حين نشر في يوم واحد (٢٠ سبتمبر ١٦٧٠) في غير ماشفقه ولا رحمة ،
اثنين من أعماله : « الفردوس المستعاد » و « شمشون الجبار » . في ١٦٦٥
بعد أن انتهى توماس الود من قراءة ملحة ملتون الأولى تمجدا قائلا :
« لقد تحدثت هنا كثيرا عن الفردوس المفقود ، فإذا عساك تقول الآن عن
الفردوس الذي وجد ؟ » (١٣٥) ، وطرقت الفكرة ذهنه بشدة ، ولكنه
تساءل : كيف يعرض استعادة الفردوس في أية مرحلة في التاريخ ، فإن
موت المسيح نفسه لم يظهر الإنسان من الجريمة والشهوة والحرب ولكنه
فسكر أنه رأى في مقاومة المسيح لاغراء الشيطان ، وعدا بأن جانب الله
في الإنسان لا بد يوما أن يقهر جانب الشيطان في الإنسان نفسه ، وبهية
للحياة تحت حكم المسيح والعدالة على الأرض .

ومن ثم فإن ملتون في الأقسام الأربعة من « الفردوس المسترد » ، لم
يركز في حياة المسيح على الصلب ، بل على « تجربة الاغراء في البرية » ،
حيث يقدم الشيطان للمسيح « ولدانا ... أجل من سقاة الآلهة » ، ثم
« الحور والعذارى القاتنات » ، وسيدات من حدائق التفاح الذهبي ، ثم
يعرض عليه المال والثراء — ولكن أولئك دون جدوى . ثم يريه الشيطان
رومه الإمبراطورية تحت حكم تيبيريوس المنهوك المسكروه الذي لم يعقب ،
فهل يريد المسيح أن يقود ثورة بعون من الشيطان ، وينصب نفسه امبراطور
على العالم ؟ . ولما لم يرق هذا في عيني يسوع ، ولم يستهو قلبه فإن الشيطان ،
أراه أثينا بلد أرسطو وأفلاطون ، فهل يرغب في الالتحاق بهما ليكون
فيلسوفا ؟ ثم يدخل المسيح والشيطان في حوار غريب حول مزايا الأدب
اليوناني والعبري . فينحاز المسيح إلى جانب أنبياء وشعراء بني إسرائيل على
أنهم أسمى بكثير من اليونانيين :

أخذت اليونان عنا هذه الفنون ، ولم تجسن تقليدها (١٣٧) .

وبعد قسمين من الملحة استغرقهما الحوار ، أقر الشيطان بهزيمة ،
وبسط جناحيه وطار ، على حين تتجمع فرقة من الملائكة حول المسيح

المنتصر ، وتنشد :

الآن انتقامت لآدم المغدور به ، وبالتغلب على الإغراء استعدت
الفردوس المفقود (١٣٨) .

ولم يرو ملتون لنا القصة بمثل الروعة الفياضة الرنانة التي تجلت في الملحمة
الأولى الكبرى ، ولكن بمثل براعته في الشعر ، وميله إلى الحاجة ، وهما
أمران معهودان فيه ، كما كشف في القصة طوال الوقت عن سعة معلوماته
في الجغرافية والتاريخ . ولم يستمر في القصة حتى حادث صلب المسيح ، وربما
كان مرد ذلك إلى أنه لم يتفق مع القائلين بأن موت المسيح هو الذي فتح
أبواب الجنة من جديد . فالفضيلة وضبط النفس وحدهما اللذان يجلبان
السعادة . ولم يدرك ملتون قط لما رفضت إنجلترا أن تأخذ بأخذ الجلد ، إعادة
كتابة الأناجيل على هذا الشكل المضحك ، وذهب إلى القول بأن الملحمة
الثانية ليست أقل من الملحمة الأولى ، اللهم إلا من حيث مداها (١٣٩) .
وكان لا يطيق أن يسمع أن « الفردوس المفقود » تفضل « الفردوس
المسترد » (١٤٠) .

وتألفت عبقرية ملتون لآخر مرة في « شمشون أجونست — الجبار » .
إنه بعد أن تحدى هوميروس وفرجيل ودانتى ، بملحمته ، نراه الآن يتحدى
أخيلس وسوفوكليس برواية ارتضت كل قيود المأساة (التراجيديا)
اليونانية . وهو في المقدمة يطلب إلى القارئ أن يلاحظ أن المسرحية
(الدراما) تخضع للوحدات التقليدية القديمة ، وتتجنب « خطأ الشاعر
في خلط المادة الهزلية (الكوميديا) بأحزان المأساة ووقارها ورهبتها ،
أو في إدخال شخوص تافهين متبذلين . وهنا نجد ملتون يولى ظهره لعصر
الزباث ، ويشق طريقه إلى اليونان ولا يبعد كثيراً عن النماذج اليونانية .
إن شمشون الذي فارقته قوته بعد أن حلقت دليته سبع خصلات من شعر
رأسه ، وقلع من أوثقوه من الفلسطينيين عينيه ، نقول أن شمشون هذا
لا يحكى فقط ، أوديب المكفوف في كرولونس ، بل أنه يحكى ملتون
نفسه يعيش في عالم بغيض لا يرى منه أثراً — م ٧ — قصة الحضارة

« خيريين أعداء ، أواه هذا شيء أسوأ من الأغلال أو الزنازة أو التسول ، أو المعجز بفعل الهرم ، فالضياء ، وهو فاتحة صنع الله ، منطقي » أماي ، ولا أملك من مباهجه شيئاً . ربما كان يهدي من آلامى وأحزاني ، آه ، أه . ظلام والقتام والخلمكة وسط وهج النور عند الظهيرة ، ينشر كسوفاً كلياً لا خلاص منه ، دون أى أمل في بزوغ النهار (١٤١) .

والحق أن الرواية كلها يمكن تفسيرها بأنها قصة رمزية متناغمة متماسكة : فملتون هو شمشون يناضل ويتعذب في سجنه ، وبنو إسرائيل المقهورون هم البيوريتانيون ، أى الشعب المختار حطمت عودته الملكية ، والفلسطينيون هم الملكيون الوثنيون المنتصرون ، وهدم هيكلهم يسكاد يسكون تنبؤاً « بالثورة الجلية » التى أطاحت بآل ستيورات « الوثنيين » فى ١٦٨٨ . أما دليلة فهى المرأة الخائنة ماري باول ، Powell . وتكرر فرقة الموسيقى (الكورس) حجج ملتون ومناقشاته من أجل الطلاق (١٤٢) . ويسكاد ملتون يسكون قد تخلص من غضبه وحقه بترديد تلك الحجج والمناقشات على لسان شمشون الذى يتقبل نهايته التى لا بد آتية :

« سوف تمضى سلالة المجد ، أما سلالة الخزي والعار التى ستبقى فسألق بها وشيكاً (١٤٣) » .

وفى يولييه ١٦٧٤ أحس ملتون بأنه يضعف وتخطط قواه ، ولأسباب لا نعلمها أهل تدوين وصيته . وبدلاً من ذلك ، وجه إلى أخيه كريستوفر وصية « شفوية » تسكاد تسكون غير مسطورة ، نقلها كريستوفر على الوجه الآتى :

« أخى ، إنى أترك نصيبى من تركه مستر باول Powell والد زوجتى السابقة ، لأولادى العاقين ، ولكنى لم أقسم شيئاً منه ووصيتى ومقصدي ألا يستولوا على أى جزء آخر من ضيعتى أكثر من الجزء المذكور ، وبما ضيعت من أجلهم ، غيره ، لأنهم قصرُوا أشد التقصير فى القيام بواجبهم نحوى ، أما بقية ضيعتى فأنى أضعها تحت تصرف زوجتى الحبيبة إليزابث (١٤٤) وأطاد ملتون هذه الوصية الشفوية على أسماع زوجته وأماس غيرها فى أوقات مختلفة .

وتثبت ملتون بالحياة في عزيمة قوية . ولكن آلام النقرس اشتدت عليه يوماً بعد يوم حتى شلت يدها وقدماه . وفي ٨ نوفمبر ١٦٧٤ أنهكت الحمى قواه ، وفارق الحياة في تلك الليلة . وعاش ملتون خمسا وستين سنة وسبعة أشهر . ودفن في مقبرة كنيسة الأبرشية ، في سانت جيل كرابجيت ، بجوار والده . وكان القانون الإنجليزي يعترف بالوصايا الشفوية حتى ١٦٧٧ ، ولكن المحاكم كانت تدقق فيها تدقيقاً شديداً . واعترض البنات على وصية أبيهم ، ورفضها القاضي ، وأعطى ثلثي المال للزوجة ، والثلث الباقي ، وقدره ٣٠٠ جنيه للبنات . أما الحصة في أموال باول فلم يدفع منها شيء قط .

وأنا لنعلم عن ملتون أكثر كثيراً مما نعلم عن شكسبير ، ولا بد من تدوين الكثير عنه حتى نخرج له صورة حقيقية أو نصفه وصفاً كاملاً . ولكننا لا نزال نجهل ما يكفي للحكم عليه . إذا كان هذا ممكناً بالنسبة لأي رجل . فنحن لا نعلم ، بشكل كاف ، لماذا أثار بناته إستهياؤه إلى هذا الحد ، ولا كيف طامن زوجته الثالثة التي واسته وأراحته في سني شيخوخته ، ولكننا نستطيع فقط أن نبدي الأسف على أنه عجز عن كسب حبهم . ولسنا ندرى بالتفصيل لماذا ارتضى أن يكون رقيباً على الصحافة أيام كرومول ، بعد دفاعه المجيد عن « حرية المطبوعات » . ويمكن أن نعزو كثيراً من تعسفه وبذاءته في الخصومة إلى أحوال العصر ومعاييره . وقد نغتنر غروره وأنانيته باعتبارهما الركيزة التي تستند إليها العبقرية إذا لم تجد إلا القليل من ثناء الدنيا واطرائها . ولسنا بحاجة إلى الاستمتاع به رجلاً ، والإعجاب به شاعراً ، وواحداً من أعظم الناشرين الإنجليز .

إن الذين يعتزمون قراءة الفردوس المفقود من البداية إلى النهاية ، سيتولاهم الدهش إذ يجدون أنها غالباً ما تخلق في آفاق عالية من الخيال والبيان ، حتى ليغتفرون أن طاجلاً أو آجلاً ، الصفحات المملة المحشوة بالنقاش أو العلوم أو الجغرافيا ، وكأنها بمثابة فترات لالتقاط الأنفاس من من فرط التأثر والتعليق . وأنه لمن الحق أن نتوقع أن تبقى هذه التحقيقات

المعركة في التناغم والعاطفة بصفة مستمرة ، فقد يكون هذا في القصائد القصيرة . وهناك في ثر ملتون وبخاصة في « الأريوباجيتيكا » ، قطع ، لا يسمو عليها ، في قوتها وروعها ، وفكرها وموسيقاها ، شيء من سلسلة الأدب الديوى في العالم .

وأضنى عليه معاصروه شهرة يشوبها الحسد والتذمر ، وفي الفترة التي صعد فيها حزبه إلى منصة الحكم ، كان مناضلا ناثرا ، ونسيت قصائده الغنائية الأولى . ونشر ملتون قصائده الكبرى في عهد عودة الملكية ، ذلك العهد الذي احتقر شيعة ، ورضى له البقاء على قيد الحياة ، على كره منه . وعندما طلب لويس الرابع عشر من سفيره في لندن أن يحدد له أحسن الكتاب الإنجليز الأحياء ، كان جواب السفير : لا يوجد منهم من يستحق الذكر إلا ملتون الذي دافع من قبل ، من سوء الحظ ، عن قتل الملوك الذين كانوا آنذاك يشنقون أحياء أو أمواتا . وحتى في هذا العصر المستهتر المشاغب ، على أيه حال ، نجد أن أشهر شعرائه ، جون دريدن ، الذي قال عنه ملتون من قبل أنه « ناظم قواف جيد ، وليس بشاعر (١٤٥) » . نقول ان دريدن هذا ، اعتبر « الفروس المفقود » من أعظم وأروع وأسمى ما أبدع هذا العصر وهذه الأمة من قصائد (١٤٦) . وبعد أن دالت دولة أسرة ستيورات عاد إلى ملتون مجده ومكانته الرفيعة . وأطنب أديسون في إمتداحه في مجلة « سبكتاتور » . ومنذ ذلك الوقت ازدادت صورة ملتون رفعة وقداسة في ضمير بريطانيا (١٤٧) حتى نأجاه وردزورث في ١٨٠٢ : « أي ملتون ، ما كان أجدرك أن تكون حيا بيننا في هذه الساعة . . . ، أن روحك مثل نجم رحل عنا بعيدا ، لقد كان لك صوت يهدير كالبحر ، صاف مثل السموات المكشوفة ، صوت كريم حر » .

أن نفسه كانت مثل أثر باق ، قام بعيدا عن أقرب الناس إليه ، ولكن عقله خلق مثل السموات العلى ، فوق كل هموم البشر ، وصوته يدوى في الأسماع مثل « البحر المتلاطم الأمواج » عند هوميروس .

الفصل التاسع

عودة الملكية

١٦٦٠ — ١٦٨٥

١ — الملك السعيد

دخل الملك شارل الثاني لندن في اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٦٦٠، أى بعد ثلاثين سنة كاملة من مولده، وسط مظاهر فرح واحتياج، تفوق كل ماتعيه ذاكرة انجلترا من مثلها، يواكبها عشرون ألفاً من حرس المدينة، تعرف أعلامهم استازا وزهوا، ويلوحون بأسياهم وسط شوارع انتشرت فيها الأزهار، تتدلى فيها البسط المزدانة بالرسوم والصور، تدوى فيها الطبول والنواقيس وهتافات الترحيب، وتكتظ بنصف سكان المدينة. وكتب ايفلين: «وقفت على «الشاطئ»، ورأيت هذا المشهد «وحدث الله» (١). وهو مشهد كشف عن مزاج انجلترا، وخيبة البيوريتانيين واخفاقهم، فقد اقتضى خلع شارل الأول ست سنوات من الحروب والاضطرابات، على حين لم ترق نقطة دم واحدة في سبيل عودة ابنه إلى العرش. وتقاطر الإنجليز على قصر هويتول لتحية الملك، طوال هذا الصيف الذي غمرته البهجة. وقال أحد شهود العيان: «كان تلهف الرجال والنساء والأطفال على رؤية جلالته وتقبيل يديه، شديدا إلى حد أنه لم يكذب فسخة من الوقت لتناول الطعام لعدة أيام... ولما كان الملك راغبا كل ارغبة في ارضاء نفوسهم، فإنه لم يرد عنه أحدا، ولم يغلق الأبواب دون أى من الناس» (٢). وصرح بأنه يريد أن يكون كل شعبه سعيدا مثله.

ولو أن الملك أخذ أية مشكلة مأخذ الجد في أيام الظفر هذه، لحلت

العقائد والمصائب التي ورثها شهر العسل بالسواد والقمام . فقد بلغ رحيل الخزانة ١١ جنيه و ٢٨ شلن و ١٠ بنسات ، وكانت الحكومة مدينة بليونى جنيه . ولم تسدد رواتب الجيش والبحرية لعدة سنوات ، وكانت إنجلترا فى حرب مع أسبانيا . وأخذت ميناء دنكرك ، بشكل غير مستقر ، لقاء مائة ألف جنيه سنويا ، وطالب بالتمويض عشرة آلاف من الفرسان الذين حاربوا من قبل فى صفوف شارل فسلبهم كرومول أموالهم . ثم أن عشرات الآلاف من الرجال الوطنيين قدموا ظلمات يلتمسون فيها إلحاقهم بالوظائف ذوات الرواتب الكبيرة والعمل اليسير ، وأجاب شارل على كل هذا بالإيجاب ، فى غير اكتراث ، تراوده الثقة فى أن يوفر البرلمان الاعتمادات .

وكان البرلمان ، بدوره ، سعيدا ، سيطرت عليه للوهلة الأولى ، نزعة الامتثال الموسوم بالابتهاج للملك العائد : «إننا وأبناءنا من بعدنا نضع أنفسنا تحت تصرف جلالتهكم ونلتزم بطاعتكم إلى الأبد» (٣) وقرر مجلس العموم « أن أعضاءه أنفسهم وشعب إنجلترا بأسره لن يبرأوا من الجريمة البشعة ، جريمة الثورة الأخيرة غير الطبيعية ، وإن ينجو من العقوبات المترتبة على هذه الجريمة إلا إذا حظوا بصفح صاحب الجلالة وعفوه وبناءا على ذلك قصد إليه البرلمان بكامل هيئته وجثوا أمام الملك الضاحك المبتهج ، لينالوا غفرانه» (٤) . وأحس مجلس العموم بمزيد من الإثم لأنه اجتمع دون دعوة من الملك ، أو دون موافقته ، ولذلك أطلق المجلس على نفسه بواضعا اسم « اجتماع أو مؤتمر » ، حتى تطيب نفس الملك ، فيعلن أنه برلمان شرعى (٥) . وبعد انتهاء هذه المراسم ، ألغى البرلمان كل التشريعات التى أصدرها البرلمان ولم يكن قد وافق عليها شارل الأول ، ولكنه أكد على الامتيازات التى كان ذلك المجلس قد منحها للبرلمان ، بما فى ذلك سيادة البرلمان فى كل ما يتعلق بالضرائب ، وثبت شارل الثانى هذه الامتيازات . وشارك البرلمان للملك الانتصار الحاسم الذى أحرزته السلطة المدنية على

السلطة العسكرية ، فدفعت الرواتب المتأخرة للجيش الذي حكم إنجلترا لمدة عقد من السنين ، وصرح الجنود البالغ عددهم أربعين ألفا ، وانصرفوا إلى بيوتهم .

وكان شارل قد وافق على الصفح عن كل أعدائه ، فيما عدا من يستثنىهم البرلمان من العفو العام . وقضى البرلمان عدة أسابيع في جدل حول من يسلمهم إلى يد الجلاد ، ومن يبقى على حياتهم . وفي ٢٧ يولية ١٦٦٠ ، شخص الملك إلى مجلس اللوردات ، مناشدا إياهم أن يصدروا قرارا سريعا حكما :

« أيها اللوردات ، إنكم إذا لم تشاركوني في القضاء على الخوف الذي استولى على قلوب الناس وأرقهم ، فإنكم بذلك تمولون بيني وبين الوفاء بالوعد الذي قطعته على نفسي ، وأنا مقتنع بأنه لولاه لما كنا ، لا أنا ولا أنتم هذا الآن . . . ولقد أدركت جيدا أن هناك أناسا لا يمكن أن يغفروا لأنفسهم ما اقترفوه ، ولا أن تغفر لهم نحن ذلك . . . وإني لأشكر لكم عدالتكم مع هؤلاء - القتلة المباشرين لوالدي - ، ولكني - وسأكون صادقا معكم - لم أفسر قط في استثناء أحد غيرهم من العفو العام . أن هذه الرحمة ، وهذا التسامح هما خير وسيلة تجعل الناس يستشعرون خالص الندم . وتجعلهم رعايا صالحين مخلصين ، كما تجعلهم أصدقاء وجيرانا صالحين لكم أنتم (٦) » .

ورغب البرلمان في التوسع في عملية الانتقام ، ولكن شارل أصر على ألا يستثنى من العفو إلا من واقموا الحكم بإعدام والده (٧) . وكان ثلث هؤلاء قد فارقوا الحياة ، كما لاذ الثلث الثاني بالهروب ، وقبض على ٢٨ وحوكموا ، وحكم على ١٥ بالسجن مدى الحياة ، وشنق ١٣ ثم مزقوا أربا (١٣ ، ١٧ أكتوبر ١٦٦٠) . ويقول شاهد العيان بينز : أن توماس هاريسون ، وهو أول من نفذ فيه الحكم ، « كان يبدو مرحلا ، كما يمكن أن يفعل أي رجل في مثل هذا الموقف » ، وتحدث بهجاعة من فوق المشقة

قائلاً أن دوره في الاقتراع على إعدام شارل الأول أملاه الله عليه (٨) .
ويضيف بيتر « وفي الحال مزق أرباباً ، وعرض رأسه وقلبه على الجمهور ،
فتمالت صيحات الفرح (٩) » ، وفي ٨ ديسمبر أصدر البرلمان أمراً بإخراج
جثث كرومول وأيرتون وجون برادشو من كنيسة وستمنستر ، وتعليقها
على أعراد المشانق . وتم ذلك بالفعل في ٣٠ يناير ١٦٦١ ، وكأنما كان هذا
لونا من الاحتفال بذكرى موت شارل الأول ، وعرضت رؤوسهم طيلة
يوم كامل في أعلى قاعة وستمنستر (حيث اجتمع البرلمان) ، ودفنت الأشلاء
في حفرة تحت مشنقة تبيرن ، كل أولئك جعل جون ايفلين يبتهج ويهمل
« لحكم الله » ، وهو حكم هائل تحار فيه الألباب (١٠) . وثمة ضحية
أخرى ، هاري فين ، الذي كان يوماً محافظاً لمستعمرة خليج ماساشوست ،
فقد شنق في ١٦٦٣ ، لأنه كان أداة فعالة في تدبير إعدام سترافورد .
وفي هذه القضية أغضت رحمة الملك جفونها ، فقد وعد من قبل بالإبقاء
على « سير هاري » الرجل الشعبي المحبوب ، ولكن جراءة السجين وشجاعته
أثناء المحاكمة أوغرت صدر الملك فتعجر قلبه .

وفي ٢٩ ديسمبر ١٦٦٠ حل « المؤتمر » (البرلمان) نفسه ، حتى يمهّد
الطريق لانتخاب أعضاء أكثر تمثيلاً للشعب . وفي غضون ذلك واجهت
الحكومة أول مظاهره عدائية تنازع في شعبيتها في العاصمة . أن هذه
الحكومة لم تفعل شيئاً لاسكات الشيع الدينية التي ظلت تأمل في نظام
جمهوري : فكان المشيخيون وأنصار تجديد العهد والمستقلون وأصحاب
مذهب الملكية الخامسة يخطبون ضد الملكية ، وتنبأوا بأن الانتقام الإلهي
سيحل بها سريعاً ، فيرسل الزلازل والدم والصفادع تنقض على بيوت موظفي
الملك . وفي ٦ يناير ١٦٦١ ، وبينما كان الملك في توريسوث يودع أخته
الحبيبة هنريتا وهي في طريقها إلى فرنسا ، نادى بالتمرد والعصيان أحسد
للمتغلين بصناعة دنان النبيل في مجمع « لقديس الملكية الخامسة » ، وعندئذ
سارع سامعوه للبتاجون أنفسهم ، وأسرعوا إلى الشوارع يرددون أن المسيح

وحدده هو الذي ينبغي أن يكون ملكا ، ويعملون القتل في كل من اعترض سبيلهم ، وعاشت المدينة في ظل الإرهاب طيلة نهاريين وليلتين ، وانتشر « القديسون » في كل مكان يقتلون الناس في حماسة بالغة ، حتى تمسكت آخر الأمر فرقة صغيرة من الحراس كانت الحكومة الوثيقة من نفسها تعتمد عليها في حفظ الأمن ، من تطويق للشاغبين وإقتيادهم إلى حبل المشنقة . وعاد شارل مسرعا إلى العاصمة ، ونظم فرقا جديدة من الشرطة للمحافظة على الأمن فيها .

وفي ٢٣ أبريل ، في يوم عيد سانت جورج راعي إنجلترا وحميها ، توج الملك السعيد في كنيسة وستمنستر ، في كل مظاهر العظمة والجلال ، ذات القيمة الكبرى لدى الملوك والتي يعتز بها الشعب ، وحرص رجال الكنيسة الأنجليكانية التي استعادت مكانتها ، وهم يمسخون الملك الداعر بالزيت المقدس ، على التوكيد على تعهد الملك والتزامه بالدفاع عن العقيدة وعن الكنيسة . وفي مايو اجتمع « برلمان الفرسان » الذي سمي كذلك لأن غالبية أعضائه كانوا ملاكيين أكثر من الملك ، متلففين على الانتقام من البيوريتانيين . ووجد شارل مشقة في أن يثنيهم عن الاسترسال في إعدام أعداء والده ، واسترد البرلمان ، من الوجهة النظرية ، كثيراً من الإمتيازات التي كان قد فقدتها شارل الأول : من ذلك أنه لا يصبح أى تشريع نافذ المفعول إلا بعد أن يوافق عليه المجلسان كلاهما ، والملك . وكانت للملك السلطة العليا على القوات الإنجليزية المسلحة في البر والبحر ، وأعاد البرلمان تنظيم مجلس اللوردات ، وأعاد إليه أساقفة الكنيسة الرسمية ، ولكنه رفض تجديد قاعة النجم أو محكمة اللجنة العليا وأبقى على حق التحقق في قانونية القبض على المسجونين بغير محاكمة ، وأعيدت إلى الفرسان أملاكهم التي صادرها كرومول من قبل ، مع تعويض ضئيل لمن اشتروها ، واسترجعت الأرستقراطية القديمة ثراءها ونفوذها . وانقلبت الأسرات التي جردت من أملاكها على ملوك آل ستيوارت ، وانضمت فيما بعد إلى صفار النبلاء وأبناء

الطبقات الوسطى ليشكوا « الأحرار » ضد « المحافظين » .. إن شارل في النصف الأول من حكمه بلغ من الضعف والوهن حدا لم يستطع معه أن يفرض أى قدر من السلطة المطلقة ، من ذلك أنه أجاز « لبرلمان الفرسان » أن يستمر لمدة سبعة عشر عاما ، على الرغم من حقه الشرعى في حله . أنه كان من الناحية العملية ملكا دستوريا ، فإن النتيجة الجوهرية لثورة ١٦٤٢ — ١٦٤٩ ، وانتقال السلطة العليا من يد الملك إلى البرلمان ، ثم من مجلس اللوردات إلى مجلس العموم ، كل أولئك عاش بعد عودة الملكية ، على الرغم من قيام الملكية المطلقة من الوجهة النظرية .

وكان من حسن حظ البرلمان أن شارل كان عزوفا عن الحكم ، وكأنه بعد أربعة عشر عاما من التشرد والشقاء ، قد منحته العناية الإلهية الحق في السعادة والهناء ، وأدخل جنات عدن التي وعد بها المسلمون . وكان الملك أحيانا ينهمك بمجد وكد في شئون الدولة ، وقد بوانغ في إهماله لها (١١) . وقبيل نهاية حكمه دهشت الأمة إذ رأته يأخذ كل شىء على عاتقه ، وينصرف بكلية إلى إدارة شئون البلاد في كفاية وعزيمة صادقة . ولكنه في أعوام العسل كان قد فوض إلى إدوارد هايد ، الذى عينه أرل كلارندون في ١٦٦١ ، إدارة دفة الحكم ، بل تقرير السياسة .

وتسربت شخصية الملك ، بشكل مؤثر إلى عادات العصر وأخلاقه وسياسته . وغلب الطابع الفرنسى على أصله وتعليمه . فأمه فرنسية ، وأبوه ابن حفيدة مارى جيز أو اللورين ، أضيف إلى هذا جدا اسكتلنديا ودنمر كيا وإيطاليا ، ومن ذلك نجد خليطا ضافيا ولكنه غير راسخ . أنه عاش من سن السادسة عشرة إلى سن الثلاثين في القارة ، حيث تعلم الأساليب الفرنسية . ثم رآها في أبهى صورها في أخته هنريتا آن . وكان شعره الأسود وجلده الأسمر يندكران بمجده الإيطالية مارى دى مديتشى ، وكان مزاجه لاتينيا مثل والدته جدته لأمه مارى ملكة اسكتلنده ، وربما ورث عن جده الغسقونى هنرى نافر ، شفثيه الشهواتيتين وعينيه البرافتين وأفقه المتطفل ،

بل وربما ميله إلى النساء كذلك .

أما فيما يتعلق بالناحية الجنسية ، فقد كان شارل الثانى أخزى قادة زمائه ، وأسوأهم ، فإن تصرفاته كانت أسوأ مثال تحتذيه حاشيته والمجتمع الإنجليزى والمسرح بعد عودة الملكية ، فانفلت الزمام للفجور والخلاعة فى هذه كلها ، وأنا لنعرف أسماء ثلاث عشرة من خليلاته ، أنه وهو فى الثامنة عشرة ، حين جاء من هولنده إلى إنجلترا ليقاتل من أجل والده ، وجد فسحة من الوقت لينجب من « السمراء الجميلة الجريئة » لوسى وواتر ، ولدا كبر وترعرع تحت اسم جيمس سكوت ، اعترف شارل بينوته فيما بعد ، وعينه دوق موغوث . ولحق لوسى بشارل فى القارة ، وخدمته باخلاص ، والواضح أنه كان معها مساعدون آخرون لا نعرف الآن أسماءهم . وفور أن استقر به المقام فى القصر الملكى ، دعا بربارا بالمر لتسرى عنه همومه وتخفف من متاعبه . وكانت بربارا هذه — مثل بربارا فلييرز — قد أقامت لندن وأقعدتها بجمالها . وفى سن الثامنة عشرة (١٦٥٩) تزوجت من روجر بالمر الذى أصبح أرل كاسلين . وفى سن التاسعة عشرة وجدت طريقها إلى مخدع الملك ، ومن ثم سيطرت على روحه الوادعة ، إلى حد أنه خصص لها جناحا فى قصر هويت هول ، وأنفق عليها أموالا طائلة وأجاز لها بيع المناصب السياسية ، والتحكم فى مصائر الوزراء . وولدت له ثلاثة أبناء وابتين أعترف بينوتهم جميعاً ، وساورته الشكوك على أية حال ، لأنها وسط حبها الشديد للملك ، لم تتورع عن الاتصال برجال آخرين (١٢) ، وازدادت تفواها بازدياد علاقاتها غير المشروعة . وفى ١٦٦٣ — أعلنت تحويلها إلى الكاثوليكية . والنفس أقاربها من الملك أن يثنىها عن عزمها ، فأجابهم بأنه لم يتدخل قط فى « نفوس » السيدات (١٣) .

وفى ١٦٦١ فكر شارل فى أنه قد حان الوقت للزواج ، ومن بين المرشحات اختار كاترين براجنزا ابنة جون الرابع ملك البرتغال التى قدمت إليه مع صداق هياتة العناية الإلهية لبنى بحاجات ملك مبذر ودولة تاجرة :

..... ر. ج. ن. ه. ق. د. أ. ، وميناء طنجة ، وجزيرة (والمدينة الصغيرة فيما بعد)
 بمباي ، وحرية الاتجار مع كل ممتلكات البرتغال في آسيا وأمريكا
 وتمهدت إنجلترا في مقابل ذلك ، بمساعدة البرتغال في المحافظة على استقلالها
 ولما وصلت الأميرة العروس الغالية إلى بورتسموث كان شارل في استقبالها
 للترحيب بها ، وتزوجا في ٢١ مايو وفقاً للطقوس الكاثوليكية أولاً ثم
 الأنجليكانية ، وكتب شارل إلى والدها يقول أنه « أسعد إنسان في العالم »
 وأحسن معاملة حاشيتها من السيدات ذوات « الثنورات » الواسعة للمطوقة ،
 ومن الرهبان الوقورين ، ووقعت الأميرة في غرامه لأول نظرة ، وسارت
 الأمور سيراً حسناً لعدة أسابيع ، ولكن في يولييه وضعت كاسلمين ولداً
 شهد شارل تعميده على أنه « العراب » (أبوه في العباد) — وتلك مناسبة
 أخرى يستخدم فيها اسم الله عبثاً ولغوياً . ومذهبت باربارا زوجها ،
 أصبحت الآن تعتمد كل الاعتماد على الملك ، وتوسلت إليه ألا يتخلى عنها ،
 فاستسلم لرجائها ، وسرطان ما استأنف علاقته بها ، وفي إخلاص موصوم
 بأشد الخسة والعار ، ونسى الملك قواعد السلوك القوية للألوفة ، فقدم باربارا
 علانية إلى زوجته . فنزفت أنف كاترين دما وانقابتها إغماءة ، من فرط
 الشعور بالمهانة والإذلال ، وحملت إلى خارج القاعة وبناء على إلحاح من
 الملك ، أوضح لها كلارندون أن عملية الزنى امتياز ملكي مدترف به الملوك
 في أعرق أسرات أوروبا . وبمرور الوقت كبرت المأساة نفسها مع أساليب
 زوجها الشرقية ، ولكنها كانت تزوره ذات يوم ، فونعت عينها على
 « شيشب » صغير بجوار سريره ، فانسحبت في رفق وتلطف « حتى لا تصاب »
 الحرقاء الجميلة الصغيرة « المختفية وراء الستار بالبرد » (١٤) ، وكانت هذه المرة
 الممثلة — هول دافيز . وهذا في الوقت الذي حاولت فيه كاترين كثيراً أن
 تنجب لشارل طفلاً ، ولكنها — مثل كاترين أراجون مع ملك سابق —
 أجهضت عدة مرات . وفي ١٦٧٠ أقر البرلمان قانوناً بالتوسع في أحكام
 الطلاق . وأشار بعض رجال البلاط المتلهفين على وريث بروتستانتى ، على

شارل بأن يطلق كاترين ، ولكنه أبى ، حيث كان قد عرف آنذاك كيف يحبها حباً عميقاً على طريقته الخاصة .

ويعصف بيبز البلاط في ٢٧ يولييه ١٦٦٧ فيقول :

« يقص على فن Fenn أن الملك وسيدتى كاسلمين قد حدثت بينهما جفوة شديدة ، وأنها ستفارقه ، ولكن بين جنبيها جنين ، إن الملك لا بد معترف ببنوته ، وإلا فانهما ستحمل الوليد إلى قصر هويت هول ، وتهشم رأسه أمام عيني الملك . ثم يضيف أن الملك والحاشية لم يكونوا في أى زمان في العالم بأسره أسوأ منهم الآن ، بسبب اللهو والبطالة والفجور والسكر والعريضة ، وغيرها من أخط الذائل البغيضة ، مما لم ير العالم مثيلاً لها ، وهذا أمر يجر الهلاك والدمار على الجميع ، لا محالة (١٥) » .

وضاق شارل ذرعاً بغضببات كاسلمين ، وفي إحدى زياراته الأخيرة لها ، فاجأ عندها جون تشرشل - دوق مالبروفيا بعد - ، الذى قفز من النافذة حتى يتجنب لقاء الملك (١٦) ، كما يروى الأسقف بيرت . على أن شارل خلع على كاسلمين لقب دوقة كليفلند ، ورتب لها مخصصات من الأموال العامة مدى الحياة .

وقد يشوقنا أن نقص كيف أن امرأة واحدة بعينها خيبت علانية أهل الملك المغرور المختال وصدته : تلك هى فرانسيس ستيوارت التى قيل إنها ربما كانت أجمل وجه وقعت عليه العين (١٧) ويقول أنطونى هاملتون « ينذر أن يتيسر العثور على امرأة أقل ذكاء أو أكثر جمالا (١٨) » . وظل الملك يلحف فى الوصول إليها حتى بعد زواجها من دوق وتشموند ويعصف بيبز الملك وهو يجدف وحسده فى الليل إلى قصر سومرست ، « وهناك حيث وجد باب الحديقة موصدا تساق الجدران ليزور هذه المرأة وتلك فضيحة مخزية فظيعة (١٩) » .

وفى ١٦٦٨ رأى شارل « نل جوين » وهى تمثل فى « مسرح درورى لين » ، وهى التى نشأت فى فقر مدقع ، وكانت تسلى رواد الحانة بأغنياتها ،

وتبيع البرتقال في المسرح ، وتقوم بالأدوار الصغرى أو الأدوار الرئيسية في الروايات الهزلية ، واحتفظت طوال عملها ، تلقائياً بروح طيبة واردة طيبة ، مما سحر لب الملك الذي لا يبالي بشيء ، والذي سئم المذات ، ولم تقم الممثلة أية عقبات في سبيل أن تكون عشيقة لجلالته . واستنزفت مبالغ طائلة من كيسه الذي يشكو خلو الوفاض ، واسكنها أنفقت القدر الأكبر منها في أعمال البر والإحسان . ولكن سرطان ما كان عليها أن تنافس امرأة مغوية خطيرة موفدة من فرنسا (١٦٧١) لتثبت شارل على العقيدة الكاثوليكية والتقاليد الفرنسية ؛ تلك هي لويز كيرووال التي قلدت نل مظاهرها الارستقراطية تقليداً ساخراً شيطانياً . وكل العالم يعرف ، كيف أنه ، حيث حسب سكان لندن خطأ أن نل هي منافستها الكاثوليكية ، فسخروا منها ، أخرجت رأسها الصغير من نافذة العربة وصاحت بهم « صه أيها الشعب الطيب ، أنا البغي البروتستانتية (٢٠) » واستمرت تمحلى بعطف شارل إلى آخر حياته ، ولم تبرح مخيلته حتى في ساعة احتضاره . أما كيرووال التي عينت على الفور دوقه بورتسموث ، فقد أثارت حفيظة لندن ، حيث نظروا إليها هناك على أنها صميلة فرنسية باهظة التكليف تبرز من الملك في كل عام ٤٠ ألف جنيه ، لتقتني المجوهرات وتعيش في ترف باذخ أهاج معدة جون ايفلين (٢١) وتقاص ظل سلطاتها في ١٦٧٦ حين اكتشف شارل هورتنس مانسني ابنة شقيق السكاردينال مازاران المرحمة المنعم بالحيوية والنشاط .

وكان لشارل سقطات أخرى : انه في أيام شبابه التمس فقد كل الثقة في البشر ، وحكم على الرجال والنساء جميعاً بأنهم كما وصفهم « لاروشوكول » ومن ثم فإنه قلما استطاع أن يكون مخلصاً لأحد — اللهم إلا أخته — وضيع نفسه في أهوائه وغرامياته ، ولم تكن نعمة ود خالص . تيم ياتى ضياء حقيقياً على البريق الأجوف في حياته . وباع بلاده بنفس اليسر الذي اشترى به النساء . وضرب لحاشيته أكبر المثل في المقامرة بمبالغ طائلة . وعلى الرغم

من الجمال الطائش في سلوكه وعاداته ، فانه أبدى في بعض الأحيان افتقاره إلى الرقة والكياسة اللتين كان من العسير التماسهما عند والده . من ذلك ، على سبيل المثال ، أنه لفت نظر جرامونت إلى أن خدمه يؤدون عملهم وهم راكعون (٢٢) . ولم يكن كثير الادمان على الخمر في أغلب الأحيان ، ولكنه أدمن بشكل مخيف لعدة أيام عقب صدور قانون ضد تعاطي المسكرات (٢٣) . وكان عادة يتقبل النقد بصدر رحب ، ولكن حين جاوز سيرجون كوفنتري حده ، وتساءل في البرلمان علانية « هل يجسد الملك متعته بين الرجال أو بين النساء ؟ » . أمر شارل رجال حرسه أن « يجعلوا منه عبرة » فكمّنوا له وهاجموه وهشموا أنفه (٢٤) .

على أن فئة قليلة من الناس كانوا لا يملكون إلا أن يحبوه ، ومنذ شباب هنري الثامن لم يوجد في إنجلترا ملك في مثل شعبية شارل بين حاشيته ، وكانت حيويته الجسمية تبعث على الرضا والسرور ، ولم يكن به شح أو بخل ، بل كان يرعى الحقوق ، عطوفاً كريماً . فانه ، بعد أن ينقد رجال حاشيته رواتبهم ، كان يجد الوسيلة للبر والإحسان والصدقات ، وجعل من المتنزه الخاص به مرتعاً لمختلف الحيوانات ، ولم يلحقها أي أذى . وكانت كلبته المدللة تنام ، ويفترسها رفيقها وتلد وترضع صغارها في حجرة نوم الملك (٢٥) . وكان شارل بعيداً عن التكلف ، أنيساً ، حلوا المعاشرة ، يسهل الوصول إليه أو التحدث معه ، سرطان ما يهدى من روع محدثيه ويطمئن بالهم . وذكر كل الذين تحدثوا عن شارل — فيما عدا كوفنتري ، أنه « ملك ودود طلق المحيا (٢٦) » ، وعده جرامونت « من ألطف الرجال وأرقهم وأكثرهم وداعة (٢٧) » . وقال عنه أوبري « إنه نموذج فذ في الجماله (٢٨) » وكان شارل قد صقل عاداته وسلوكه في فرنسا ، وكان ، مثل لويس الرابع عشر يرفع قبعته لأية سيدة ، حتى ولو كانت من أخط الطبقات . وكان يفضل شعبه بكثير في التسامح مع أية آراء أو مذاهب دينية معارضة إلى حد أنه شرب نخب خصومه السياسيين ، وسر كثيراً بالهجاء حتى

ولو كان موجهها إلى شخصه . وكان حسن التقدير فيه ، مبعث ابتهاج لدى حاشيته . ووصفه بـ « بيز » بأنه كان يقود الحلقة في رقصة ريفية قديمة — cuckoldo All Awry . وما كان يقطع عليه مراحه ولهوه الصاخب — لفترات قصار ، إلا أنباء الطاعون أو الحريق أو الانفلاس أو الحرب .

ولم يكن الملك شارل الثاني عميق التفكير ، ولكنه لم يتعاقب بتوافه الأمور إلى حد كبير ، وتخلص يوما من رجل زعم أنه يتنبأ بالطالع ، بأن أخذه إلى سباق الخيل ، ولحظ أنه يخسر ثلاثة أشواط متوالية . وأولع ولما شديدا بالعلوم ، وأجرى التجارب ، وأصدر براءة تشكيل « الجمعية للملكية » وأغدق عليها الهبات والمنح ، وشهد كثيرا من اجتماعاتها . ولم يهتم كثيرا بالأدب ، ولكنه أولى الفنون عناية كبيرة ، واعتز براقائيل وتيشيان وهولبين وجمع أمثالهم . وتجلى في حديثه كثير من الحيوية والتنوع اللذين تميزت بهما الجماعات المثقفة في فرنسا . فتحدث جيدا عن الشعر مع دريدن ، وعن الموسيقى مع بورسل (الملاحن) ، وعن هندسة العمارة مع رن . وكان حاميا ونصيرا لحسن التمييز في كل هذه المجالات ، ولا بد أنه كان ثمة قدر كبير من مناقب ومآثر حميدة محببة تحلى بها رجل قالت عنه أخته وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة « إني أحببته أكثر من حبي للحياة نفسها . وايس ثمة شيء أسف عليه في موتى ، إلا إني أفارقه » (٢٩) .

٢ - مر جل الدين

هل تمسك الملك بأية عقيدة دينية ؟ أن حياته من هذه الناحية توحى بنفس النزعة التي سادت كثيرا من الفرنسيين المعاصرين الذين عاشوا ما حدين وماتوا كاثوليكيين . ويبدو أن هذا يسر الفوز بمتاع الدنيا والآخرة معا ، كما أنه كان أفضل كثيرا من « رهان » بسكال . ويقول بيرنت « أن إحساسه الديني كان ضعيفا ، إلى درجة أنه لم يسكن من التظاهر بالنفاق ولكن بسلوكه الموصوم بالتهاون في الصلوات وفي الأسرار المقدسة ، كان لاي

إنسان يراه أن يدرك كيف وفر في ذهن الملك أنه لا علاقة له بهذه الأمور (٣٠) . وقال أحد الوعاظ مرة لنبيل غلبه الناس وهو جالس بين جماعة المصلين « سيدى ، سيدى : إنك تغط في نومك بصوت عال ، وقد توقظ الملك (٣١) » : وقال عنه سانت إيفرموند الذى كان يعرفه حق المعرفة أنه كان « ربوبيا (٣٢) » - وهو الذى يؤمن بوجود كائن أسمى غير مجسم تقريبا ، ويفسر بقية المذاهب الدينية بأنها شعر شعبي . واتفق أول بكنجهام ومركز هاليفا كسى مع سانت إيفرموند في هذا الرأى (٣٣) ويروى بيرت « قال لى الملك ذات مرة ، أنه ليس ملجدا ، ولكنه لا يظن أن الله يعذب الإنسان لأخذه بشيء من أسباب المتعة واللذة عرضا أو خطأ (٣٤) » . ورحب الملك بصداقة هوبز الذى يدين بالمادية ، وتولى حمايته من رجال اللاهوت الذين طالبوا بتقديمه للقضاء بتهمة الهرطقة . ويرى فولتير أن « لامبالاة الملك المطلقة » بكل الصراعات الدينية التى تفرق بين الناس عادة ، أسهمت بدرجة غير يسيرة ، في حكمه السلى (٣٥) .

وبحتمل أن شارل كان متشككا ، مع شيء من الإنعطاف نحو الكثلركة ، بمعنى أنه كان يشك في اللاهوتيات ، ويؤثر الكاثوليكية ، لطقوسها النابضة بالحياة ، وتعلقها بالفنون ، وتساهلها مع الجسد ، وتأبيدها للملكية . وربما غاب عن ذاكرته أن العصبة الكاثوليكية وبعض الآباء اليسوعيين قد أقروا من قبل قتل الملك . ولكنه تذكر أن الكاثوليك الإنجليز دافعوا عن أبيه ، وأن تلك النبلاء الذين ماتوا في سبيل النضال عن شارل الأول كانوا من الكاثوليك (٣٦) ، وأن الكاثوليك الأيرلنديين بقوا على ولائهم لأسرة ستيوارت ، وأن حكومة كاثوليكية كانت تمد له يد العون في منقاة الطويل الأمد - إن روح التعاطف التى تملكته بصفة عامة ، جنحت به إلى الرغبة في التخفيف بعض الشيء من القوانين التى صدرت في إنجلترا ضد الكاثوليك ، وهى في تقدير « هلام » قوانين « صارمة غاية الصرامة » بل هى فى بعض الأحيان ، دموية أو متعطشه للدم (٣٧) . ولم

يفدرك الملك البروتستانت الإنجليز فيما علق بأذهانهم من ذكرى « مؤامرة البارود » ١٦٠٥ ، أو الخوف من محاكم التفتيش أو البابا في رومه . ولم يغضب لالتزام أخيه العلني بالمذهب الكاثوليكي — والمفروض أنه وريث العرش . وقد يجوز لنا أن نحكم ، من تحوله إلى الكثلركة وهو على فراش الموت ، أنه كان من الجائز أن يعترف هو أيضا بها ، لو أن الاعتراف بها كان أمرا عبقليا من الوجهة السياسية .

وهكذا فإن شارل ، وهو السياسي اللطيف الودود ، قبل السكينة الأنجليكانية ودعمها إنها قد دانت بالولاء لوالده ، وفنيت في الدفاع عنه ، وطأت ما طأت في أيام كرومول ، وكأخت كفاحا شديدا في سبيل عودة الملكية . واعتبر شارل أنه من القضايا المسلم بها أن تكون هناك عقيدة دينية تحتل بموافقة الدولة ومعونتها ، على أنها وسيلة للنشر التعاليم وإقرار النظام الاجتماعي . انه ، أساسا ، كانت تزعجه البيوريتانية ، فوق أنها أتتحت لها من قبل فرصة الحكم ، فكانت صارمة بغيضة إلى حد بالغ . ولم ينس قط أن البرسبتيريانز سجنوا أباه وأن البيوريتانز اطاخوا برأسه ، وأنه هو نفسه أرغم على قبول مذهبهم والاعتذار عن أخطاء آبائه . ووقع القانون الذي أصدره « البرلمان المؤتمر » ، بإعادة السكينة الأنجليكانيين إلى أبرشياتهم ، التي كانت « الجمهورية » قد جردتهم منها ، وكان وجه العدالة والإنصاف واضح في هذا القانون . وعلى الرغم من ذلك ، كان قد وعد « بالحرية لذوى الضمائر الواهنة » ، وألا يضار أى إنسان بسبب الخلافات الدينية مادامت مسالمة . واقترح شارل في أكتوبر ١٦٦٠ تسامحا شاملا مع كل الفرق المسيحية ، بل كذلك تخفيف القوانين المعادية للكاثوليكية . ولكن البرسبتيريانز والبيوريتانز الذين خشوا مغبة هذا التراخي ، انضدوا إلى الأنجليكانيين في رفض هذا المشروع . ورغبة في المصالحة بين البرسبتيريانز والأنجليكانيين عرض الملك طقوسا تكون حلا وسطا بين الطائفتين ونظاما أسقفيا محدودا يتولى بمقتضاه بعض المشايخ المنتخبين

تقديم العون والمشورة للأساقفة . ولكن البرلمان عارض هذه الفكرة . وأبلغ « مؤتمر سافوي » المكون من اثني عشر أسقفا ، ومثلهم من المهايخ — أبلغ الملك « أنهم لم يستطيعوا الوصول إلى اتفاق (٣٨) » .

وتلك فرصة ضيعة ، لأن البرلمان الجديد كان أنجليكانيا بأغلبية ساحقة . فنهكاً الجراح القديمة بإعادة النظام الأسقفي في اسكتلنده وأيرلنده ، وأعاد المحاكم الكنسية للمعاقبة على « التجديف » ، والتخلف عن دفع العشور للكنيسة الأنجليكانية ، وجعل « كتاب الصلوات العامة الانجليكانية » إلزاميا على جميع الإنجليز ، وبمقتضى « قانون التوحيد » (٢٠ نوفمبر ١٦٦١) حرمت المناصب العامة على كل الأشخاص الذين لم يتلقوا الأسرار المقدسة وفقا للطقوس الأنجليكانية قبل الانتخابات ، وبمقتضى « مرسوم التنسيق » (١٩ مايو ١٦٦٢) طلب إلى كل رجال الدين والمعلمين أن يقسموا اليمين على ألا يقاوموا الملك ، وأن يعلنوا موافقتهم التامة على كتاب الصلوات العامة . وكان على رجال الدين الذين رفضوا هذه الشروط أن يتخلوا عن مراكزهم في موعد فائته ٢٤ أغسطس ورفضها نحو ١٢٠٠ منهم فطردوا . وهؤلاء بالإضافة إلى ١٨٠٠ آخرين أخرجوا عند عودة الأنجليكانيين ، انضموا جميعا ، مع مجموعة كبيرة من الجامع ، إلى العدد المتزايد من « الشيع » أو « المنشقين » ، الذين أرغموا أولى الأمر في النهاية على إصدار قانون التسامح ١٦٨٩ .

وحاول شارل أن يعدل من « مرسوم التنسيق » فطلب من البرلمان أن يستثنى من العزل أولئك القساوسة الذين لم يعترضوا إلا على ارتداء اللباس الكهنوتي الأبيض ، أو استخدام الصليب في التعميد ، فوافق اللوردات ورفض النواب . وسعى الملك للتخفيف من أثر الطمة ، بتأجيل تنفيذ للرسوم لمدة ثلاثة أشهر ، ولكن أحبطت هذه للساعي كذلك . فأصدر في ٢٦ ديسمبر ١٦٦٢ بيانا أعلن فيه عن عزمه على أن يستثنى من العقوبات التي نص عليها القانون الأشخاص للمسلمين الذين أبت عليهم ضمايرهم

أداء القسم المطلوب ، ولكن البرلمان ، إرتاب في هذا الاجراء ورفضه ، باعتبار أنه ينطوى ضمنا على سلطة الملك في الاعفاء من إطاعة القوانين . وعبر الملك عن مشاعره بالإفراج عن الكويكرز المعتقلين (٢٢ أغسطس ١٦٦٢) وبالتأكيد على التسامح الديني في المواثيق التي منحها لجزيرة رود و كارولينا ، وفي التعليمات التي وجهها إلى حاكمي جايبكا وفرجينيا .

وأحس البرلمان أنه ليس ثمة متسع لهذا التسامح في إنجلترا . ولكي يمنع اجتماعات الكويكرز السرية للعبادة ، قال إنها تضم أكثر من خمسة أشخاص بالإضافة إلى أفراد البيت ، وحكم ١٦٦٢ على كل شخص يحضرها بدفع غرامة قدرها خمسة جنيهات ، أو بالحبس لمدة ثلاثة أشهر ، للمخالفة الأولى ، ومضاعفة العقوبة (١٠ جنيهات غرامة أو ستة أشهر في السجن) للثانية ، والنفي إلى مستعمرات الجرمين ، لثالثة ، أما المخالفون الذين يعجزون عن دفع نفقات إنتقالهم إلى المستعمرات فكان عليهم أن يخدموا لمدة خمسة سنوات ، مما لا يعقود عمل خاصة . أما المدانون أو المخالفون المرحلون الذين يهربون أو يعودون إلى إنجلترا قبل انقضاء ، المدة المحكوم بها ، فتكون عقوبتهم الإعدام ، وفي ١٦٦٤ امتدت هذه الإجراءات إلى البرسبتيريانز والمستقلين ، وحظر « قانون الأميال الخمسة » (١٦٦٥) على القساوسة الذين امتنعوا على حلف اليمين ، أن يقيموا في نطاق خمسة أميال في أية مدينة ذات مجلس بلدي ، أو يقوموا بالتدريس ، في أية مدرسة خاصة أو عامة . وأطلق على هذه القوانين « تشريع كلارندون » لأن الذي فرضها هو كبير وزراء الملك ضد إرادة الملك أو رغباته الصريحة ، وقبل شارل هذه التشريعات الصارمة لأنه كان يناشد البرلمان إقرار الاعتمادات التي طلبها . ولكنه لم يغفر قط لكلارندون ، كما فقد ثقته في الأساقفة وقل إحترامه لهم ، لأنهم ما لبثوا أن اعيدوا حتى بدأوا ينتقدون أشد الإنتقام ، ويقبضون أيديهم عن البر والإحسان . وانتهى شارل إلى « أن المشيخية ليست مذهبا يليق بالرجل الماجد المذهب ، وأن الأنجليكانية ليست

مذهباً يليق بالرجل المسيحى (٢٩) .

وإذا أدركت الكنيسة الأنجليكانية اعتمادها على الملكية ، فإنها أكدت من جديد ، ويشكل أكثر إيجابية عن ذى قبل ، « حق الملك الإلهى » ، والإثم العظيم الذى يؤدى إلى الهلاك ، فى مناهضة حكومة ملكية قائمة . وفى ١٦٨٠ نشر كتاب سير روبرت فلر « سلطة الملوك الطبيعيه المعترف بها » بعد موت المؤلف بسبعه وعشرين عاماً ، وأصبح الدافع القياسى عن النظرية . وفى كتاب أكسفورد « القضاء والقانون » (١٦٨٣) أعلن زعماء الكنيسة الأنجليكانية أنه « زيف وتحريض على الفتنة » بل هو هرطقة وتجديف « ومن ثم جريعه عقوبتها الإعدام » « أن يتمسك امرؤ » بأن السلطه مستمدة من الشعب ، وأن الحكام الشرعيين يفقدون الحق فى الحكم إذا أصبحوا طغاة ، وأن الملك ليس له إلاحق مناظر لحق السلطتين الآخرين : مجلس اللوردات ومجلس العموم . وأضاف الكتاب « أن الطاعة العمياء هى سمه كنيسه إنجلترا وخصيصةها (٢٠) » . وتلك كانت نظريه تثير القلق والمتاعب ، عندما حاول جيمس الثانى ، بعد عامين من هذا التاريخ ، أن يحول إنجلترا إلى الكاثوليكية .

ان الكنيسة الأنجليكانية ، التى استعادت مكانتها ، على الرغم من تعصبها ، تجلت فيها صفات تدعو إلى الإعجاب ، فقد أباحت آفاقاً رحبه للتفكير اللاهوتى بين أعضائها ، ابتداء من « اللوديين » (الذين عرفوا فيما بعد بأنهم الذين يؤكدون على الطقوس التقليديه High Churchmen) الذين اقتربوا من المذهب والطقوس الكاثوليكية ، إلى « المتحررين المتسامحين » (الذين عرفوا فيما بعد باسم ذوى الأفق الواسع — Broad Churchmen) وهم الذين جنحوا إلى لاهوت متحرر ، وأكّدوا على الجانب الأخلاقى ، لاعلى الجانب المذهبى أو العقائدى ، فى المسيحية ، ووقفوا فى وجه الاضطهاد ، وسعوا إلى المصالحة وتسوية الخلاف بين البيوريتانيين والمشيخيين والأنجليكانيين . وساعد شارل هولاء المتحررين

المقاسمين « وقدر فيهم الإيجاز النسبي في عقائهم (٤١) . وكان أعظم هؤلاء المتحررين ، جون تلو تسون ، الذي عينه شارل قسيس القصر ، ثم عينه وليم الثالث رئيس أساقفه كنتربري (١٦٩١) . وكان رجلا « راجح العقل حلي الشائل (٤٢) » ، ناهض « البايويه » والإلحاد والاضطهاد بنفس القدر من الحماس والغيرة ، وتجاهر فبني المسيحية على العقل . وكان يقول « لسنا في حاجة إلى دليل على خطأ إنسان أقوى من أن نسميه يتهم العقل ويحط من قيمته ، ومن ثم يرى أن العقل ضده (٤٣) » ومال صغار رجال الدين الأنجليكانيين « الكهنه » إلى أن يكون الخدم الروحانيين للوردات المهليين ، بل حتى لبعض مالكي الأرض ، حتى قاربوا أن ينحدروا إلى وضع العام (٤٤) . ولكن في المدن والمناصب الكنسية ذوات الرواتب الأكبر ، اشتهر كثير من رجال الدين الأنجليكانيين بسعة الإطلاع والمقدرة الأدبية حتى أنهم أخرجوا فيما بعد بعضا من أفضل كتب التاريخ الرسمي في أوروبا . وبصفه عامه سادت روح من الاعتدال المذهبي في الكنيسة الأنجليكانية ، أكثر منها بين المنشقين الذين زاد الاضطهاد من تعصبهم لمذهبهم وتزمتهم .

ولم يعان البيوريتانيون آنذاك من الاضطهاد السياسي وحده ، بل إنهم كذلك كانوا موضع سخرية وازدراء من أولئك الذين أحسوا بالضيق والإنزعاج أيام الحكم البيوريتاني بسبب أخلاقياتهم الهينه اللينه الخاليه من التزمت . ولكن البيوريتانيين احتملوا في جلد وشجاعه دوران عجة الزمن . وهاجر بعضهم إلى أمريكا ، وأدى كثير منهم القسم المطلوب . وكان ريتشارد باكستر ألمع شخصية بينهم في ذاك العصر ، وكان رجلا ذا اتجاه معقول ، مستعدا لقبول أية تسوية لا تخل بلاهوته المتقدم . فإياه على الرغم من إخلاصه الشديد للمذهب البيوريتاني حتى النهاية ، استنكر إعدام شارل

(*) هناك وصف بالغ فيه لهذا الموضوع في كتاب ماكولي « تاريخ إنجلترا »

(١ : ٢٥٢ - ٢٥٥) أنظر لكلي « تاريخ إنجلترا في القرن الثامن عشر »

(٢ : ٧٥ - ٧٩) .

الأول ، وحكم كرومول حكما استبداديا مطلقا ، وحيد عودة الملكية . ومنع بعد ١٦٦٢ من الوعظ ، واعتقل مرارا وتكرارا لمخالفته أمر الحظر . وكان من أكثر البيوريتانيين استنارة ، ولكنه مع ذلك استحسن أحراق السحرة في سالم ومساخوست ، وفكر في ربه على أساس جعل « مولوخ » (اله سامي كان يعبد عن طريق تضحية الأطفال على مذبحه) بجانيه ودودا لطيفا من هم الذين كتب لهم الخلاص ؟ ويجب باكثر : « إنهم فئة قليلة من البشر الضائع ، قدر لهم الله منذ الأزل هذه الراحة » (٤٤) . وأكد في عظاته على عذاب الجحيم التي « أوجدها الرب بنفسه » . . إن تعذيب الملعونين المحكوم عليهم بالهلاك ينبغي أن يكون شديدا ، لأنه مظهر الانتقام الإلهي . . إن العقاب رهيب ، ولكن الانتقام أمر لا سبيل إلى التخفيف منه (٤٥) ، وحرم باكثر الاتصال الجنسي إلا بقصد الإنجاب مع حليلة شرعية . ومذ رأى أن هذا التقييد يتطلب ضبط النفس على طريقه الرواقين ، فإنه أوصى بالحمام البارد والتغذي على الخضروات ، لتخفيف من الشهوة الجنسية (٤٦) وقد نفتقر له لاهوته إذا رأيناه ، وهو في السبعين من العمر (١٦٨٥) واقفا في قصص الإتهام أمام القاضي الوحشي الغليظ القلب « جفري » ، لأنه تفوه ببضع كلمات ضد مزاعم الأنجليكانيين ولم تتح له أية فرصة للدفاع عن نفسه أو تفسير آرائه ، وحكم عليه بدفع غرامة قدرها ٥٠٠ جنيه ، أو السجن حتى يدفع المبلغ كاملا (٤٧) . وأفرج عنه بعد ١٨ شهرا ، ولكنه لم يسترد عافيته بعد ذلك قط .

وظل الكويكرز يعانون الاعتقال ومصادرة الممتلكات لرفضهم تأديبه القسم أولتخلفهم عن الصلوات الأنجليكانية ، أو عقد الاجتماعات غير المشروعة . وفي ١٦٦٢ كان في السجنون الإنجليزيه أكثر من ٤٢٠٠ منهم : « وحشر بعضهم في السجن حشراً لا يدع مجالا للجلوس وحرموا من فرش القش ليرقدوا عليها ، وكثيرا ما منع عنهم الطعام » (٤٨) . ولسكن جلدتهم ومثابرتهم وتشبههم أكسبهم المعركة آخر الأمر ، وخفت حدة الاضطهاد عمليا ، إن

لم يكن قانونا . وفي ١٦٧٢ أطلق شارل سراح ١٢٠٠ رجل منهم (٤٩) ،
وفي ١٦٨٢ منح أخوه جيمس دوق يورك براءة مقاطعه جرمي الشرقية
في أمريكا ، إلى روبرت باركلي وهو كويكرى اسكتلندي ، و « الصاخب »
الكويكرى الفنى « وليم بن » ، وبعض زملائهم الآخرين .

وكان بن وهو ابن أمير البحر وليم بن الذى استولى على جايكا لانجلترا .
قدم وهو صبي فى الثانية عشرة بأطوار مختلفة من الانفعال الدينى الذى
فوجئ به فى أثنائه لفوره براحة فى أحشاق نفسه ، وبهالة متألمة
فى الغرفة ، إلى حد أنه قال عدة مرات بأنه منذ تلك اللحظة ختم بخاتم
القداسة والخلود . « الإيمان الراسخ » بأن هناك الها وأن نفس الإنسان
يمكن أن تنعم بهذا الاتصال الإلهى (٥٠) . وفى ١٦٦٩ طرد من أكسفورد
وحكم عليه بدفع غرامة لأنه رفض حضور الصلوات الأنجليكانية . ولما عاد
إلى أبيه أوسعه ضربا بالسياط ، وطرده من المنزل لإعلانه اعتناق مذهب
الكويكرز . ثم رق قلب الوالد فبحث بإبنة إلى فرنسا ليتعلم « المرح
الباريسى » ، وربما اكتسب من هناك بعض الكياسة والأساليب المصقولة
التي تحمل بها ، وفى ١٦٦٦ ارتضى لنفسه اسم الخدمة فى الجيش الإنجليزى الذى
يعمل فى إيرلنده ، ولكن بعد عام واحد شهد اجتماعا للكويكرز فى
كورك ، وإلتهبت حماسته من جديد ، فطرد جنديا ضايقه بكثرة الأسئلة
فاقتيد إلى السجن ، ومنه كتب إلى حاكم مونستر يلتمس إباحة حرية العبادة .
وبعد عودته إلى إنجلترا أحرق مراكمه من خلفه ، وأصبح واعظا كويكرى ،
وقبض عليه المرة بعد المرة . ولعبت محاكمته ١٦٦٩ دورا فى تاريخ القانون
الإنجليزى . ذلك أن هيئة المحلفين برأته ، فحكم القاضى على المحلفين بالسجن
والغرامة بتهمة إهانة المحكمة وإزدرائها . فاستأنف المحلفون أمام محكمة
الدعوى المشتركة ، التي أعلنت عدم شرعية القبض عليهم ، وكان فى هذا
تثبيت لحق هيئة المحلفين وسلطتهم فى إنجلترا . ولكن بن أودع السجن ،
على أية حال ، لأنه رفض أن يخضع قبعته فى المحكمة . وأُخلى سبيله فى الوقت

المناسب ليحضر وفاة أبيه (١٦٧٠) ، وقد ترك له دخلاً يقدر بألف وخمسمائة جنيه في العام ، وديننا على التاج قدره ١٦ ألفاً من الجنيهات أقرضه أبوه شارل الثاني وأعيد إلى السجن لقيامه بإلقاء العظائم ، وفيه كتب أبلغ دفاع عن التسامح تحت عنوان « القضية الكبرى لحرية الضمير » ، (١٦٧١) ، وفي إحدى الفترات التي تتمتع فيها بالحرية تزوج من امرأة ثرية ، واشترى حصّة في النصف الغربي لما يعرف الآن بولاية نيو جيرسي . وصاغ لهذه المستعمرة دستوراً يؤكد فيه على التسامح الديني وسلطة المحلفين في التحقيق والحكومة الشعبية ، ولكن الزمام أفلت من يده ، ولم تطبق مواد هذا الدستور .

وفي ١٦٧٧ عبر بن وجورج فوكس وروبرت باركلي وجورج كيث القنال الإنجليزي ليبشروا بمذهب الكويكرز في القارة . وأسس جماعة من « كرهيم » ممن حولهم بن إلى مذهبهم ، مدينة « جرمان تون » ، في بنسلفانيا ، وكانوا أول من أعلن أنه من الخطأ أن يكون للمسيحيين رقيق . ورجع بن إلى إنجلترا ، وأخذ زمام المبادرة في منع الكويكرز من الانضمام إلى حركة اضطهاد الكاثوليك من أجل ما يسمى « بالمؤامرة البابوية » . وكان « خطابه إلى البروتستانت من جميع المذاهب » (١٦٧٩) نداءً قوياً للتسامح الديني في أكمل صورته . وفي ١٦٨١ قبل التاج اقتراح بن التنازل عن حقه في المطالبة بالدين ، لقاء منحه ما يعرف الآن باسم بنسلفانيا . أن بن اقترح اسم « سلفانيا » للجزء المتراعى الأطراف السكثيف الأحراش ، فالحق شارل الثاني « مقطوع » بن « بهذه اللفظة » ، تخليداً لذكر أمير البحر . وعلى الرغم من الخضوع التام للملك ، فإن حكومة المستعمرة الجديدة كانت ديمقراطية ، وكانت العلاقة مع الهنودودية قائمة على العدل والإنصاف ، كما أطاق الكويكرز ، وهم يشكلون غالبية المستوطنين ، الحرية الدينية . وعمل بن في هذه المستعمرة بمجد لمدة عامين ، ولكنه في ١٦٨٤ سمع نبأ اضطهاد جديد عنيف تنعرض له طائفته . فأسرع بالعودة إلى لندن . وهناك بعد عام واحد أصبح صديقه دوق يورك ملكاً على إنجلترا ، وهو جيمس الثاني ، كما صار بن من ذوي

النفوذ والمكانة في الحكومة، ولنا معه لقاء آخر .

أن طريق المقاومة السلبية الذي انتهجه الكويكرز ضد الاضطهاد كان أكبر قوة فعالة ساعدت على التسامح الديني في عصر التعصب ، وقد رآه أحد المنشقين أنه كان هناك ستون ألف حالة اعتقال بسبب الخلاف الديني بين عامي ١٦٦٠ و ١٦٨٨ ، وأن خمسة آلاف ممن اعتقلوا قضوا نحبهم في السجن (٥١) . وكان تعصب البرلمان أسوأ من فجور البلاط والسرير . وذكر مؤرخ كتب التاريخ مثل ما صنعه تقريبا « في هذه الفترة الدقيقة الحرجة » كاد الملك أن يكون الصوت الوحيد الرحيم الذي ينادي بآراء عصرية حديثة ودأب طوال حكمه على النضال من أجل التسامح (٥٢) وفي ١٦٦٩ عندما صدر الحكم على ثلاثة أشخاص بدفع غرامة كبيرة للتاج ، بناء على قانون قديم صدر في عهد الملكة إليزابيث ، لتخلفهم عن حضور الصلوات الأنجليكانية ، أعفاه شارل من دفعها ، وأعلن أنه لن يسمح بتطبيق هذا القانون بعد اليوم « لأنه من رأيه وقناعاته الخاصة أنه لا يجوز أن يضار أحد بسبب تفكيره وما يمليه عليه ضميره » (٥٣) .

وكان من المحتمل أن يقر وجهة نظر الملك في التسامح عدد متزايد من الأنجليز ، لولا أنهم كانوا يرتابون في رغبته في التخفيف من ويلات الكاثوليك في إنجلترا التي كانت لا تزال تخشى سيطرة البابا ، ومحاكم التفتيش الأسبانية وحكومة القساوسة ، إلى حد أن البرسبتيريانز والبيوريتانيين آثروا تحريم عبادتهم على السماح بالعبادة الكاثوليكية في إنجلترا . وكان الأنجليز الكاثوليك يشكلون آنذاك نحو ٥ ٪ من السكان (٥٤) . وكانوا من الناحية السياسية ضحايا عاجزين . ولكن الملكة كانت كاثوليكية ، كما أن شقيق الملك لم يبذل إلا أيسر الجهد في إخماد تموله إلى الكنائس (١٦٦٨) وكان في إنجلترا حينذاك ٢٦٦ من اليسوعيين . كان أحدهم أبنا غير شرعي للملك ، وبدأوا يظهرون علنا في جرأة وثقة . على الرغم من القوانين البالغة التشدد . وكانت المدارس الكاثوليكية تهاجم في الدور الخاصة .

وأرغقت إنجلترا . وأقام البروتستانت في كل عام عرضا تظاهروا فيه ضد البابوية ، وحملوا إلى « مميفيلد » تمثيل للبابا والكرادلة ، أحرقوها هناك . أنهم لم ينسوا « جى فوكس » . ولكن الكاثوليك صبروا وصابروا ولم يفقدوا الأمل ، فمن الجائز الآن أن يرقى كاثوليكي عرش إنجلترا في أية لحظة

٣ — الاقتصاد الإنجليزي ١٦٦٠ — ١٧٠٢

قدر عدد سكان إنجلترا وويلز في ١٦٦٠ بنحو خمسة ملايين نسمة (٥٥) . ربما ازداد إلى خمسة ملايين ونصف المليون في ١٧٠٠ (٥٦) ، أى أنه لا يكاد يبلغ ربع عدد سكان فرنسا أو ألمانيا ، وأقل من ربع سكان إيطاليا أو أسبانيا (٥٧) . وكان سبع السكان من طائفة « اليومن » ، أى صغار مالكي الأرض الأحرار الذين يملكون الأرض التي يفلحونها ، وشكل المزارعون المستأجرون الذين يعملون في أراضي النبلاء وذوى الحسب والنسب ، نحو سبع آخر من السكان . أما بقية السكان فكانوا يقيمون في المدن .

وبازدياد السكان نقص نصيب الأسرة من الخشب ، وتزايد استخدام الفحم في البيوت والحوانيت ، وتطور علم المعادن واستخراجها من المناجم . وأصبحت شيفيلد مركزاً لصناعة الحديد . وسرت في إنجلترا حمى الانتاج وجمع الثروات . وتوسل أصحاب المصانع إلى البرلمان أن يصدر تشريعات ترغم العاطلين الكسالى على مزاولة العمل . وتزايد تشغيل الأولاد في الصناعات الحولية ، وبخاصة النسيج . وتهلل وابتهج ديفو لأنه في كولشستر وتونتون « لم يكن ثمة ولد فوق الخامسة من العمر ، في المدينة أو فيما حولها من القرى ، أمهله والده أو لم يتلق تعليماً ، إلا استطاع أن يكسب قوته » وبالمثل حول « وست رايدنج » : « لا يكاد يوجد ولد جاوز الرابعة إلا صكفته يداه مؤونة العيش (٥٨) » .

وكان معظم الصناعة يتم في المنازل أو في حوايت الأسرة . وحدث

تموسع في نظام المصانع في النسيج والحديد . وتذكر نشرة ظهرت في ١٦٨٥ كيف أن « أصحاب المصانع يشيدون بتكاليف باهظة ، دوراً ضخمة تضم كل القائمين بعمليات صناعة الصوف ، من فرز وتمشيط وغزل ونسج وكبس بل وصباغة ، في صعيد واحد » . وقيل أنه كان هناك مصنع من هذا القبيل يعمل فيه ٣٤٠ شخصاً . وكان في جلاسجو في ١٧٠٠ مصنع نسيج يضم ١٤٠٠ عامل (٥٩) . وكان تقسيم العمل والتخصص فيه آخذين في التقدم ، وكتب سير ولیم بتي في ١٦٨٣ « في صناعة الساعة » ، إذا قام فرد بعمل التروس ، وآخر يصنع الزبرك ، فثمة ثالث يحفر القرص المدرج ، ورابع يتولى صنائه الأغلفة ومن ثم تخرج الساعة أحسن وأرخص مما لو كاف بالعمل كله فرد واحد (٦٠) .

وظلت أجور الأعمال الزراعية يحددها الحكام المحليون وفقاً لقانون الغلمان للهنين « الذي صدر في ١٥٨٥ في عهد إليزابث ، فإذا دفع رب العمل ، أو أخذ العامل ، أكثر من الأجر المحدد ، تعرض كلاهما للعقاب . وتراوحت أجور الأعمال الزراعية في تلك الفترة بين خمسة وسبعة شلنات في الأسبوع مع الإقامة والطعام (٦١) . أما الصناعة فكانت الأجور فيها أعلى قليلاً . فكان الأجر اليومي شلناً في المتوسط ، وربما كان هذا ، من حيث القيمة الشرائية ، يعادل ، دولارين ونصف دولار في ١٩٦٠ . أما أجور للساكن فكانت منخفضة نسبياً ، حيث كان ايجار البيت المتوسط الاتساع في لندن يبلغ نحو ٣٠ جنيه في السنة (٦٢) . وكانت البيرة رخيصة الثمن ، أما السكر والملح والفحم والصابون والأحذية والملابس ، فكانت أثمانها في ١٦٨٥ تعادل أثمانها في ١٨٤٨ (٦٣) . وازدادت أسعار الحبوب إلى خمسة أمثالها بين عامي ١٥٠٠ و ١٧٠٠ (٦٤) . وأكلت طبقات العمال خبز الجاودار والشعير والشوفان ، أما خبز القمح فكان ترفاً ينعم به ذوو اليسار ، ونادراً ما ذاق الفقراء اللحم . واعتبر الفقر الذي كان عليه جمهور الشعب أمراً عادياً ، ولو أنه ربما كان أشد منه في أخريات العصور الوسطى (٦٥) . ويقول ثورولد روجرز :

« سعى مالكو الأرض طوال القرن السابع أن يحصلوا من مستأجري الأرض على أكبر ما يستطيعون من إيجار ، وبأقصى ما يمكن من قوة فرضوا على العمال أجورا تؤدي بهم إلى الجوع والعوز ، وبدلوا قصارى جهدهم في استغلال التشريع ليحصلوا من المستهلك على أسعار عالية تقرب الناس من حافة المجاعة والقحط . والتاريخ زاخر بالشواهد الكثيرة على تفاقم الحال يوما بعد يوم (٦٦) » .

وفي ١٦٩٦ قدر جريجورى كنج أن ربع سكان إنجلترا كان يعيش على الصدقات ، وأن الأموال التي تجمع لإمالة الفقراء كانت تعادل ربع تجارة الصادرات (٦٧) . وقهر الأغنياء الفقراء وغلبوهم على أمرهم إلى حد بات معه الأجراء والفلاحون أضعف من أن يشوروا ويتمردوا ، ولمدة نصف قرن خمد صراع الطبقات في إنجلترا (٦٨) .

أما الكنيسة الانجليكانية التي كانت قد تجاسرت أيام شارل الأول على أن تدافع عن الفقراء من وقت لآخر ، فقد خلصت الآن ، نتيجة للثورة البيوريتانية ، إلى أن مصالحها تحقق على أحسن وجه ، إذا ربطتها بمصالح طبقات الملاك ربطا تاما (٦٩) . وكان البرلمان شكلا من ائتلاف بين مالكي الأرض وأصحاب المصانع والتجار والرأسماليين . ومن ثم أصنى ، بحكم شعور الرماله للتبادل ، إلى صيحات طبقة أرباب العمل ليخلصهم من القوانين التي تعوق انطلاق القوى الاقتصادية للعمل دون قيود . وقبل نهاية القرن السابع عشر ، وقبل ظهور آدم سميث بزمان طويل ، سمحت إنجلترا صيحة رب العمل « اتركه يعمل » (سياسة عدم التدخل) من أجل الحرية الاقتصادية ، وتخلص أرباب العمل من العوائق القانونية والإقطاعية والنقابية ، في تشغيل العمال والإنتاج والتجارة (٧٠) ، وتجاوزوا القيود النقابية وانهارت النظم المهنية ، وبطل العمل بتحديد الأجور عن طريق الحكام المحليين ، بفعل القوة النسبية للمساومة بين أرباب العمل الأثرياء والعمال الجياع (٧١) . إن الأيديولوجية الحديثة لاخرية ، بدأت هنا الآن ، حين طالب للتقاولون

واللتزمون للغامرون ، في صخب وغضب ، بالتححرر من القيود القانونية والأخلاقية .

وباتت التجارة الآن عنصرا هاما فعالا في الاقتصاد الإنجليزي ، وعاملا حيويا في حصول البرلمان على الاعتمادات التي يقررها ، إلى حد أنها ، أي التجارة ، شقت طريقها لتفعل ما تشاء مع حكومه يسيطر عليها مالكو الأرض . وأصبح التشريع الإنجليزي في التجارة ، بحايي الإنجليز لا على حساب الهولنديين وحدهم ، بل على حساب الأيرلنديين والاسكتلنديين كذلك ، وحرم استيراد الماشية والأغنام والخنازير من أيرلندة واستبعد الغلال الاسكتلندي ، وفرضت ضرائب ثقيلة على واردات اسكتلندة . إن الرغبة في التوسع في التجارة الإنجليزية وتوفير الحماية العسكرية لها ، هي التي حثت على التحالف مع البرتغال ، وزواج شارل الثاني من كاترين براجانزا ، وعلى تجديد الحرب مع المقاطعات المتحدة ، والتصميم على الاحتفاظ بمجبل طارق . وتضاعف حجم تجارة إنجلترا بين عامي ١٦٦٠ و ١٦٨٨ ، بسبب الانتصار على الهولنديين ، إلى جانب أسباب أخرى (٧٢) ، وكتب شارل الثاني إلى أخته يقول : « إن أقرب شيء إلى قلب هذه الأمة هو التجارة وكل ما يتعلق بها » (٧٣) . وبات نراء التجارة ينافس الآن اقتناء الأراضي الواسعة الطيبة .

ومدت للشروطات المغامرة الإنجليزية أذرعها في كل اتجاه ، فالتصمت للمستعمرات الجديدة في نيويورك ونيوجرسي ومنسلفانيا وكارولينا وكندا ، ومنحت شركة الهند الشرقية كل الحقوق فيما تستطيع أن تضع يدها عليه في الهند ، وكان لهذه الشركة أسطولها وجيشها وحصونها ومملتها وقوانينها ، وكانت تملن الحرب وتفاوض لعقد الصلح ، وتم الاستيلاء على بمباي بالمصاهرة في ١٦٦١ ، وعلى منهاتان (في نيويورك) بحق الفتح في ١٦٦٤ . وفي العام نفسه استولى الإنجليز على الممتلكات الهولندية على الساحل الغربي لأفريقية . ومن أجل تزويد هذه المستعمرات بالأيدي العاملة أنشأت طادة « الإكراه » وهي إغراء الشبان الإنجليز بالعمل في هذه « المزارع » بتقديم الحر لهم أو ضربهم حتى يفقدوا وعيهم ، وعندئذ يحملونهم إلى ظهر سفينة

على وشك الإفلاق ، ثم يوضحون لهم فيما بعد أنهم كانوا قد وفموا عقداً للعمل (٧٤) . إن القانون حرم هذا الإجراء ، ولكنه لم ينفذ . وكان موقف البرلمان واضحاً ، فإنه على حين انتهت ثورتا ١٦٤٢ — ١٦٤٩ و ١٦٨٨ — ١٦٨٩ إلى تغلب البرلمان على الملك ، حدثت في نفس الوقت ثورة إقتصادية متزامنة انتهت بسيطرة التجارة والصناعة والمال على البرلمان .

وكان في إنجلترا في تلك الأيام مئات من « المائنين أصحاب المصارف » (مقرضو النقود) الذين يدفعون ٦٪ أرباحاً على الودائع ، ويتقاضون ٨٪ على القروض (٧٥) . وكان شارل الثاني يلتبس أى منفذ لتجنب سلطة البرلمان على الخزانة ، فلجأ إلى الاستدانة كثيراً من أصحاب المصارف هؤلاء ، حتى بلغت ديونه منهم في ٢ يناير ١٦٧٢ ، ١٣٢٨٠٥٢٦ رجبياً (٧٦) ، وفي هذا التاريخ كان مجلس الملك على وشك أن يشن الحرب على المقاطعات المتحدة فأحدث في مجتمع المال هزة عنيفة « باغلاق خزانة الدولة » أى منع تسديد فوائد ديون الدولة لمدة عام . فساد الذعر ، ورفض أصحاب المصارف الوفاء بالتزاماتهم تجاه أصحاب الودائع ، أو تنفيذ إتفاقاتهم مع النجار ، وعمل المجلس على تهدئة العاصفة بوعود قاطعة باستئناف الدفع في نهاية العام . واستؤنف الدفع في ١٦٧٤ ، وسدد رأس المال عن طريق تعهدات والتزامات حكومة جديدة . والواقع أنه في ٢ يناير ١٦٧٢ تمحدث بداية الدين الوطني في إنجلترا ، وتلك حيلة جديدة في تمويل الدولة .

ومذ باتت لندن موطن أصحاب المصارف وأمرء التجارة ومركز الثروة المجموعة عن طريق نظام الأسعار ، من منتجي الطعام والسلع ، فإنها كانت الآن أكثر مدن أوروبا اكتظاظاً بالسكان ، فنافست قصور رجال الأعمال قصور الأرستقراطية في البذخ والترف ، إن لم يكن في الذوق . وكانت فيها مجموعة من المخازن بهاراتها الفاتنة ولافتاتها المزخرفة ونوافذها ذات العمدة الحجرية ، تعرض منتجات العالم (*) أمام أنظار الأقلية ، ورصفت

(*) حرالى هذه الفترة بدأت النوافذ الزجاجية تحمل محل النوافذ الخشبية ذات الاطارات

الشوارع الرئيسية وحدها بالحصى عادة وحوالى ١٦٨٤ أضيئت بتور ضعيف حتى منتصف الليل فى الليالى غير القمرية بقناديل يعلق واحد منها كل عشرة أبواب . ولم يكن فى الشوارع أرصفة للمشاة ، وكانت نهاراً تمتج بالحركة الصاخبة من الباعة المتجولين الذين يعرضون بضاعتهم فى سلال أو عربات يد ، أو عجلات يد ، وبالمزادين الذين يعرضون القيام بخدمات منزلية مثل « قتل الفيران والجُرذان (٢٧) » . وكان هناك المتسولون والاصوص فى كل شارع ، كما وجد أيضاً المغنون الذين يرفعون عقيرتهم بالأغنيات من أجل الحصول على بنس . وكان حى الأصيل يسمى « الحى » . وكان يحركه عمدة وهيئة البلدية ومجلس ينتخب أرباب البيوت فى الأحياء أعضاء . وإلى القرب من هذا الحى ، كان يقع « الحى السياسى » وستمستر ، وفيه الكنيسة والقصر اللذان يحملان هذا الاسم (وكان القصر مقر البرلمان) ، وفيه القصران المسكيان هويتول وسان جيمس . وخارج هذين القسمين من المدينة كانت أحياء الأكوخ التى تمتج بالفقراء الكثيرى التناسل . ولم تكن الشوارع فيها مرصوفة فكانت العربات ترش ، مزهوة ، ماء المطر أو الوحل على المشاة ، وهى تصطدم بالجدران فى الأزقة الضيقة . وكانت المنازل متقاربة جداً بعضها من بعض ، والأدوار العليا متلاصقة متقابلة ، مما لا يدع مجالاً لضوء الشمس الممتقطع أن ينفذ إليها . ولم يكن نظام المجارى الحى الى معروف فى لندن آنذاك ، بل كانت مراحيض خارجية وبالوعات ، وكانت العربات تحمل الفضلات وتذف بها خارج حدود المدينة ، أو فى نهر التيمز بطريقة خفية غير مشروعة

وكان تلوث الهواء آنذاك بالفعل مشكلة وبناء على طلب الملك أعد جون افلسين ونشر فى ١٦٦١ خطه لتبديد الدخان الذى علق بسماء لندن ، قال :

« إن الاسراف فى استخدام الفحم يعرض لندن لأسوأ الازعاج والخزى

== الخشبية الثقيلة ، لأن الزجاج يسمح بنفاذ قدر أكبر من الضوء .

والعار ، وليس هذا ناشئاً من نيران للطايج التي لا يسكاد يرى لها أثر ، بل من بعض مداخن معينة في مصانع البيرة ومحال الصباغة وإحراق الجير ، ومصانع للملح وعلى الصابون وبعض مصانع أخرى ، تسكنى فوهة إحدى المداخن فيها ، وحدها وبشكل واضح ، لثوليث الهواء وإزطاج لندن أكثر مما تفعل كل مداخن المدينة مجتمعة ... إن لندن تكون أقرب شهبها ببركان اتنه أو بضواحي جهنم ، منها بمجتمع تعيش فيه مخلوقات عاقلة ، حين تفتح هذه المداخن أفواهها وتنفث القتام والسخام ... أن السامخ للنهوك سرعان ما يشم ، من مسافة عدة أميال ، رائحة المدينة التي يقصد إليها ، قبل أن يراها ... أن هذا الدخان الأسود السكريه ... يقرح الرئتين ، وهذا داء لا شفاء منه ، إلى حد أنه يقضى على أعداد كبيرة من الناس ، نتيجة السل المهلك الخطير ، كما ينبىء بذلك نشرات الوفيات الأسبوعية (٧٨) .

وأعد ايقلين مشروع قانون للبرلمان الذي كان أقرب منالاً لرجال الصناعة الأثرياء منه للجمهور الذي يعوزه التنظيم ، ومن ثم لم يحرك هذا البرلمان ساكناً . وبعد ثلاثة عشر عاماً سويارفع سير توماس براون صوت الطب طامياً ، يحذر من : —

« الروائح السكريبية التي تنفثها البالوعات العامة ، وإلأما كن المنتنة وفضلات المواد المغلية التي تستخدمها المصانع القذرة غير الصحية كما أن الضباب والسديم يعوقان دخان الفحم من أن يهبط ويتبدد ، ومن ثم يمتزج بالسديم ويتنفسه الناس ، ولكل هذا آثار سيئة ، حيث يلوث الدم ويعرض السكان للنزلات الشعبية والسعال (٧٩) . »

إن الهواء الفاسد ، وضعف الرعاية الصحية وسوء التغذية كان يهدد بانتشار الأوبئة في كل عام وما أن تجيء فترة تتجمع فيها ظروف غير مواتية ، حتى تنزل كارثة الطاعون . وفي ٣١ أكتوبر ١٦٦٣ دون بيز في مذكراته : « أن الطاعون منتشر في أمستردام ، ونحن في فزع منه هنا . وكانت السفن القادمة من هولنده تخضع للحجر الصحي ، وفي ديسمبر ١٦٦٤ مات شخص واحد بالطاعون في لندن ، واثنان في أبريل ١٦٦٥ ،

٩ — قصة الحضارة

وفي مايو ٤٣ شخصاً ، وهكذا تفاقم الحال حتى حل الصيف الحار مع مطر قليل يساعد على تنظيف الشوارع ، فكان ضغثا على إباله ، وأيقنت لندن التي ملأها الفزع والجزع ، أنها تواجه شيئاً شبيها بالموت الأسود ١٣٤٨ الذي لا تزال ذكره عالقة بالأذهان . وكان دينفو آنذاك صبيا في السادسة ، ولكنه استطاع أن يمي قدرا كبيرا مما تردد في هاتيك الأيام عن الطاعون ، فكتب قطعة خيالية بعنوان « صحيفة عام الطاعون » تكاد تكون في منزلة التاريخ (٨٠) :

« منذ الأسبوع الأول من يونيو انتشرت العدوى بصورة رهيبة ، وارتفعت أرقام الوفيات ، وحمد الناس إلى إخفاء قلقهم قدر الطاقة ، حتى يحاولوا دون ابتعاد جيرانهم عنهم ، أو دون إغلاق الحكومة لبيوتهم . وفي يونيو تزاحم الأغنياء على مغادرة المدينة ، وفي هويتشابل ما كان يمكن أن ترى إلا العربات ، وعربات اليد تحمل البضائع والنسوة والأطفال وغيرهم ، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الرجال على ظهور الخيل .. وهو منظر رهيب كئيب (٨١) » .

وزادت النـذر والتنبؤات عن المصير المشئوم من الرعب ، وأغلقت المسارح وحللات الرقص والمدارس ودور المحاكم ، وانتقل الملك وحاشيته في يونيو إلى أكسفورد « حتى يحوطهم الله برعايته إن شاء » دون أن يسمهم سوء ، ولو أن صيحات التأيب تعالت ضدهم لأنهم هم الذين جلبوا هذا البلاء ، عقابا من عند الله ، على فسادهم وفجورهم ، وبقي رئيس أساقفة كنتربري في مقره في لامبث ، ينشق في كل أسبوع عدة مئات من الجنيمات عونا للمرضى والأموات . وبقي موظفوا المدينة فيها يقومون بأعمال بطولية . وأرسل الملك ألف جنيه ورجال الأعمال في « السيتي » ستجائة جتية أسبوعيا ، وهرب كثير من الأطباء ورجال الدين ، وبقي آخرون وقفي كثيرون نجبهم متأثرين بالعدوى . وجرب الناس الأدوية والملاجات على اختلاف أنواعها ، فلما أخفقت لجأوا إلى التأمم والتعاويد التي قد تصنع

المعجزات • وفي ٣١ أغسطس ١٦٦٥ قال بيترز في هذا الأسبوع مات ٧٤٩٦ شخصاً منهم ١٦٠٢ بالطاعون • وكان حفارو القبور يحملون من يموتون في الشوارع على عربات اليد ، ويدفنونهم في مقابر عامة • وبلغت جملة من ماتوا بالطاعون من أهالي لندن في ١٦٦٥ ، نحو سبعين ألفاً ، وهذا سبع السكان • وخف الوباء في ديسمبر ، وعاد الناس لمزاولة أعمالهم شيئاً فشيئاً • وفي فبراير ١٦٦٦ عادت الحاشية إلى العاصمة •

وما كاد السكان الباقون على قيد الحياة يروضون أنفسهم على احتمال ما كلفهم الطاعون من خسائر حتى داهمت المدينة كارثة أخرى • وكانت كارثة حقا ، ذلك أنه في يونيو ١٦٦٦ أبحر الهولنديون في جراءة إلى التيمز ودمروا المراكب الإنجليزية فيه بمدافع مجمع صوتها في لندن • ولكن في الساعة الثالثة من صباح الأحد ٢ سبتمبر ، في حانوت خباز في بودنج لين ، شب حريق ، أتى في ثلاثة أيام على معظم الجزء من لندن الواقع شمال النهر • ومرة أخرى تأمرت الظروف وتجمعت المصائب : صيف جاف ، وبيوت كلها تقريباً مبنية من الخشب ، متلاصقة ، كثير منها خال من السكان الذين يقضون عطلة نهاية الأسبوع في الريف ، مخازن ملأى بالزيت والقار والقنب والسكران والخمور وغيرها من المواد القابلة للاحتراق في الحال ، ثم هبت ريح عاصفه حملت النار من بيت إلى بيت ، ومن شارع إلى شارع ، أضف إلى ذلك سوء التنظيم وعدم الاستعداد لمواجهة مثل هذا الحريق في مثل هذا الوقت من الليل • ومن حسن حظ ايفالين أنه كان في سوثرارك ، فأسرع إلى شاطئ النهر •

« حيث شهدنا للمدينة بأسرها وقد اندلع فيها اللمب الرهيب بالقرب من للاء ، في كل الدور من جسر لندن ، وفي شارع التيمز ، صعدا نحو تشيسيد ... وامتدت النيران في كل مكان ، وعرت الدهشة الناس ، إلى حد أننا لم ندر منذ البداية ، ماذا تولا من قنوط وجزع حتى أنهم بشق النفس تحركوا لاختادها ، فلم نكن نسمع أو نرى إلا الصرخات والمويل والنواج

وهم يجرون هنا وهناك ، ذاهلين مغبولين . كذلك أحرقت النار الكنائس والقاعات العامة ، وسوق الأوراق المالية والمستشفيات والآثار والزخارف والبيوت والأثاث أنها أتلقت كل شيء ١٠٠ »

وهنا رأينا النهر مغطى بالبضائع الطافية فوق الماء والزوارق والقوارب محملة بالبضائع التي وجد بعض الناس فسحة من الوقت وأوتوا شيئاً من الشجاعة لانقاذها . كما كان هناك على الجانب الآخر العربات وغيرها ، تنقل إلى الحقول ، التي انتشرت لعدة أميال كل المنقولات من كل نوع ... كما نصبت الخيام ليأوى إليها الناس وما استطاعوا أن يستخلصوه من بضاعة ومتاع . يلهول المنظر الأليم المفجع الذي لم تصادف الدنيا مثله منذ بدء الخليقة . وغطت السنة النيران وجه السماء ، فبدت وكأنها أتون ملتهب ... انى أرجو الله ألا تقع عيناي ثانية على مثل هذا المنظر ، منظر أكثر من عشرة آلاف بيت تحترق كلها في لحظة واحدة وكان صوت اللهب المندلح وفرقعة ورعده ، وصراخ النساء والأطفال ، وهروء الناس ، وسقوط الأبراج والمنازل والكنائس ، أشبه شيء بعاصفة هوجاء ، وكان الهواء ساخناً إلى حد أن الناس اضطروا إلى الوقوف جامدين ، تاركين النار يشتد أوارها ، وتمتد ألسنتها لمسافة تقرب من ميلين طولا وميل عرضا (٨٢) .

وأبلى الملك وأخوه المكروه جيءس ، كلاهما ، بلاء حسنا في هذه الأزمة ، وجدوا في العمل بأيديهم مع مكافئ النيران ، وأشرفوا على أعمال الإغاثة ومولوها وهياؤا المأوى والطعام لمن باتوا بلا مأوى ، وأصرروا ، برغم المعارضة الشديدة ، على هدم البيوت ليحولوا دون امتداد الحريق ، بما كان له أثره في انقاذ جزء من المدينة في شماله التيمز (٨٣) وكاد الحى التجارى أن يمحى عن آخره ، أما حى السياسة « وستمنسر » ، فقد أُلحق ، ودمر ثلثا مدينة لندن ، بما فى ذلك ١٣٢٠٠ منزل ، ٨٩ كنيسة بما فيها كنيسة سانت بول العتيقة ، ولقى ستة أشخاص فقط مصرعهم ، ولكن مائتى ألف شخص فقدوا مساكنهم (٨٤) . ودمرت معظم المكتبات واحترق من الكتب

ما قيمته ١٥٠ ألف جنيه . وقد ر مجموع الخسائر والأضرار بنحو ٥٠٠ ر ٧٣٠ ر ١٠ جنيه (٨٥) ، وهو ما ربما يعادل اليوم ٥٠٠ مليون دولار . وبعد الكارثة نظم المجلس البلدى فى لندن إدارة للمطافىء ، وركبت خراطيم الماء فى أنابيب الماء الرئيسية . وكان على كل شركة أن تعين بعض أعضائها ليكونوا على أهبة الاستعداد لتشغيلها لدى سماع أى انذار ، وكان على كل العمال أن يحذوا حذوهم إذا استدعاهم عمدة المدينة . وأعيد بناء لندن فى شىء من التمهّل ، على طراز أمتن وأقوى ، وإن لم يكن أجمل من ذى قبل . وبأمر من الملك حل الطوب والحجر محل الخشب ، واختفت الطوابق العليا الناتئة ، وأصبحت الشوارع أوسع وأكثرت استقامة ، ورصفت بالحجر السلس الأملس ، وخصصت الطوارىء للمشاة . وتحسنت الرطابة الصحية . وقضت النيران على كثير من الأقدار والقيعان والبراغيث والجراثيم فتخاضت لندن من الطاعون ، وجدد المهندس المعمارى « رن » بناء كنيسة سانت بول .

٤ — الفن والموسيقى ١٦٦٠ - ١٧٠٢

ولد كرسطوفر رن Wren فى أحضان الدين ، ورضع لبان العلم ، وتوجه بالفن . كان أبوه كبير كهنة وندسور ، وعمه أسقف الى Ely ، والتحق بمدرسة وستمنستر ، ثم كلية وادهام فى « أكسفورد » ، وفى ١٦٥٣ حصل وهو فى الحادية والعشرين على منحة لمتابعة الدراسة فى كلية « جميع النفوس » . ثم أصبح فى سن الخامسة والعشرين أستاذا للفلك فى كلية جريشام فى لندن ، وفى سن التاسعة والعشرين شغل « كرسى » « سافيل » للفلك فى أكسفورد . وبدأ أنه وهب نفسه للعلم ، فقد سحرت له الرياضيات والميكانيكا والبحريات والأرصاء الجوية والفلك . فتقوم السيكلويد (وجد أن الخط للمستقيم مكافئ لانحناء السيكلويد) . وشرح قوانين التصادم ، ونسب إليه نيوتن كثيرا من التجارب التى أدت إلى وضع قوانين الحركة الثلاثة (٨٦) . وعمل بجهد على تحسين التلسكوب وصقل

العدسات وبحث في دوائر زحل . وابتكر طريقة لتحويل الماء للمالح إلى ماء عذب ، وأدى من أجل بويل أول عملية حقن للسائل في مجرى الدم في الحيوان . وأثبت أن الحيوان يمكن أن يعيش بسهولة بعد إزالة طحال . واشترك مع توماس ولس Willis في تشريح المخ . وأعد الرسوم اللازمة « لتشريح ولس للمشهور » وكان من أوائل أعضاء « الجمعية الملكية » وهو الذي كتب مقدمة ميثاقها . وما كان أحد ليحلم أنه سيخلد في التاريخ على أنه أعظم مهندس معماري انجليزي .

أن الظروف قد تغير مجرى الحياة . وربما كانت مهارة رن في الرسم هي التي حدثت بشارل الثاني إلى تعيينه مساعدا لسير جون دنهام (١٦٦١) رئيس للمساحة في الأشغال العامة . وسرعان ما وجد في العمارة ذلك التزاوج بين العلم والفن ، أي اضفاء الجمال على الحقيقة ، وهذا هو ما كان يشغل كل تفكيره . وكتب يقول : « هناك لونا من الجمال : الجمال الطبيعي والجمال المؤلف أو العادي المتعارف عليه . والجمال الطبيعي تأتي لنا به الهندسة ، أما الثاني ، الجمال المؤلف ، فإنه يتأتى من ترويض حواسنا على الأشياء التي تبعت السرور والبهجة طادة ٠٠٠ في نفوسنا ولكن للعيار الحقيقي دائما هو الجمال الطبيعي أو الجمال الهندسي (٨٧) ، فالشيء الصحيح هندسيا ، كما يرى رن ، يسرنا هو نفسه ، ويكون جيلا (أحد الجسور الكبرى في العالم مثلا) . ومن هذه الزاوية أثر العمارة الكلاسيكية على العمارة الفوطية . وفي تصميماته الأولى ترسم خطى اينجو جونز .

وفي ١٦٦٣ وضع تصميم مسرح شلدون في أكسفورد لأستف جابرت شلدون ، وهما منذ البدايه ، اتبع مبادئ « كلاسيكية » . فرفع المسرح الدائري الضخم ، على نفس الطراز الذي وضعه فتروفوس في قديم الزمان وفيينولا في عصر النهضة . وساعدت إقامته الطويلة في فرنسا ١٦٦٤ - ١٦٦٦ على ترسيخ ميوله الكلاسيكية . ولكن إعجابه بكنيسه فرانسوا مانسارت في فال - دي - جراس ، جنح به إلى إضافه شيء من زخارف الباروك إلى

واجهات مبانيه . كما أنه تذ كرقبه فاك - دى - جراس ، وهو يعيد بناء كنيسة سانت بول .

وطادر ن إلى لندن فى مارس ١٦٦٦ . وفى أبريل ، بناء على طلب الأسقف شلدون وضع خطة لإصلاح الكاتدرائية المتداعية ، التى ساخت من العمر آنذاك نحو ٦٠٠ عام . وفى ٢٧ أغسطس وافقت لجنة إصلاح كنيسة سانت بول على مشروع رن . ولم يمض على ذلك أسبوعان حتى دمر حريق لتدن التاريخى الكنيسة ، وجرى الرصاص الذى أذاقته النيران من سقفها فى الشوارع .

أن هذا الحريق الذى أتى على ثلثى العاصمة هيباً للعمارة فرصة لم تتح لها منذ حريق رومه . وكانت النيران لا تزال كامنة تنفث الدخان حين عرض رن على شارل الثانى مشروعه الرائع لإعادة بناء المدينة . وقبل الملك المشروع ، ولكن أعوزه المال اللازم له ، كما أن المشروع تعارض مع حقوق الملكية القوية . وشغل رن نفسه بمشروعات أخرى ، وأعد فى ١٦٧٣ نصمياً لكنيسة سانت بول جديدة . ولكن رجال الكاتدرائية اعترضوا بأن التصميم تبدو عليه سياء معبد وثنى ، وحثوا رن على التزام الطراز القوطى فى الكنيسة العتيقة ، ووافق كارها على حل وسط ، بحيث يكون الداخل عبارة عن أقواس وجناح من الكنيسة ومكان خاص بالمرتلين ، وكلها على الطراز القوطى ، على أن تكون الواجهه من طراز عصر النهضة : مدخل ذو رواق معمد وقوصرة كلاسيكية وبرجان من طراز الباروك . وكانت النتيجة خليطاً كريه المنظر من الطراز ، ولو أن رن أصالح منه بعض الشئ بتتويج الجزء الداخلى بقبة تنافس قبة برونسكى فى فلورنسة وميسكلاً نجلو فى رومه وستظل سانت بول أروع كنيسة شادها البروتستانت

وعلى حين مضى هذا المشروع فى طريق التنفيذ لمدة خمسة وثلاثين عاماً ، فإن رن الذى خلف دنهام فى تولى شئون المساحة العامة ، وضع تصميماً

لثلاث وخمسين كنيسة أخرى . اشتهر كثير منها بأبراجها وقبورها المستدقة التي جمت بين حاسة الجمال عنده وبين نزعتة الرياضية . أضاف إلى هذا دار الجمارك في لندن ، والمستشفى في كل من جرينتش وشاس ، والسكنائس الصغيرة في كلية بمبروك في كمبردج وتريتي كولج في أكسفورد ، ومكتبة تريتي كولج في كمبردج والجناح الشرقى الكلاسيكى في قصر هامبتون كورت ، وستا وثلاثين داراً نقابية ، وعدداً من الدور الخاصة بل يبدو أنه في الأربعين عاماً الأخيرة من القرن السابع عشر . لم يشيد مبنى له قيمته وأهميته ، إلا كان رن هو المهندس الذي تولاه^(٨٨) واحتفظ رن بمنصبه في المساحة طوال حكم شارل الثانى ، وجيمس الثانى ، ووليم ومارى ، وآن . وتقاعد عن العمل فى سن السادسة والثمانين ، ولكنه ظل لخمس سنوات أخرى يشرف على العمل فى كنيسة وستمنستر ، وينسب بعضهم إليه فضل إقامة أبراجها ، وفارق الحياة فى سن الحادية والتسعين ، ودفن فى كنيسة سانت بول .

وكان فن النحت لا يزال يتجلى فى انجلترا . ولكن الحفر على الخشب كان فناً رقيقاً . وكان جراننج جيبونز معاوناً له قيمته للمهندس رن ، قام بحفر المقاعد فى المكان المخصص للمرتلين وصندوق الأرفعن الفخم فى كنيسة سانت بول ، والزخارف فى قصر وندسور وقصر كنسنگتون وهامبتون كورت .

واستمر فن الرسم فى انجلترا على أن يستقدم الأساتذة ويشبط من هم بنيه . وعلى الرغم من ذلك ، كان بعضهم يعد جون ريبلى أعظم رسام لصور الأشخاص فى فترة عودة الملكية . وأدرك جون أن الوجه المدروس الذى يرسم فى روية ، هو فى ذاته سيرة حياة ، فاستطاع أن يتسراً خطوطه ، وفى بصيرة نافذة كشف فى ثناياه عن خفاياه وأسراره وأبرزها فى شجاعه غير مربحه . وكاد تعليق شارل الثانى على صورة رسمها له ريبلى يكون سبباً فى انهيار الفنان ودماره ، حين قال الملك : « أهذه صورتى ؟ يا خبيث الأمل ،

اذن أنا رجل قبيح المنظر ، ومضى زمن طويل قبل أن تدرك الحاشية أن هذا كان مجرد تسمية عفوية لأمانة الفنان . وبنفس الدقة والأمانة أخرج ريبلي صور الملك الأحمر جيمس الثاني ، وادموند وإلر الشاعر المرتد ، وادل آرونديل الأرسنقراطي التافه المختال . ولكنه حين رسم كرسنوفورن وريت بويل ، وقع على العبقرية ووضع يده على إماراتها في الوجه ، وعلى بريقتها في العينين . قال هوراس وولبول « ربما كان في مقدور ريبلي ، بربع غرور سيرجودفري نلر ، أن يفتح العالم بتفوقه وسموه (٨٩) . وفارق الحياة في ١٦٩١ وهو في سن الخامسة والأربعين .

وكان لي الهولندي ونلي الألماني فارسي الحلبية المرموقين في رسم الأشخاص في عصر آل ستيوارت الثاني . وكان والد لي جنديا هولنديا اسمه فان در فاس . (واشتق لقبه هذا (لي) من زبقة كانت مرسومة على داره . واضعدهم للقب إلى الإبن . ولد بيتر في وستفاليا ١٦١٨ ، ودرس الرسم في هارلم ، وعبر البحر إلى إنجلترا (١٦٤١) حين سمع أن شارل الأول أوفى الذوق والمال ، ووفق في أن يخلف فانديك بوصفه مصورا للأشخاص الذي يبتغيه الناس ، وظل محتفظا بمسكاته هذه على عهد كرومول وشارل الثاني ، واقتبس لي أسلوب فانديك في اضفاء الأناقة والرشاقة على الجالسين أمامه (لرسمهم) . ولو في اللباس فقط . وحاصرت ربات الجمال في الحاشية ، من ذلك أننا نرى في قاعة المتحف الوطني لوحة نل جوين ريانة خاتنة داعرة . وكونتس شروزبرى التي ساءت سمعتها ، بمخامراتها الغرامية كما نرى على جدران قصر هامبتون كورت ليدي كاسلبن ولويزدي كيو وال ، زدهيان بمحلات أندائهما . وأجمل من ذلك جون تشرشل وهو طفل مع أخته (٨٩) أزابلا (٩٠) ومن الذي كان يتوقع أن يصبح هذا الطفل للملائكي والطفلة الملائكية دون مالبرو القوي الجبار ، والعشيقة التي تصعب زحزحتها لجيمس دوق يورك ؟ . وعن طريق مثل هذه اللوحات حصل لي على لقب فارس ، وجمع ثروة . فقد جلس أمامه شارل الثاني وستة من الأدواق

لرسمهم . ورأى بيز أنه جبار معتد بنفسه . . يحظى بمنزلة رفيعة (٩١) ، وكان يعيش « عيشه مترفه باذخه (٩٢) » وحدد له موعدا للقائه بعد ثلاثة أسابيع .

وفي ١٦٧٤ ، أى قبل وفاة لى بست سنوات ، قدم إلى لندن رجل ألماني عقد العزم على أن يخلف سيربيتز (لى) فى رسم الأشخاص وفى كسب المال وفى الفروسية ، وحقق الرجل برنامجا وكان الرجل ، وهو جوتفريد فون نلار ، آنذاك فى الثامنة والعشرين ، وعينه شارل الثانى « مصور البلاط » واحتفظ نلار بهذا المنصب فى عهد جيمس الثانى ووليم الثالث الذى منحه لقب فارس ، ورسم سير جودفرى لوحات لثلاثة وأربعين من أعضاء « نادى كيت كات » ذى المسكاة السياسية البارزة (٩٣) ولعشر من النساء الخطيرات المغويات فى بلاط وليم (٩٤) . وغطى على شهرة دريدن ولوك . ومثلما يتلف أى إنسان على الخلود ، حول نلار رسمه الفخم إلى مصنع ينتج بالجملة ، بهيئة لم يسبق لها مثيل من المساعدين ، يتخصص كل منهم فى شىء معين : الأيدي ، الثياب الأشرطة والخطوط الملونة . وفى بعض الأحيان جالس أمامه أربعة عشر شخصا فى يوم واحد . وشيد قصر فى الريف ، وتنقل بينه وبين بيته فى المدينة فى عربة تجرها ستة جياد . واحتفظ بحياته فى كل التقلبات السياسية . وفاضت روحه وهو فى فراشه معززا مكرما فى سن السابعة والسبعين (١٧٢٣) وفى تلك السنة ولد رينولدز ، وكان هوجارت فى السادسة والعشرين من العمر ، وبدأ الرسم الوطنى يترعرع ويشق طريقه .

وقضى البيوريتانيون تقريبا على الفن ، ولكنهم لم يخرسوا الموسيقى . ولم يخل من الآلات الموسيقية إلا أحقر البيوت ، ولحظ بيز وجـود العذراويه (آلة تشبه البيان الصغير بدون قوائم) فى كل قارب من ثلاثة من القوارب التى تحمل البضائع المنقذة فى التيمز أثناء الحريق (٩٥) ، وكتب يقول : « لا بد أن أفسح المجال للموسيقى والنساء مهما كنت مشغولا » .

وكان يورد ذكر صفاته ومزهره وعوده وفيثارتته . قدوما يذكر
أسلحته (٩٦) وكل إنسان ورد ذكره في مذكراته ، كان يعزف ويغنى .
وكان من القضايا المسلم بها عنده أن أصدقاءه كان في مقدورهم أن يشاركوا
في الغناء (٩٧) ، وأنه هو وزوجته وخادماهما كانوا يغنون في حديقته
غناء متناغما ، بشكل مقبول إلى حد أن جيرانهم كانوا يفتحون النوافذ
ليستمعوا إليهم .

وفي الابتهاج بعودة الملكية صدحت الموسيقى من كل شكل ولون .
واستقدم شارل الموسيقيين من فرنسا ، وسرعان ما جعل الناس يدركون
أنه كان يحبذ الألحان الرخيمة المبهجة الواضحة التي لا تحسب الرياضيات
تناسقا أو تناغما . ووضعت آلات الأرغن من جديد ولعلمت في الكنائس
الرسمية . وكان الأرغن الذي صمم لكنيسة سانت جورج في وندسور ،
وللسكاتدرائية في أكستر ، من بين عجائب الدنيا التي أحدثت دويا في ذاك
العصر . ولكن حتى في جماعه المنشدين في الكنيسة حل محل الوقار والرهبة ،
عروض مسرحية من فناني والآلات المنشدين المنفردين . وأمر شارل الثاني
وجيمس الثاني بإعداد الموسيقى للشعر الغنائي وحلقات الرقص التي تقام
إحتفالا بالمناسبات الملكية . واستخدمت الكنائس الموسيقى لقاء أجر ،
وجازفت المسارح بالأوبرا ، وبدأ الملحنون والعاظفون الأبحايز يرتزفون
من جديد .

وفي ١٦٥٦ أقنع سير وايم دافنات حكومه الحماية لترخص له في إعادة
افتتاح مسرح ، على أساس أنه سيخرج أوبرا ، لاروايه وفي « حفلة
الأيام الأولى » التي مثلها لم يسكن هناك أوبرا بقدر ما كان هناك سلسلة
من الحوارات سبقتها وتخللتها وأعقبها الموسيقى . ولكن في العام نفسه
عرض دافنات في مسرحه الخاص « رتلندهاوس » أول أوبرا إنجاييزيه
« حصار رودس » (٩٨) ، ولكن إغلاق المسارح بسبب الطاعون والحريق ،
عوق هذه التجارب . على أنه في ١٦٦٧ عرض دافنات المغامر ، في صورة

صوره موسيقية معدلة « العاصفة » التي زعم أنها من عمل أبيه . وحددت أوبرا بورسل « ديدو وإينياس » بداية الأوبرا الكاملة في إنجلترا .

وكما هو الحال غالباً في تاريخ الموسيقى ، فإن عبقرية هنري بورسل كانت في معظمها نتاج وراثية اجتماعية — أي بيئة سن المراهقة . فكان أبوه رئيس المرتلين في وستمنستر ، وكان عمه يشغل وظيفة « ملحن القيثارات لصاحب الجلالة » . وكان أخوه ملحناً وكاتباً مسرحياً . وتابع ابنه وحفيده عمله في العزف على الأرغن في الكنيسة . أما هو فلم يمتد به الأجل لأكثر من سبعة وثلاثين عاماً (١٦٥٨ — ١٦٩٥) ، وتولى الترتيل في الكنيسة الملكية وهو لا يزال صبياً ، حتى ضعف صوته . وألف في شبابه ترانيم دينية ظلت تسمع في الكاندراتيات الإنجليزية على مدى قرن من الزمان ؛ وألحانه الإثني عشر من نوع السوناتة (١٦٨٣) لقيثارتين أو لأرغن وبيان قيثارى ، هي التي جلبت شكل السوناتة من إيطاليا إلى إنجلترا ، ويقول بيرنى أن أغانيه وترانيمه والكانتات (قصه تنشدتها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل) وموسيقى الفرقة التي ألفها « فاقت إلى حد بعيد كل ما أنتجته أو استوردته بلادنا من قبل ، إلى حد يبدو معه أن سائر الألحان الموسيقية جاءت بالاحتقار أو لاذت بزوايا النسيان (٩١) .

ولما كان بورسل منهمكاً في عمله ، عازفاً على الأرغن وملكناً ، فإنه لم يتيسر له أن يخرج « ديدو وإينياس »^(٩٢) قبل ١٦٨٩ ، لنخبة مختارة من المتفرجين ، في إحدى مدارس البنات في لندن . وتبدو الموسيقى لنا الآن ، حتى الاستهلال المشهور ، هزيلة نحيلة ، ولكن يجب أن نتذكر أن الأوبرا كانت آنذاك في المهد ، وأن جمهور المستمعين آنذاك لم يولع بالضوضاء والصخب مثلنا اليوم . أما اللحن الأخير — عويل ديدو ونواحها : « عندما

(٩) في الأساطير الرومانية — ديدو أميرة صور إلى أسست قرطاج وأصبحت ملكة عليها ، وتقول انيادة فرجيل ، أنها رحبت بإينياس حين قدم إلى قرطاج بعد سقوط ترواده ، ووقعت في شراك غرامه ، ثم قتلت نفسها حين فادرها .

أتوسد الثرى » فإنه من أكثر ما يهز المشاعر ويؤثر في النفوس ، من
الحنان في تاريخ الأوبرا بأسره .

أما « الملك آرثر » (١٦٩١) التي كتب كلماتها دريسدن ووضع
موسيقاها بورسل ، فليست أوبرا بالمعنى الكامل ، حيث يبدو أن الموسيقى
لم تكن مرتبطة إلا ارتباطاً يسيراً بحج الرواية أو أحداثها ، مثلما أن
الرواية لم يكن لها صلة وثيقة بعصر آرثر كما نراه في مالورى وتينسون .
وبعد ذلك بعام واحد ، أحرز بورسل تقدماً أكثر في موسيقى ثانويه
لرواية « فيرى كوين : الملكة الجنية » ، وتكييف مجهول الاسم « الحلم
ليه منتصف الصيف » . ولم يمتد به الأجل ليشهد إخراجاً ، وضاعت
الألحان ، ولم تسكتشف إلا في ١٩٠١ وهي الآن تعد من أحسن ما
أنتج بورسل .

وفي ١٦٩٣ وضع أكثر قصائده الغنائية الكثيرة ، أحكاماً واتقاناً ،
في الاحتفال بيوم سانت سيسيليا . ولكن أرق هذه القصائد هي « تسبيحة
الشكر والابتهاج » المرححة ١٦٩٤ . وكانت تعزف سنوياً في الإحتفال « بأبناء
رجال الكنيسة » حتى ١٧١٣ ، حتى اشتركت في هذا الشرف مع مقطوعة
هاندل « تسبيحة الشكر من أوترخت » ، فكانتا تعزفان بالتبادل سنوياً
حتى ١٧٤٣ . ومن أجل جنازة الملكة ماري ١٦٩٥ ، ألف بورسل ترتيلة
مشهورة « ياربنا : أنت أعلم بخفايا قلوبنا » . وفي سنواته الأخيرة
اسهم في الموسيقى الثانويه لرواية دريسدن « الملكة الهندية » ومن الواضح
أنه مرض قبل أن يتمها لأن موسيقى الخاتمة وضعها أخوه دانييل ، وحانت
منيته ، ربما بسبب السل ، في ٢١ نوفمبر ١٦٩٥ .

وعلى الرغم مما امتلأت به فترة عودة الملكية من حيوية ونشاط ،
فإن الموسيقى الانجليزية لم تكن قد أفاقت بعد من نكستها على يد
البيوريتانيين بعد عهد اليزابث . وبدلاً من ترسيخ جذورها ثانية في القرية
الانجليزية ، حذت حذو الملك ، فأنحنت إجلالاً وإكباراً أمام الأساليب

الفرنسية والآلات الايطالية . وبعد أوبرا « ديدو واينياس » ، غزت الأوبرا الايطالية مسرح الأوبرا الانجليزي ، يقدمها مغنون ايطاليون . كتب بورسل في ١٦٩٠ « ان للموسيقى الانجليزية لم تبلغ بعد سن الرشد إنها طفل تواق طموح يبشر بما يمكن أن يكون عليه في المستقبل ... إذا وجد أساتذته مزبدا من التشجيع (١٠٠) » .

ه — الأخلاق

فلنبداً لغورنا هنا بالتفريق بين عامة الشعب وأبناء الطبقات العليا ، فالاستهتار الجنسي الذي ساد فترة عودة الملكية ، سرى عن طريق الحاشية إلى الطبقة الوسطى العليا وسكان المدن وما حولها الذين ترددوا على المسارح وربما كانت أخلاق العامة للمغمورين أفضل منها في عصر الزابات ، لأن النظام الاقتصادي أبقاهم على اعتدالهم وبعدهم عن السرف ، فلم يكونوا يملكون الوسائل التي يتردون بها في مهاوى الرذيلة والشر ، وظلوا يحسون بوازع من عقائدهم البيوريتانية . ولكن في لندن ، وبوجه أخص ، في الحاشية للملكية ، فإن التحلل من القيود البيوريتانية ورد الفعل الناتج عن ذلك ، أديا إلى اتصال جنسى غير مشروع ومرح صاحب غير برى . أما الشباب الارستقراطي الذي اقتلع من أرض الوطن وأطلق لنفسه العنان في فرنسا ، فقد ترك أخلاقه ورائه في المنفى ، وأنى معه لدى عودته بضروب من القوضى الموسومة بالرشاقة والظرف ، وانتقاما منهم للسنوات التي عانوا فيها عننت الظلم والحرمان والسلب والنهب ، شنوا بكل ما أتوا من قوة وذكاء ، الحرب على زى البيوريتانيين وحديثهم ولا هوتهم ومبادئ الأخلاق عندهم ، إلى حد لم يجروء معه واحد من أبناء طبقتهم أن ينسب بهنت شقة من أجل الحشمة والوقار . وباتت الفضيلة والتقوى والأمانة الزوجية كلها ألوانا من البراءة أو السذاجة الريفية وأصبح الزانى الذي يوفق كل التوفيق في هذه الرذيلة ، هو بطل عصره وفريد زمانه ، (كما هو الحال في رواية وتشريلى : الزوجة الريفية) والواقع أن الديانة فقدت مسكاتها

واعتبارها بين الناس ، ولم يبق لها شيء من هذا إلا عند الحرفيين والفلاحين . وصار الوعاظ موضع الإحتقار والازدراء على أنهم منافقون كثيرون أغبياء منزعجون يملون ثقال الظل . وأصبحت الديانة الوحيدة الصالحة للسيد المأجد هي الأنجليكانية المهدبة التي يحضر فيها المولى (رب العمل أو مالك الأرض) صلاة الأحد لتدعيم مركز القسيس الذي يزرع الخوف من نار الجحيم في نفوس القرويين ، ويسبح بالحمد والشكر ، في إيجاز مناسب ، من جانب المنصة التي يجلس إليها المولى أو سيد القرية . وأصبح أقرب إلى طابع العصر أن يكون المرء ماديا على مذهب هوبز ، لامسيحيًا مثل ملتون ، اللاحق المعجوز الأسمى الذي نظر إلى سفر التكوين على أنه تاريخ ، وفقدت نار الجحيم التي بولغ فيها في العشرين سنة الماضية ، رهبتها وهيبتها لدى طبقات المالكين . أما الجنة في رأيهم ، فهي ماثله دوما في مجتمع متحرر من الثورة الإجتماعية والسكبت الخلقى في ظل حاشية وملك ضربا المثل وتقدما الركب في الفسق والفجور والليسر واللهو والعبث .

وكان نعمة عدة رجال أفاضل ونساء فضليات بين أفراد البلاط الملكي ، وكان كلارندن مثلاً رجلاً ذا مبادئ وسلوك فويم حتى سارت ابنته في طريق الغواية فاهتاج وفقد صوابه ، وأوصى بقتلها وتحلى أول سوثمبتون الرابع ودوق أورمند الأول بالحشمة والوقار ، وكان بين رجال الدين الأنجليكانيين نفر من المخلصين الأتقياء ، حتى من الأساقفة أو ذوى المراتب الكنيسة العالية . وصدقت عزيمة الملكة وليدى فالشو والأنسة هملتون ، أو السيدة جودولفين فيما بعد ، في التمسك بأهداب الفضيلة . وبقينا كان هناك أفراد غير هؤلاء وهؤلاء ، ضاعت ذكراهم في ثنايا التاريخ لأن الفضيلة لا تعان عن نفسها .

وكلما علت المسكنة أنحطت الأخلاق . فهناك جيمس ، دوق يورك ، شقيق الملك ، الذي يبدو أنه بزم الملك في حصته من الخليلات العشيقات (١٠١) . وبينما هو في المنفى تسال إلى مخدع آن هايد ابنة قاضى القضاء ، فلما حملت

منه توسلت إليه أن يتزوجها ولكنه كان يماطل ، وأخيراً وقبل أن تضع وليدها بسبعة أسابيع (٢٢ أكتوبر ١٦٦٠) اتخذ منها زوجة شرعية سرّاً . وعندما سمع أبوها (كلارندون) نبأ هذا الزواج ، كما تروى سيرته حياته (١٠٢) احتج لدى الملك بأنه لم يعلم شيئاً عن هذا الاتفاق ، وأنه « كان يؤثر أن تكون ابنته خلية الدوق لزوجته ، وأنهما إذا كانا حقا قد تزوجا » فينبغي على الملك أن يزج بالمرأة في السجن فوراً ، وأن يصدر في الحال قرار من البرلمان بقطع رأسها ، وأنه لن يوافق على هذا القرار فحسب ، بل سيكون عن طيب خاطر أول من يقترحه . « وهز الملك كتفيه استهجاناً للموضوع على أنه هراء لا غناء فيه ، وكأنه يسمع جمجمة ولا يرى طحنا ، وربما أدرك قاضي القضاة أن الملك لن يلزمه بكلمته . وتحدث في صرامة وتجهّم ، على الطريقة الرومانية ، ليموض صمّا ثار من ريبه في أنه رتب أمر الزواج من قبل ، ليجعل من ابنته ملكة على أن ابنته آن ماتت بالسرطان في ٢٦٧١ ، في سن الرابعة والثلاثين .

واتخذ جيمس ، بينما كانت زوجته (آن) تعاني مشا كل الأمومه ، من أرابللا تشرشل عشيقته له ، وهي التي إرتضى أخوها هذا الوضع حتى يحظى بالترقى في مناصب الجيش . ورغبة في معاونة آن وأرابللا والتخفيف عنهما اتخذ الدوق بضع خليات أخريات لمضايجته واستاء إيفلين بصفه خاصه من من سلوكه الشائن مع ليدى دنهام (١٦٦٦) (١٠٣) . ولم يغير تحول جيمس إلى الكاثوليكية من خلقه شيئاً . فكان كما كتب بيرنت « دائماً التنقل من غرام إلى غرام دون أن يحسن الاختيار ، حتى قال الملك يوماً أنه يعتقد أن القساوسة هم الذين يقدمون له المشيقات عقوبة يكفر بها عن ذنوبه » (١٠٤) . ودامت علاقته بأرابللا نعمة عذبة من الأرغن ، وسط هذا التنقل بين مطارح الهوى ، وبقيت بعد موت آن ، وبعد زواج جيمس (١٦٧٣) من ماري مودينا .

وينبغي علينا أن نضيف إلى ما ذكرنا ، أن دوق يورك نفسه كان يتعلى بمناقب تدعو إلى الإعجاب ، فإنه — وهو أمير البحر

(١٦٦٠ — ١٦٧٣) ، بذل أقصى الجهد في التغلب على سوء النظام والفساد في البحرية ، نتيجة لضآلة الأجور والمؤن التي تصرف لرجال البحر وتدريبهم الهزيل ، وأبدى مهارة وشجاعة في اشتباكات مع الهولنديين . وانهض بمهام الإدارة في مقدرة وإخلاص . ولم تشب أية شائبة قط إخلاصه العميق لأخيه الملك ، بل انتظر صابرا طيلة ربع قرن من الزمان قبل أن يخلعه على العرش . وكان صريحا مخلصا يسهل الوصول إليه ، ولكنه كان شديد السكاف بمكانته وسلطانه إلى حد لم يكن معه شعبيا ، وكان صديقا يقيم على الوعد ، وعدوا عنيدا لا يغتفر الاساءة . وكان ذا جلد على العمل الشاق ولكنه لم يكن متوقدا الذكاء . وكان يأبى النصيح والمشورة أيما إباء .

وكان يحتل المركز الثاني في البلاط ، جورج فليبردوق بكنجهام الثاني . وكان ابن محظية جيمس الأول التي لقيت حتفها ، ومن ثم قاتل إلى جانب شارل الأول في الحرب الأهلية ، ومع شارل الثاني في وورستر ، وعينه الملك الذي استرد العرش عضوا في مجلسه الخاص وكان بارما ذكيا أنيسا كريما ، ولذلك سيطر في البلاط بسحره وفتنته لبعض الوقت ، وكتب « ملهاة » رائعة . « التجربة » ، وتلهى بالكيمياء القديمة والعزف على القيثارة إلى حد ما . ولكن وجهه ورائه جلبا عليه الدمار . انه تنقل من امرأة إلى أخرى ، وانغمس في عبث مخز شائن . وبدد ضيعته الهائلة . وكان يتوق إلى الظفر بكونتيس شروزبرى ، فتحدى زوجها لمبارزته ، وتنكرت هي في زي خادم ، وأمسكت بجواد بكنجهام أثناء المباراة ، وصرع بكنجهام الكونت ، وطانقت الأرملة السعيدة الدوق المنتصر الذي كان لا يزال مضرجا بدم زوجها ، وعادا ظافرين إلى قصر الفريسة (١٠٥) . وعزل بكنجهام عن منصبه (١٦٧٤) ، وانصرف إلى اللهو والعبث ، ومات فقيرا معدما مجلله الخزي والعار .

وكان ينافس بكنجهام في المسكاة والذكاء والقصف والعربة والانحلال

جون ولموت أرل روشستر الثانى ، حصل جون على درجة الاستاذية من أكسفورد فى سن الرابعة عشرة (١٦٦١) وهو أمر لا يصدق ، والتحق بالبلاط فى السابعة عشرة ، وأصبح المشرف على حجرة الملك ، وكان فى حاجه إلى المال وهو فى سن التاسعة عشرة ، فتودد إلى وريثه ثرية تباطأت فى تحقيق بغيته ، فاختطفها ، ومن أجل ذلك زج به فى السجن ، فرق قلبها له ، ثم حظى بالزواج منها ، ثم بثروتها ، وكم من مرة أبعد شارل عن الحاشية وأطاده إليها ، مستسيغا فطنته وذكاءه . وكان روشستر - مثل بكنجهام - خبيرا فى التقليد والمحاكاة ، وكان يسر بالتنكر فى زى جمال أو متسول أو تاجر أو طبيب ألماني ، وكان يوفق فى هذا التمثيل والمحاكاة إلى حد ضلل أو خدع معه أوثق أصدقائه صلة به . وزعم بوصفه طبيبا أنه يبرىء من الأدواء المستعصية عن طريق علمه بالتنجيم . وجذب إليه مئات من المرضى ، وشفى عددا منهم ، وسرطان ما قصدت إليه سيدات البلاط لعلاجهن . وعجز أولئك الذين عرفوه حق المعرفة ، عن التعرف عليه (١٠٦) وفى كل هذه التنكرات تقريبا كان يطارد السيدات ، دون أى اعتبار لمكانتهن . وكن هن يتعقبنه كذلك . وتسلى جون بكتابة قطع من الهجاء البذىء الداعر . وقضى على حياته بالخر والفجور . وكان يفخر بأنه كان ثملا تخمورا لمدة خمس سنوات بلا انقطاع - ومات فقيرا نادما فى سن الثالثة والثلاثين .

وكان فى الحاشية رجال كثيرون من أمثال ولموت ، حتى أن يبهر نفسه ، وهو غيرهاو الزنى تسائل : « ماذا ستكون نهاية كل هذا الشراب وهذا السباب وهذه العلاقات الغرامية الفاجرة (١٠٧) » وعبر بوب عن هذه الحالة فى « بحث فى النقد » ، واسكنه لم ينصف الملك كل الإنصاف ، فهو يقول :

« إذا كانت المهمة الهيمنة للملك هى العشق والغرام ، فقلما نراه فى مجلس الحكم ، ولا نراه أبدا فى ساحة الوغى ، فان الدولة يحكمها النساء الحائشات بالعهد اللأئى يتنقلن من حب إلى حب ، أما رجال الدولة والسياسة فيكتبون للمرحيات الهزلية الساخرة ولا يستفاد بذوى اللواهب ،

والقوربات الشبان اليافعون خلو من الذكاء والفطنة ، ولم تعد للروحة المتواضعة المحتشمة ترفع ، وعلت الابتسامية وجوه العذارى لما كانت وجناتهن تبحر له حياء وخجلا من قبل (١٠٨) .

وكان من الأمور للسلم بها أن الزوجات — مثل الأزواج — تموزهن الأمانة والاخلاص ، فان الرجال لم يشغلبن الأمانة والإخلاص إلا في عشيقاتهم (١٠٩) . إن مذكرات كونت فيليبرت دى جرامونت التى دونها بالفرنسية أخوزوجته ، أنطونى هملتون ، كانت ، أحيانا ، عبارة عن قائمة بالمغرورين المختالين ، أو سلسلة من الديوثين الذين لا يغارون على زوجاتهم وهم يعلمون انهن يأتين الفاحشة ، كما رآهم الكونت فى منقاه السعيد فى بلاط شارل الثانى .

وكم كانت الساعات تقضى وتخصص للرقص وسباق الخيل وصراع الديكة ولعب البليارد والورق والشطرنج ، والألعاب الأرضية والحفلات التنكرية المرحية ، ثم كما يقول بيرنت « يطوف الملك وللمسكة وكل أفراد البلاط ، وهم جميعا متنكرون ، بالبيوت غير المعروفة ، حيث يرقصون ويعبثون ويلهون فى صخب فاجر (١١٠) » وكانت المراهنات على مبالغ طائلة . يقول ايفلين « فى هذه الليلة ، افتتح جلالة الملك الحلبة ، كما هى العادة ، فألقى « الزهر » بنفسه فى القاعة الخاصة ، . . . وخمس مائة جنيه . (وكان قد كسب فى العام الماضى ١٥٠٠ جنيه) . وأقبل السيدات كذلك على اللعب اقبالا شديدا (١١١) » وحذت الطبقات العليا حذو الحاشية فى القمار والدطارة . وتحدث ايفلين عن شباب انجلترا الفاسق الفاجر الذى فاقت إلى حد كبير دطارته للذهله ، حماقات سائر الأمم المتحضرة مهما كانت (١١٢) . وانتشر اللواط ، وبخاصة فى الجيش . وكتب روشستر رواية عنوانها « سودومى » (نسبة إلى سودوم قرية قوم لوط) مثلت أمام الحاشية . والظاهر أنه كان فى انجلترا عدد من المواخير لهذا الاختلاط الجندى الشاذ (١١٣) .

وكان عدد الزوجات القائمة على الحب يتزايد . وهناك أمثلة رائعة ، منها زواج دوروتى أوزبورن من وليم تمبل ، الذى ثبت أنه زواج سعيد ، ولو أن دوروتى كتبت تقول . « ليس الزواج القائم على الحب تصرفا محييا ملوما ، إذا كنا لم نر من بين ألف من الزوجين الحبيين الذين يقدمون عليه ، زواجا واحدا يمكن أن يتخذ مثلا على أنه يمكن اتمامه دون ندم عليه فى المستقبل » (١١٤) . وكتب سوينف إلى سيدة شابة فى موضوع زواجها فتحدث عن الشخص الذى اختاره أبواها ليكون زوجها . وأضاف « أن زواجك كان قائما على الحكمة والحصافة والتدبر والشعور الطيب للتبادل ، خاليا من عوائق الانفعال السخيف فى الحب الرومانتيك (١١٥) » . ويذكر كلارندون : « إن رغبتى الأولى فى الزواج لم تتعلق إلا بضيفة ملائمة مريحه (١١٦) » .

ومن الناحية النظرية كان للزوج كل السيطرة على زوجته ، كما يتحكم حتى فى الصداق الذى أتت به إليه . وفى كل الطبقات كانت مشيئة الزوج قانونا . وفى الطبقات الدنيا استعمل الزوج حقوقه المشروعة فى ضرب زوجته ، ولكن القانون حرم عليه استعمال عصا بمجاوز سمكها سمك ابهامه (١١٧) . وكان انضباط الأسرة أو نظامها قويا ، اللهم إلا فى الطبقات العليا فى لندن ، حيث شك كلارندون من أن الوالدين ليس لهما أى سلطان على الأبناء ، كما أن هؤلاء لا يذعنون للأباء ولا يطيعونهم . بل « إن كل انسان يتصرف كما يحلوه » (١١٨) . وكان الطلاق نادرا ، ولكن يمكن اجازته بقرار من البرلمان . ورأى الأسقف بيرت — مثل لوثر وماتون — أنه يمكن السماح بتعدد الزوجات فى حالات معينة ، وعرض هذه الفكرة على شارل الثانى ، بسبب عقم الملكة ، ولكن الملك رفضها ، فحاشيا للتمادى فى اذلال زوجته (١١٩) .

وهددت الجريمة الأرواح والممتلكات بشكل مستمر . وكان اللصوص والنشالون يتجمعون فى عصابات ويسطون فى جنح الليل . وكانت المبارزة

عحرمة بحكم القانون ، ولكنها بقيت امتيازاً للسادة الأماجد ، فإذا صرع مبارز غريمه وفقاً للقواعد ، نجا المنتصر مادة بسجن قصير مريح . وسمى القانون جاهداً ليكافح الجريمة عن طريق ما يبدو الآن عقوبات وحشية . ولكن ربما كانت الاجراءات الصارمة لازمة لغزو العقول المتحجرة أو المتبلدة . وكان التعذيب والموت عقوبة الخيانة العظمى . وكان الشنق عقوبة القتل أو الجناية أو تزيف العملة . وكانت الزوجة التي تقتل زوجها تحرق حية . أما السرقات الخفيفة فكانت عقوبتها الجلد ، أو قطع احدى الأذنين ، وضرب أى فرد من حاشية الملك يعاقب بقطع اليد اليمنى . أما التزوير والخداع وغش الموازين والمقاييس فكانت عقوبتها التعذيب فى المشهرة ، أحياناً مع دق الأذنين كليهما بالمسامير فى آلة التعذيب ، أو ثقب اللسان بقضيب من الحديد المحمى (١٢٠) . وكان الناس عادة يستمتعون بمشاهدة مثل هذه العقوبات (١٢١) ، ويحتشدون ، وكانهم فى يوم عطلة ، ليشهدوا سجيناً على حبل المشنقة . وضمت السجون فى عهد الملك السعيد عشرة آلاف سجين من أجل الديون ، وكانت السجون قذرة ، ولكن كان من الممكن أن يقدم الحراس بعض التيسرات مقابل رشوة . كانت العقوبات أشد صرامة وقسوة منها فى فرنسا المعاصرة ، ولكن القانون كان أكثر تحرراً . ولم تكن فى إنجلترا « أوامر مختومة » (لا لقاء أى شخص فى السجن دون محاكمة) ، بل كان فيها نظام التحقيق فى قانونية الاعتقال . إلى جانب نظام المحلفين .

وشاركت الأخلاقيات الاجتماعية فى الانحلال العام . وتزايدت أهمال البر . ولكن ربما كان الواحد والأربعون ملجأ فى إنجلترا مجرد وجه آخر لجشع الأقوياء ، وكان كل فرد تقريباً يعمد إلى الغش أثناء لعب الورق (١٢٢) ودب الفساد فى كل الطبقات بمعدل أكبر من المستوى العادى . ومن مذكرات بيبز نفوح رائحة الفساد فى مختلف الأهمال ، فى السياسة وفى البحرية وفى بيبز نفسه . من ذلك أن المؤسسات والمصانع زادت فى أسهمها دون زيادة مقابلة فى رأس المال ، وزورت فى حساباتها ، وتقاضت من

الحكومة أنمانا فادحة (١٢٣) . وكانت الاعتمادات التي يقرها البرلمان للجيش أو الأسطول يتحول جزء منها إلى جيوب الموظفين ورجال البلاط . وباع موظفي الدولة — حتى ولو كانت رواتبهم كافية تدفع بانتظام — الألقاب والمقود والبراءات والتعيينات وأوامر العفو ، إلى حد « بات معه الراتب الأصلي يشكل الجزء الأصغر مما يدخل إلى جيوبهم » (١٢٤) . وأثرى كبار رجال الحكومة مثل كلارندون ودانبي وسندرلند — أثروا في سنوات قليلة واشتروا أو بنوا ضياعا لا تتناسب قط مع رواتبهم . وباع أعضاء البرلمان أصواتهم للوزراء ، بل حتى للحكومات الأجنبية (١٢٥) وفي القرارات اقتزع مائتا عضو من صفوف المعارضة ، نتيجة لأن الوزراء اشتروا أصواتهم (١٢٦) . وفي ١٦٧٥ قدر أن ثلثي أعضاء مجلس العموم كانوا مأجورين من قبل شارل الثاني ، والثلث الباقي من قبل لويس الرابع عشر (١٢٧) حيث وجد الماهل الفرنسي أنه من الميسور أن يرشوا الأعضاء ليصوتوا ضد شارل إذا حاد بشكل مزعج عن سياسة البوربون . أما شارل نفسه فحكم من مرة تسلم أموالا طائلة من لويس ، حتى يلتزم الدوران في فلك فرنسا في السياسة أو الديانة أو الحرب ، وهكذا كان المجتمع الانجليزي أكثر المجتمعات استهتارا وفسادا في التاريخ .

٦ — العادات

حاولت العادات أو أساليب الحياة هنا أن تعوض عن النقص في الآداب — كما في فرنسا — ، وأن تضيئ كياسة متكلفة على الملابس المزركشة الآلية والآداب الفاجر ، والحديث الدنس . وكان شارل نفسه مثالا لأسلوب الحياة وتسرب إلى الطبقات العليا ما يجمل به الملك من ظرف ولطف ومجاملة وسحر وفطنة ، وترك كل أولئك بصماته على الحياة في إنجلترا . فتبادل الرجال القبلات عند اللقاء . وقبلوا يد المرأة إذا قدموا إليها . وفي لندن — كما كان في باريس — استقبلت السيدات الرجال في الفراش ، فكان هناك ضراحة

منعشة واحتقار للنفاق في الأدب وفي المسرح وفي البلاط . ولكن العمراة أطلقت فيضاً من الخشونة على المسرح وفي الحديث اليومي . وكانت البذاءة في انجلترا بغير مثال . وفي هذا كان شارل من بين الشواذ الخارجين على القاعدة ؛ حيث كان لا يتجاوز في السباب « عبارة المفضلة Odds Fish » وكان البيوريتانيول الباكون ينأون بأنفسهم عن فحش القول إلا إذا هاجوا خصومهم وسخروا منهم . أما السكويكرز فامتنعوا عن الحلف

وبز الرجال النساء في الأزياء الغربية ، من الشعر للمستعار المضمخ بالمساحيق لأجل التبرج ، إلى الجوارب الحريرية والأحذية ذات « الابرزيم » وكان الشعر المستعار بدعه أخرى مستوردة من فرنسا . وكان الفرسان والمختالون وغيرهم ، بمن كان شعرهم قصيراً ، أو بمن يخافون أن يخطئهم الناس على أنهم من البيوريتانيين ذوى الرؤوس المستديرة الذى كانوا يقصون شعورهم قصاً قصيراً جداً ، تقول ان هؤلاء وهؤلاء كانوا يغطون قصر شعرهم بشعور أجنبية مستعارة . أما الرجال الذين أبيض شعرهم أو مال إلى الشيب فقد وجدوا في الشعر المستعار وسيلة ناجحة لإخفاء أعمارهم . وكان كل الرجال تقريباً يملقون الالحى آنذاك . وكان هذا الشعر المستعار يصلح من شأن بشرة الملك الأسبانية وأنه الضخم . وجعل يبرز من أول شعر مستعار وضعه مسألة خطيرة ، ورتى لشعره المحبب إليه كان لزاماً أن يقص لينفسح الطريق « للباروكة — الشعر المستعار » ويزود بالشعر رأس إنسان آخر (١٢٨) ، وكان لزاماً أن يتم تنظيف شعره المستعار من القمل في أوقات منتظمة (١٢٩) — واختفى الآن طوق الرقبة المسكشكش المتييس الذى كان سائداً في عهد الزابث وجيمس الأول . كما اختفت السترة الضيقة والعباءة الطويلة ليحل محلها الصدرية والمعطف . ووصلت الصدرية على أية حال إلى ربلة الساق . وكانت تشد إلى الجسم بحزام . وتوقفت « بنطلونات » الركوب عند الركبتين . وتدلّت السيوف إلى جوانب الأرستقراطيين أو الأغنياء . وساعد الخملات والخمرات والأشربة والأكواب وكشكشة الثياب

على استكمال الظرف والكياسة ، وربما استخدم الناس لتدفئة اليدين في الشتاء ، « الموقه » وهي غطاء أنبوبي طويل مكسو بالفراء ، يعلق في العنق .

أما نساء الطبقات العليا الأنيقات (طبقا لآخر طراز) فكان يضمخن شعورهن بالمساحيق والمطور ، ويمشطنها في خصلات فوق جباهن ، وزدن عليهن خصلات مستعمارة مرفوعة على أسلاك خفية ، وكسون قبعاتهن بالريش النادر ، ووضعن على خدودهن أو جباهن أو أذقانهن « لصوقات تجميلية » (و هي قطع صغيرة جداً من حرير أسود يلصقها النساء كوسيلة لاختفاء العيوب أو للتبرج) ، زيادة في إغراء الرجال بمطاردتهن . وكشفن عن أكتافهن وعن أجزاء كبيرة من نهودهن ، وهكذا جلست لويز دي كيرووال أمام الرسام لى ليصورها وأحسد نهديها طار تماماً ، وبزتها نل جوين في ذلك . وكانت النساء تحجبن سيقانهن بشكل مفر ، وتزايد الطلب على أدوات التجميل الأنيقة . فكانت المرأة بالفعل شيئاً معقداً استخدم الإنسان كل براعته في تشكيكه وصنعه ، حتى صورتها إحدى الروايات في فترة عودة الملكية ، في شيء من المغالاة والإغراق في الوصف .

« صنعت أسنانها عند ناظم اللالي » (في بلاك فرايرز) ، وحواجبها من خيوط أو أسلاك مجدولة (في استراند) ، وشمرها في شارع « الفضة » ، فإذا آوت إلى الفراش نزعت عن نفسها كل ما عليها لتضعه في عشرين صندوقاً . حتى إذا نهضت من نومها ظهر اليوم التالي ، ركبت كل شيء في مكانه على جسمها من جديد . وكأنها ساعة حائط ألمانية ضخمة (١٣٠) .

وكان التبذير واجباً حتمياً ، لقد أصبحت الحياة مظهرية متكلفة من جديد ، ومن ثم اقتضت تجهيزات معقدة مفضلة . وكان لزاماً استئجار عدد كبير من الخدم . فكان منهم لدى والد إيفلين نحو خمسين وكان لدى إيفز طبّاخ ومديرة المنزل ووصيفة وخدمة . وكانت وجبات الطعام مرفوعة

ضخمة . أنظر إلى غداء بيبر في ٢٦ يناير ١٦٦٠ قبل أيام الطيش والفرارة
بزمن طويل :

« أعدت زوجتي غداء شهيا جدا : أعنى طبقا من « عظام النخاع » ،
ونخذا من الضأن ، وقطعة من لحم العجل ، وصحنا من الطيور ، وثلاث
دجاجات ، واثني عشر زوجا من القنبر على طبق واحد ، وكعكة ضخمة
محمشة بالمربي والفاكهة المطبوخة (تورتة) ، ولسان بقر ، وطبقا من
السبك الصغير « الأنشوجة » ، وطبقا من القريدس (الجبرى) والجن .

وكانوا يتناولون الوجبة الرئيسية في الساعة الواحدة . وكان للطبخ
إنجليزيا . وعندما أوضح شارل الثانى لجرامونت أن الخدم كانوا يقدمون
الطعام للملك ، وهم ركوع ، رمزا للاحترام والإجلال ، قال جرامونت
(أروى أنه قال) : « أشكر لجلالتكم هذا الإيضاح ، فقد ذهب تفكيرى
إلى أنهم إنما كانوا يلتزمون للمغفرة لتقديم طعاما رديئا (١٣١) » .

ولم يكن تناول للمشروبات الروحية مجرد مظهر اجتماعى . فقلما كان
الناس ، حتى الأطفال ، يشربون الماء (١٣٢) ، وكانت « البيرة » أيسر منالا
من الماء الصالح للشرب . ومن ثم تناول كل الناس من مختلف الأسنان ،
البيرة ، وأضاف الموسرون إليها الويسكى أو استوردوا النبيذ . وتردد معظم
الناس على الحانات مرة واحدة في اليوم ، وتناول كل الأفراد من جميع
الطبقات الخمر من حين إلى حين .

ودخل البن من تركيا حوالى ١٦٥٠ . وحتى ١٧٠٠ كان معظم البن
يستورد من إقليم مخا فى اليمن . وفى القرن الثامن عشر نقل الهولنديون
زراعته إلى جاوة والبرتغاليون إلى سيلان والبرازيل ، والإنجليز إلى جايبكا .
وساعد استخدام القهوة فى التغلب على الخمول والكسل وفى شحذ الذهن ،
على انتشارها وإقبال الناس عليها . وافتتحت لندن أول مقهى فيها فى ١٦٥٢ ،
وما وافى عام ١٧٠٠ حتى كان بها ٣٠٠٠ مقهى (١٣٢) واتخذ كل فرد مهما
كانت مكانته ، أحد المقاهى محلا مختارا لمقابلاته بانتظام ، حيث يلتقى بأصدقائه

ويستمع إلى آخر الآباء والمخازي . وحاول شارل الثاني أزمحمد من انتشار المقاهي ومن نشاطها باعتبارها مراكز لإهاجة المشاعر السياسية والمؤامرات ، ولكن شهوة الحديث والشراب والاستمتاع برائحة التبغ أحبطت مساعيه . ومن بعض المقاهي نشأت الأندية التي لعبت دورا في سياسة القرن الثامن عشر ، ثم أصبحت آنذاك ملاذاً ومهرباً من أحادية الزواج ، واختلفت المقاهي عن الأندية التي ظهرت متأخرة عنها ، لا لجرد أن القهوة كانت هي المشروب المفضل فيها ، بل لأن الحديث كان يلقي تشجيعاً فيها . كما أن مشاهير الأدباء مثل دريدن وأديسون وسوينف و جدوا فيها منابرهم (في المقاهي) . كما أن حرية الكلام في إنجلترا انتعشت وازدهرت هناك .

وجاء الشاي إلى إنجلترا من الصين حوالي ١٦٥٠ ، ولكنه كان غالي الثمن . إلى حد أنه لم يحل محل البن في الحياة الانجليزية إلا بعد قرن من الزمان . وحسب بيير أنه إنما كان يقوم بمغامرة حين تناول أول فنجان من الشاي (١٣٤) . وفي نفس الوقت استورد حب السكاكاو من المكسيك وأمريكا الوسطى . وحوالي ١٦٥٨ استحدث شراب جديد بإضافة « الفانيليا » والسكر إلى السكاكاو . وأصبحت « الشكولاته » الناتجة عن هذا المزيج شراباً محبوباً مألوفاً في فترة عودة الملكية ، وكان يقدم في كثير من المقاهي .

وفي تلك الآونة دخلت التبغ كل الطبقات ، بما في ذلك كثير من النساء وبعض الأولاد ، في أنابيب طويلة دوماً . وظن النساء أن لهذا التبغ بعض الفائدة في التطهير وقاية من الطاعون . وربما نشأت عن هذه الفكرة عادة « السموط » في تلك الأيام ، أي نشوق التبغ المسحوق .

والآن وقد تخلص الناس من كابوس البيوريتانية ، فتبدد ازدهرت الألعاب وأسباب التسلية واللهو . واستمتع الفقراء من جديد بمسرح العرائس وعروض السيرك وصراع الديكة ومطاردة الدببة والثيران ، وألعاب البهلوان على الحبال والمصارعة ، والسموذة والملاكمة والسحر ، والنغمس الموسرون

في الصيد بنوعيه : صيد النساء وصيد الحيوان ، وظل شارل الثاني يمارس لعبة التنس حتى بلغ الثالثة والخمسين . أما ايفلين فقد أحب لعبة البولنج على الأرض الخضراء ، التي لا تزال منظرًا محببًا إلى الانجليز حتى اليوم . وكانت لعبة الكريكت قد بدأت تكون وسيلة لقضاء وقت الفراغ في الأمة بأسرها ولأول مرة في ١٦٦١ يرد ذكر قطعة من الأرض مخصصة لهذه اللعبة ، وفي تلك السنة خططت حدائق فوكسهول على الضفة الجنوبية للتيمز ، وسرعان ما أصبحت منتجعا أنيقا على أحدث طراز . وافتتح شارل الثاني للجمهور متنزه سان جيمس . وأقيمت آنذاك حدائق هايد بارك حيث يقصد إليها في الامسيات الظرفية ، عليا القوم وعلى رأسهم الملك والمالكة . إن « المجتمع » بدأ آنذاك يستشفى في مياه باث المعدنية .

وتنقل الناس — فيما خلا أفقر الطبقات — في عربات تجرها الجياد ، التي كانت قد بدأت تؤدي خدمة بريدية منتظمة لقاء بنس في ١٦٥٧ ، ثم استخدمت لنقل الركاب في مواعيد منتظمة في ١٦٥٨ ، وكانت هذه العربات قد استخدمت لنقل السلع والتجارة داخل المدينة منذ ١٦٢٥ . وتنقل كبار الأغنياء في عربات تجرها ستة جياد . وكانوا يصطحبون ثلاث فرق من الجياد ، لا مجرد العرض وحب الظهور ، ولكن لتجبر العربة في الطريق الموحلة . وكانت الماشية المحلية في بعض الأحيان تربط أمام الجياد لتشد العربة وتسحبها من المستنقعات العميقة . لقد كانت الطرقات مغطاة بالأتربة أو الأوحال . إن الحانات والانزال على جانبي الطريق ، بالخليط المعجيب من نزلاتها من سائقي العربات والمسافرين والمحتالين والبائسين والصوص والبغايا ، كانت تهبط السبيل أمام هؤلاء جميعا للاسهام في الأدب في انجلترا وهكذا كانت تشكل انجلترا الخشنة المحببة الى النفس والمفعمة بالحياة ، التي عرفها دكنز في شبابه .

٧ — الدين والسياسة

استمر الصراع بين المذاهب الدينية ، وتجدد النزاع القديم بين الملك والبرلمان ، وسط تفتح الناس وتوافر أسباب الحياة لديهم وتكاثرهم . وأحزن الملك المبتهج أن يرى مجلس العموم ، بعدما أظهر من اذعان وامتنال في شهر العسل ، يغار من سلطة الملك وقوته ، ويقبض عنه الاعتمادات . لقد كان الملك رقيق القلب ولسكنه حازم صلب العود . فولى وجهه شطر ملك فرنسا ليحصل منه على قروض خاصة ، ووعد ، وواضح أنه رغب — في التخفيف من ويلات الكاثوليك الانجليز ، كما وعد بتأييد سياسة لويس الرابع عشر ضد الأراضي الوطیئة ، وبيع ثغر دنكرك على القنال الانجليزى لفرنسا ، وكان جنود كرومول قد استلوا عليه . والحق أن الدفاع عنه كان يكلف أمولا طائلة ، وكان شوكة في جنب فرنسا . فتخلى شارل عن دنكرك (١٦٦٢) مقابل خمسة ملايين فرنك بالاضافة الى اطانات سرية من البوربون ، استطاع بها لبعض الوقت أن يتجاهل أو ليحار كية الأرض والمال التي تمسكت في البرلمان آنذاك

ان هؤلاء الأوليجار كين ، على أية حال ، رأوا أن أموال الحكومة ينبغي أن تستخدم في شن حرب مريحة أخرى ضد الهولنديين . ان نفس المنافسة على التجارة ومصايد الأسماك التي أدت الى الحرب الهولندية الاولى من قبل في ١٦٥٢ هي التي عززت فكرة الحرب الثانية ١٦٦٤ . وقاوم شارل هذا الاتجاه الى الحرب ، لأطول مدة ممكنة ، لأنه آثر المحبة والمودة فيما ايثار . وكتب لأخته يقول : لم أر قط مثل هذه الشهوة الجامحة للحرب في الريف والحضر كليهما ، وبخاصة لدى رجال البرلمان . إنى لأجد أننى الرجل الوحيد الذى لا يريد الحرب فى مملكتى (١٦٥٠) .

لقد ساءت الأحوال . وحارب الأسطول الإنجليزى ببسالة على الرغم من سوء تغذيته وضآلة ملابسه وذخائره ، ولكنه خسر بقدر ما انتصر ،

وفي الوقت الذي حى فيه وطيس الحرب ، ترك الطاعون والحريق لندن موحشة مقفرة ، كما ترك انجلترا مفلسة ، وفي أخريات عام ١٦٦٦ فتح الهولنديون باب المنازعات لعقد الصلح وسر الملك بقرب التوصل إلى تفاهم ، فأرسل مندوبين إلى بريدا . ووثوقا منه بأن الإتفاق كان وشيكاً ، ومذ رأى أن أمواله على وشك النفاذ ، فإنه تحى جانباً من أسطوله في «مدواي» ، وسمح للبحارة بالاشتغال على السفن التجارية . فما كان من «دي روتر» إلا أن قاد أسطولا هولنديا إلى التيمز ومدواي ودمر معظم السفن الإنجليزية التي خلت من الرجال . ويقول بيير أنه في تلك الليلة «كان للملك يتناول العشاء مع ليدى كاسلين عند دوقه مونموث ، وقد شغل الجميع إلى حد الجنون باصطياد فراشه مسكينة (١٣٦) » وعندما وصلت أنباء الهجوم إلى لندن ، دعى كل رجل مفتول العضلات إلى حمل السلاح . ولكن الهولنديين كذلك رغبوا في الصلح ، لأن الفرنسيين كانوا قد أغاروا على إقليم فلاندرز . وأنهت معاهدة بريدا في ٢١ يولييه ١٦٦٧ ، الحرب الهولندية الثانية بشروط لم يرنح لها الجميع .

وأضعف هذا الإخفاق التام وتلك الكوارث التي توالى على لندن ، مركز الملك إلى حد أن بعض الإنجليز فكروا في خلعهم . وطالب البرلمان بفرض رقابة برلمانية على مصروفات الحكومة . وأذعن الملك ، لأنه كان خالي الوفاض ، ولأن خطوة أخرى قد اتخذت نحو سيادة البرلمان الذي طالب كذلك بعزل كلارندون ، لسوء معالجته للشئون الخارجية . ولم يكن شارل يكره عزله ، لأن مستشاره كان يعارض تحركه في إنجاء الدين ، وينتقد إنغماسه مع الخليلات ، ولم يكتف مجلس العموم باستقالة كلارندون ، فقدم إقتراحاً بمحاكمته بتهمة خضوعه للدليل لفرنسا . فاستمع كلارندون لنصيحة الملك ، ولاذ بالفرار إلى القارة . وكانت خاتمة محزنة قاسية لرجل حفل سجل حياته بالخدمات . وكرم الشيخ الهرم منفاه بتدوين أجمل مؤلف تاريخي أخرجه الأدب الإنجليزي حتى ذاك اليوم . ووافته المنية في روان

(على السين في شمال فرنسا) في ١٦٧٤ ، وهو في الخامسة والستين .
وعين الملك شارل (١٦٦٨) خمسة رجال ليحلوا محل كلارندون :
توماس كليفورد ، إيرل آرنجتون ، ودوق بكنجهام ، ولورد آشلي (الذي
أصبح على الفور إيرل شافتسبري الأول) وإيرل لودرديل . وكوت الحروف
الأولى من أسمائهم لفظة « كابل Ci bal » التي سميت بها الوزارة الجديدة .
وكان كليفورد يعلن عن كاثوليكيته ، وكان آرنجتون ميالا إلى هذا المذهب ،
وكان بكنجهام خليعاً فاسقاً ، وكان شافتسبري متسامحاً شكاكياً ، أما لودرديل
فكان من « رجال المواثيق » السابقين ، وهو الذي فرض النظام الأسقي
بالنار والسيوف ، على مواطنيه الاسكتلنديين . واستمع شارل إلى آرائهم
أو مشوراتهم المتعارضة . ولكن تزايد ، على مر الأيام اعتياده على نفسه
والتزامه برأيه الخاص .

وكان للملك هدفان أساسيان : تجسيد الملكية المطلقة وإقامة
الكاثوليكية ورفع شأنها في إنجلترا . ونظر بعين الأمل إلى أن الذي
سيخلفه على العرش هو أخوه الكاثوليكي جيمس ، وتبادل الرسائل مع
زعيم اليسوعيين في رومه ، وأستقبل سرا مندوبا بابويا قدم إلى لندن من
بروكسل (١٣٧) . وفي يناير ١٦٦٩ أبلغ أخاه كليفورد وآرنجتون ولورد
آرندل أنه يرغب في المصالحة مع كنيسة رومه ، وفي إعادة كل الإنجليز
إلى المذهب القديم (١٣٨) . أن أخته هنريتا لم تكف يوماً عن أن تحضه على
أن يعلن للإملا في جرأة وشجاعة عن إرتداده إلى الكاثوليكية .

وفي مايو ١٦٧٠ أرسل لويس الرابع عشر هنريتا إلى إنجلترا وفي محبتها
عدد من الدبلوماسيين الداهة ، ليعاونوها على ربط شارل بسياسة فرنسية
كاثوليكية . وفي أول يونيو ١٦٧٠ وقع كليفورد وآرنولد وآرنجتون
باسم إنجلترا معاهدة دوفر السرية . ووافق ملك فرنسا على أن يدفع لشارل
١٥٠ ألف قرانك عند إعلان إرتداده إلى الكاثوليكية . وتزويده ، عند
الاقتضاء ، بستة آلاف جندي تتولى فرنسا الاتفاق عليهم ، وكان على
شارل أن يدخل الحرب إلى جانب فرنسا ضد المقاطعات المتحدة عندما يطلب

إليه ذلك . على أن يتسلم من فرنسا ٢٢٥ ألف جنيه طيلة قيام الحرب ، وكان لشارل أن يستولى على بعض الجزر الهندلندية ويحتفظ بها ، كما كان عليه أن أن يؤيد مطالب لويس الرابع عشر في أن يرث أسبانيا (١٢٩) . واما ما في خداع البرلمان والشعب في إنجلترا ، بعث شارل بدوق بكنجهام إلى باريس ليصوغ معاهدة صورية زائفة وقعت في ٢١ ديسمبر ١٦٧٠ ونشرت على الملأ ، تعهدت فيها إنجلترا بالاشتراك في الحرب ضد الهولنديين ، ولكن لم يرد ذكر العقيدة الدينية .

وتلكا شارل نحو خمسة عشر عاما في اعلان تحوله إلى الكاثوليكية . ولو أن أخاه أعلن تحوله إليها صراحة في ١٦٧٠ ، ولكن ارل أرلنجوت نفسه ، وهو الذي يؤيد الكاثوليكية ويميل إليها ، حذر الملك من اعلانه التحول إلى هذا المذهب — كما فعل أخوه — قد يعجل بقيام ثورة . ومما يسكن من أمر ، فان شارل تحرك نحو هدفه بأن أصدر في ١٥ مارس ١٦٥٢ ، اعلان التسامح الثاني ، « لدوى الضمائر الرقيقة » يوقف فيه العمل « بكل قوانين العقوبات ، أيا كانت ، في الأمور الكنسية ، ضد المنشقين أو المتمردين والمخالفين وفي الوقت نفسه أخلى سبيل كل من كانوا أو دعو السجون بسبب مخالفتهم لتشريعات البرلمان في المسائل الدينية . وبذلك أطلق سراح مئات من المنشقين ، من الكويكرز . وأرسل زعمائهما وفدا عنهم لتقديم الشكر للملك . وصعد المشيخيون والبيوريتانيون حين رأوا أن الحرية الجديدة التي منحت لهم امتد نطاقها لتشمل الكاثوليك وأنصار تجديد العهد ، كما فزع الأنجليكانيون من « أن البابويين والفرق الدينية ذوات المذاهب المختلفة » مجتمعون علنا في لندن . ولمدة عام كامل نعمت إنجلترا بالتسامح الديني أو شقيت به .

وفي ١٧ مارس ١٦٧٢ شنت إنجلترا الحرب الهولندية الثالثة . وتلك مسألة كان الملك والبرلمان كلاهما على اتفاق فيها . واعتمد البرلمان ٢٥٠ ر ١٢٥٠ جنيه للحرب . على أن يتسلم هذا المبلغ للحكومة على أقساط كان من الواضح أنها تعتمد على استرضاء الملك البرلمان وموافقته على تشريعاته الدينية وأعان مجلس العموم « أن قوانين العقوبات في المسائل الدينية لا يمكن ابطال العمل

بها الالة نون يسنه البرلمان . وأرسل الى الملك طلبا بسحب اعلان التسامح
ومذ كان لويس الرابع عشر يتوق الى أن يرى انجلترا صفا واحدا كالبنيان
المرصوص ، تأييدا للحرب ضد الهولنديين ، فانه نصيح الملك شارل بالغاء
اعلان التسامح حتى تنتهى الحرب بالفوز ، وأذن شارل ، وألغى
الاعلان فى ٨ مارس ١٦٧٣ .

ومن المحتمل أنه فى هذا الوقت ، ترامت الى زعماء البروتستانت أنباء
معاهدة دوفر السرية أو أشتموا راثحتها ورغبة فى الحيلولة دون تحول الملك
الى الكاثوليكية ، سن المجلسان كلاهما « قانون الاختبار » الذى ينص على أنه
يجب على كل أصحاب الوظائف المدنية والعسكرية فى انجلترا أن يقسموا علنا
على تخليهم عن النظرية الكاثوليكية التى تقول بتحول خبز القربان والخبز الى
جسد المسيح ودمه وأن يتناولوا الاسرار المقدسة طبقا للطقوس الانجليكانية
وكافح كليفورد هذا المشروع بضراوة ، وبعد اقراره استقال من الحكومة ،
وآوى الى ضيعته ، وما لبث حتى مات منتحرا كما يظن ايفلين . أما شافيتسبرى
فقد عضده بكل قوة ، وعزل من الوزارة ، فجعل من نفسه زعيما « لحزب
الريف » الذى تاهض ، بعنف يقارب الثورة ، « حزب البلاط » الذى كان
يثويد الملك . وبذلك قضى على الوزارة « الكابال » (١٦٧٣) . وأصبح
أرل دى كبير الوزراء .

واعنزل جيمس كل مناصبه الحكوميه . وخفف من حدة المعارضة
ضده بهض الشىء ، أنه على الرغم من أن زوجته الاولى إرانت الكاثوليكية
مذهبا من قبل ، فإن إبنيتها - الملكة ماري والملكة آن فيما بعد - نشأتا
على المذهب البروتستانتى . لكن زواجه آنذاك (٣٠ سبتمبر ١٦٦٣) من
أميرة كاثوليكية أثار ضده حملة من أقسى الإتهامات . تلك هى الأميرة
مارى مودينا التى دمغت بأنها « كبرى بنات البابا » ، والمفروض أنها لا بد
أن تنشئ أولادها على الكاثوليكية . وفى الحال قدمت إلى البرلمان
مشروعات قوانين تقضى بتنشئة أبناء الأسرة المالكة على المذهب البروتستانتى .

إن تطور الأحداث على هذا النحو أثار ضغطا مجتمعا على الحرب ضد اللقائعات المتحدة وجعلها تحس بالمرارة ، فلو أن ملك إنجلترا كان كاثوليكية لانحاز إن عاجلا أو آجلا إلى جانب فرنسا وأسبانيا في تدمير الجمهورية الهولندية تدميرا ، تلك الجمهورية التي لم تبد الآن منافسا تجاريا ، بل بدت معقل البروتستانتية في القارة ، فإذا سقط هذا الحصن الحصين فكيف يتسنى للبروتستانتية الإنجليز أن تثبت وأن تقاوم ؟ وفوض شارل عن طيب خاطر ، سير ولیم نبل في توقيع صلح منفرد مع الهولنديين . وفي ٩ فبراير ١٦٧٤ وقعت معاهدة وستمنستر التي أنهت الحرب الهولندية الثالثة .

٨ - (المؤامرة البابوية)

وأعقبت هذه الأحداث فترة كادت أن تتسم بالصفاء والتعقل ، وحيث تسلم شارل من لويس الرابع عشر مبلغا اضافيا قدره ٥٠٠ ألف كراون ، فإنه عطل البرلمان المتعب إلى أجل ، وعاد إلى عشيقاته . ولكن السياسة لم تتوقف . فان شافتسبري وغيره من زعماء المعارضة أسسوا في ١٦٧٥ « نادي الوشاح الأخضر » . ومن هذا المركز نشر « حزب الريف » دعايته دفاعا عن البرلمان والبروتستانتية ضد ملك يتآمر مع فرنسا الكاثوليكية ، ووريثه الذي زف علنا إلى زوجة كاثوليكية . وفي ١٦٨٠ أطلق على رجال حزب الريف اسم Whigs ، وعلى المدافعين عن سلطة الملك اسم Tories* وبدأ للملك شارل أن شافتسبري « أضعف الرجال وأخبثهم » (١٤١) . وقال عنه بيرنت « أن علمه سطحي هزيل ، وأن غروره سخيف ، وأن

(*) من الواضح أن هويج اختصار لكلمة « هويجامور » ، وهذا اسم تصبة من الاسكتلنديين نشطت في مقاومة شارل الأول (١٦٤٨) . أما توري فهي لفظة أيرلندية معناها لص . وقد أطلقها تيتس أوتس على « حزب البلاط » لأول مرة (١٦٨٠) (١٤٠) .

عقليته نافذة (١٤٢) ، ولكن جون لوك الذى عاش مع شافيتسبرى لمدة خمسة عشر عاما رأى أنه مناضل باسل جريء عن الحرية للدينية والدينية والفكرية أو الفلسفية. وقال عنه بيرنت أنه يدين باليهودية (مذهب طبيعى يقوم على العقل لا على الوحي) وقد يحق لنا أن نرتاب فى ديانتته من قوله هو نفسه « ليس للعقلاء من الرجال إلا دين واحد » ، فلما سألتته احدى السيدات ، وما هو ، كان جوابه « أن عقلاء الرجال لا يفتضحون عنه قط » (١٤٣) .

وخفت حدة التوتر الدينى بعض الشيء فى ١٦٧٧ ، حين تزوج وليم أورنج من ماري البروتستانتية كبرى بنات دوق يورك . فإذا ظل جيمس دون عقب ذكر ، فان ماري سوف تخلفه ، فى وراثة العرش ، ومن ثم ترتبط انجلترا بهولنده البروتستانتية بحكم المصاهرة ، ولكن فى ٢٨ أغسطس ١٦٧٨ مثل تيتس أوتس أمام الملك وأعلن أنه اكتشف « مؤامرة بابوية : ذلك أن البابا وملك فرنسا ورئيس أساقفة أرماج واليسوعيون فى انجلترا وأيرلنده وأسبانيا كان يدبرون قتل شارل وخلع أخيه ، وفرض السكائوليكية فى انجلترا بحد السيف ، وأن ثلاثة آلاف سفاح سيتولون ذبح زعماء البروتستانت فى لندن ، وأن لندن نفسها — قلعة البروتستانتية — كانوا يدبرون احراقها عن آخرها .

كان أوتس ، وهو آنذاك فى التاسعة والعشرين من العمر ، ابن أحد أنصار تجديد العمامة . وكان قد أصبح قسيسا أنجليكانيا ، ولكنه فصل من وظيفته الكنسية لسوء سلوكه (١٤٤) . ثم قبل — أو تظاهر بقبول — التحول إلى الكاثوليكية . وكان قد درس فى السكليات اليسوعية فى بلد الوليد (أسبانيا) وسانت أومر حيث فصل أيضا . آخر الأمر (١٥) . وفى نفس الوقت ، زعم الآن أنه كان قد اطلع على خطط الجزويت السرية لغزو انجلترا. واعترف أنه شهد فى ٢٤ أبريل ١٦٧٨ مؤتمرا يسوعيا فى لندن توقفت فيه

وسائل قتل الملك . وعدد أسماء خمسة من النبلاء الكاثوليك ، على أنهم مشتركون في المؤامرة هم : أرونديل ، بويس ، بقر ، ستافورد ، بللايس . وعندما أضاف أوتس أن بللايس هذا كان سيمين قائدا عاما لجيش البابا ، ضحك شارل ساخرا ، حيث كان بللايس طريح الفراش بداء النقرس . وخلص الملك إلى أن أوتس لفق القصة كلها أملا في الحصول على مكافأة ، وصرفه من حضرته .

ولكن المجلس المخصوص ارتأى أنه من الحكمة أن يفترض بعض الصديق في الاتهامات ، واستدعى أوتس لمثل أمامه في ٢٨ سبتمبر . وخشى أوتس أن يزج به السجن ، فقصده إلى قاضي الصلح سيراد موند يرى جودفري وأودعه اعترافا خطيا مقرونا بقسم ، فصل فيه المؤامرة تفصيلا . وأصدر المجلس ، متأثرا بهذه الأدلة ، أوامره بالقبض على عدد من أنصار البابوية الذين تضمنهم اعتراف أوتس . وكان من بينهم أدوارد كولمان الذي كان لعدة سنوات (حتى عزل بأمر من الملك) سكرتير الدوقة يورك . وأحرق كولمان بعض أوراقه قبل القبض عليه ، ولكن الأوراق التي لم يكن لديه متسع من الوقت لاحتراقها أوضحت أن كولمان والاب لاشيز قسيس لويس الرابع ، تبادلوا من الرسائل مايعبر عن أمل الطرفين (شارل ولويس) في أن تصبح إنجلترا كاثوليكية في أسرع وقت وفي هذه الرسائل اقترح كولمان أن يرسل إليه « لويس الرابع عشر أموالا ليكسب بها أعضاء البرلمان إلى جانب قضية الكتلوسكه ، ثم أضاف « أن نجاحنا سوف يكون ضربة شديدة للعقيدة البروتستانتية ، لم تقا مثلها منذ نشأتها تلك هي تحول ثلاث ممالك . ومن ثم ، فربما كان في هذا القضاء التام على هذه الطريقة الوبيلة (١٤٦) إن اعدام كولمان لمعظم أوراقه حيدا بالمجلس إلى الاعتقاد بأن كولمان على علم بالمؤامرة التي وصفها أوتس ، وربما كان شريكا فيها . واستنتج شارل نفسه من تلك الرسائل ، وجود مؤامرة حقيقية بهكل ما .

وفي ١٢ أكتوبر اختفى القاضى جودفري ، وبعد خمسة أيام وجدت جثته فى أحد الحقول فى الضواحي . وبات من الواضح أنه قتل . بيد عملاء مجهولين ، ولأسباب غير معروفة حتى الآن ، ولكن البروتستانت نسبوا القتل إلى الكاثوليك الذين كانوا يأملون فى الحيلولة دون نشر اعترافات أوتس . ويبدو أن هذا الحادث أكد الاتهامات . وفى هذا الجو الذى سادته الريبة وعدم الثقة ، الذى خلقته معاهدة دوفر السرية ، والخوف من اعتلاء جيمس عرش إنجلترا ، كان طبيعيا أن تصدق إنجلترا البروتستانتية آنذاك كل ما جاء على لسان أوتس من اتهامات ، وأن يعترىها نوبة من الجنون بدامعها أن حماية البروتستانتية تتطلب اعتقال كل من أورد أوتس ذكرا فى المؤامرة ، إن لم يكن اعدامهم .

وبدأت فترة من حكم الإرهاب امتدت لنحو أربع سنوات . وفر جيمس إلى الأراضى الوطيدة وتسليح أهالى لندن استعدادا لمقاومة أى غزو متوقع . ونصبت المدافع فى هويت هول . واتخذ الحراس أما كنهم فى الأقبية والسراديب تحت مبنى البرلمان بمجلسيه ليحولوا دون « مشروع بارود » آخر لنسف المبنى . وأقر البرلمان قانونا لطرد الكاثوليك من مجالس اللوردات ، وكرم أوتس بوصفه « مخلص الأمة » وكافأه بتخصيص معاش سنوى له قدره ١٢٠٠ جنيه لمدى الحياة ومنحه مسكنا فى قصر هويت هول . وسرمان ما ازدحت السجون باليسوعيين والسكهنه غير المنتسبين إلى رهبنيات ، والكاثوليك العلمانيين الذين أورد ذكرهم أوتس أو وايم بدلو الذى ظهر ، مدعيا العلم بأشياء تؤكد صحة اتهامات أوتس .

وفى ٢٤ نوفمبر وضع أوتس أمام المجلس اتهاما جديدا مروحا ، ذلك أنه كان قد سمع الملكة تبنى موافقتها على قتل زوجها باسم ، بيد طبيبيها الخالص . وهنا أخذ شارل بهذه الكذبة الصارخه . وفقد ثقته فى أقواله كلها ، وأمر بالقبض عليه . ولكن مجلس العموم أهر بالإفراج عنه ، وبالقبض على ثلاثة من خدم الملكة . واقترح على اصدار بيان يطالب

بعزلها . وقصد الملك إلى مجلس اللوردات ودافع عن إخلاص زوجته وولائها ، وأقنع اللوردات بالامتناع عن الموافقة على بيان النواب . وفي ٢٧ نوفمبر حوكم كولمان وكاثوليكي علماني آخر ، وثبتت إدانتهما وأعدما . وفي ١٧ ديسمبر أعدم ستة من اليسوعيين وثلاثة من الكهنة المنتسبين إلى رهيئات . وفي ٥ فبراير ١٦٧٩ شنق ثلاثة رجال بتهمة قتل جودفري . وثبت فيما بعد براءة هؤلاء الاثني عشر .

وتزايدت الحملات إقترابا من الملك ، ففي ١٩ ديسمبر ١٦٧٨ تلقى البرلمان من باريس أنباء تهديد أن داني كان قد تسلم من لويس الرابع عشر مبالغ طائلة من المال . ورفض الوزير إيضاح أنها كانت إعانات فرنسية للملك . ووجه مجلس العموم الاتهام إلى الوزير . وخشى الملك الحكم على مستشاره للملكي بالاعدام ، فحل ، في ٢٤ يناير ١٦٧٩ « برلمان الفرسان » الذي كان قد التأم على فترات متقطعة ، لمدة ثمانية عشر عاما ، أي أنه كان أطول من « البرلمان الطويل » .

ولكن برلمان « الهويج » الذي اجتمع في ٦ مارس ، كان في عداوة للكاثوليكية والملك ، أشد إندفاعا وتحمسا من البرلمان السابق . واتهم مجلس العموم داني بالخيانة العظمى ، ولكن اللوردات أنقذوه بزجه في سجن لندن ، حيث قضى فيه ، في هدوء وقلق ، السنوات الخمس المضطربة التالية . وبناء على نصيحة سير وليم تمبل ، عين شارل مجلسا جديدا من ثلاثين عضوا ، بينهم — رغبة في تخفيف حدة المعارضة — زعيما حزب الهويج : شافتسبري وجورج سافيل ، مركز هاليفاكس وبناء على توصية الملك اختيار شافتسبري رئيسا للمجلس . وسميا وراء المزيد من تهدئة الماصفة ، عرض الملك على البرلمان تسوية بديلة لاستبعاد أخيه عن العرش : ألا يسمح لأي كاثوليكي بمقعد في البرلمان أو بتولي منصب قيادي يتطلب الثقة ، وألا يكون للملك حق التعيين في المناصب الدينية ، وأن يخضع تعيين القضاء لموافقة البرلمان . وإن يكون للبرلمان حق الرقابة والاشراف

على القوات البرية والبحرية (١٤٧). ولكن البرلمان أحس بشيء من الارتياح وعدم الثقة في موافقة جيمس على مثل هذه الاتفاقية . وفي ١١ مايو قدم شافتبيري نفسه أول مشروع قانون لاستبعاد (جيمس) في عبارة واضحة جلية لا لبس فيها « إسقاط حق دوق يورك في وراثة التاج الامبراطوري لهذه المملكة » . وكان موضع فخر وشرف للبرلمان أنه في ٢٦ مايو توسع في حق التحقيق في قانونية الاعتقال : بمعنى أنه يمكن الإفراج بكفالة عن أى سجين ، فيما عدا المتهمين بالخيانة أو بجناية ، وفي مثل هذه الحالة ينبغي أن يحاكم المتهم في الدورة التالية للمحكمة ، وألا أطلق سراحه . وكان على فرنسا أن تنتظر ١١٠ سنوات حتى تنعم بضمانات مماثلة ضد الاعتقالات التعسفية . وفي ٢٧ مايو خشي الملك إقرار « مشروع قانون الاستبعاد » فعمل البرلمان .

ولم يكن حق التحقيق في قانونية الاعتقال مجديا بالنسبة لأنصار البابوية الذين إنهمم أوتس ، لأنهم حوكموا مع شيء من التباطؤ ، حتى إذا أدينوا بالخيانة أعدموا في سرعة غاضبة ، وحشد الكثير منهم إلى المقصلة أو ساحة الإعدام طيلة عام ١٦٧٩ ، وكانت محاكمتهم سريعة جداً لأن القضاة الذين روعتهم صيحات الجوع المتعطشة للدماء خارج المحكمة ، أدانوا كثيراً من المدعى عليهم دون تمحيص الأدلة أو مواجهة الشهود بعضهم ببعض . وهب الشهود المزيفون الذين أغرام ما أغدق على أوتس من مكافأة ، وكأما هبوا من مرقدهم ، وأقسموا بأغلاظ الإيمان على ما يقولون : فروى أحدهم أن جيشاً من ثلاثين ألفاً كان قادماً من أسبانيا ، وقال آخر أنهم وعدوه بخمسمائة جنيه وبضمه إلى قاعة القديسين إذا هو أطاح برأس الملك ، وذكر شاهد مزيف ثالث بأنه كان قد سمع أحد رجال المصارف الكاثوليك الأثرياء يأخذ على نفسه عهد بأن يقوم بمثل هذا العمل (١٤٨) . ولم يسمح للمتهم بأى محام أو مستشار قانونى . ولم يبلغ بما نسب إليه إلا في يوم المحاكمة . وكان يفترض أنه مذنب حتى يستطيع أن يثبت براءته (١٤٩) . وحتى تسهل

الإدانة أحيوا قانوناً قديماً كان معمولاً به في عهد الزابث : وهو أن وجود أى كاهن في إنجلترا جريمة عقوبتها الإعدام . وكانت الجموع المحتشدة حول مبنى المحكمة تصرخ وتولول في وجوه شهود الدافع استهجاناً ، وتقذفهم بالحجارة ، ويهتفون ويهللون فرحاً عند إعلان الحكم بالأداة (١٥٠) .

فت كل هذا في عضد شارل ، وكان إمتحاناً قاسياً للملك الذي غمرته يوماً الهجة والفرح ، والذي رأى الآن كل آماله تنهار ، وسلطاته تنتقص ، وزوجته تعاني الاذلال ، وأخاه يبوء بالاحتقار والارذراء وينحى . وفي ذروة العاصفة خر شارل مريضاً مرضاً خطيراً حتى توقعوا موته بين ساعة وأخرى . واستدعى هاليفاكس جيمس من بروكسل ، ولكن زعماء الهويج أمروا البيش بالحيولة دون عودته . واتفق شافستبرى ومونتوث ولورد رسل ولورد جراي على أنهم - في حالة وفاة شارل - ، سيتزعمون عصياناً مسلحاً لمنع أخيه من ارتقاء العرش (١٥١) ، وتيسر لجيمس أن يدخل البلاد متنكراً ، وشق طريقه إلى جوار الملك . وتظاهر شارل بأنه أبل من مرضه ، وابتسم للمخاوف التي ساورت حتى أعداءه الذين توقعوا موته . والحق أنه لم يبرأ من علته قط .

وأتى العداء للكاثوليك على أشده حتى تخطيط أوتس أثناء محاكمة سير جورج ويكمان طبيب الملكة . ففي شهادته أمام المجلس كان قد برأ الطبيب ، ولكنه في المحاكمة اتهمه بتدبير دس السم للملك . واكتشف هذا التناقض في الأقوال . قاضى القضاة سكروجر الذي سبق له أن تولى محاكمة الكاثوليك عنتهى الشدة . وصدر الحكم ببراءة ويكمان ، ومن ثم صارت شهادة أوتس تسمع في مزيد من التدقيق ، وامتنع الشهود المزيفون الذين كانوا يعززون أقواله ، عن مساندته ، وكان إعدام أوليفر بلنكت رئيس أساقفة آرماج الكاثوليكي ، آخر إجراء تم في حركة الارهاب التي قامت ضد الكاثوليك (١ يولييه ١٦٨١) .

ولما خفت وطأة الرعب والانفعال تأكد لدى بعض عقلاء الرجال أن

أوتس ، عن طريق الريب التي لا تستند إلى أساس من ناحية ومن ناحية أخرى عن الأكاذيب ، عجل بإرسال كثير من الأبرياء إلى الموت قبل الأوان . وانتهوا إلى أنه لم يسكن ثمة تدبير لقتل الملك أو ذبح البروتستانت أو إحراق لندن . ولكنهم أحسوا بأنه كانت هناك مؤامرة حقيقية ، كاثوليكية ، وأن لم تكن « بابوية » : تلك هي أن أركان الحكومة دبروا ، أو راودهم الأمل ، بمساعدة أموال (أو جنود إذا لزم الأمر) من فرنسا ، أن يقضوا على عجز الكاثوليك وعدم أهليتهم الشرعية في إنجلترا ، ويحولوا الملك إلى الكاثوليكية ، ويثبتوا حق أخيه الذي تحول فعلا في إرتقاء العرش ، ويستخدموا كل الوسائل لتدعيم الملكة دينا للدولة ، وفي النهاية للشعب . والواقع أن كل هذا تضمنته معاهدة دوفر السرية التي وقعت من قبل في ١٦٧٠ وكان شارل قد تراجع عن هذه الإتفاقية . ولكن رغباته لم تتبدل ولم يتدخل عنها قط ، وظل مصمما على أن يعتلي أخوه عرش إنجلترا ويكون ملكا عليها .

٩ - خاتمة الملهاة

أما شافتبيري فقد وطد العزم على نقيض ما يبتغيه الملك . لقد اعترف كولمان أثناء محاكمته بأن جيمس علم أمر المراسلات المتبادلة بينه وبين الأب لاشيز ، وأقرها (١٥٢) . وأحس شافتبيري بأن ارتقاء جيمس عرش إنجلترا لابد أن يحقق المرحلة الأولى من « المؤامرة البابوية » وعرض أن يساند شارل ويقف إلى جانبه إذا هو طلق الملكة المقيم وتزوج من بروتستانتية قد ينجب منها ابنا بروتستانتيا . وأبى شارل أن يدع كاترين دي براجانزا تكرر الدور الذي لعبته كاترين أوف أراجون . فولى شافتبيري وحبه شطر دوق مونموث الابن غير الشرعي للملك ، الذي لم يخفر قط لأبيه خداه وابعاده عن العرش بتقصيره في الزواج من أمه . ونشر شافتبيري غفلة أن شارل كان بالفعل قد تزوج من لوسي والتر ، وأن دوق مونموث

هو الوريث الشرعى للعرش . فما كان من شارل إلا أن كذب هذا بإعلانه أنه لم يتزوج قط إلا من كاترين أوف براجانزا ، وإذ وجد أن شافيتسبرى خصم عنيد ، فإنه أقصاه عن المجلس المخصوص (١٣ أكتوبر ١٦٧٩) .

وأثناء توالى الأزمات والمحن على هذا النحو كاد شارل أن يبدل من خلقه ومن شخصيته ، فودع حياة البهجة والدعة . وباع اسطبلاته ، وانصرف بكليته إلى الإدارة والسياسة ، وحارب أعداءه بتراجع محكم التدبير ، حتى جاوزوا حدودهم فاتهموا إلى الفشل إن الملك فى سنواته الخمس الأخيرة أبدى من قوة العزيمة والمقدرة ما أدهش حتى الأصدقاء . وإذ طودته الطامأينة والثقة فقد دعا برلمانه الرابع .

واجتمع البرلمان فى ٢١ أكتوبر ١٦٨٠ . وأقر مجلس العموم فى شهر نوفمبر « مشروع قانون الاستبعاد » الثانى ، وقدم إلى مجلس اللوردات . وهنا تحول هاليفاكس الذى كان يصوت حتى تلك اللحظة إلى جانب « حزب الهوبيج » نقول تحول الآن إلى جانب الملك ، وبدأ يحظى بلقب « القلب الحول » ويژهو ويختال به . إنه كان يبعض جيمس ويرتاب فى الكاثوليكية ، ولكنه اتفق مع شارل فى ضرورة الإبقاء على مبدأ الملكية الوراثية . كما خشى أن يقود شافيتسبرى انجلترا إلى حرب أهلية ثانية (١١٥٣) . ومن ثم فإنه بفصاحته ومنطقه فى المناقشة الطويلة التى جرت بشأن « مشروع قانون الاستبعاد » أقنع اللوردات برفض المشروع . ورد مجلس العموم على هذا ، برفض الموافقة على أية اعتمادات مالية للملك ، وحظر على التجار وأصحاب المصارف . اقراضه أية أموال . وحاكم هاليفاكس وسكروجرز وفيسكونت ستافورد . وهو أحد اللوردات الخمسة المعتقلين فى سجن لندن . وحكم على ستافورد بالإعدام بناء على شهادة أوتس ، وضرب عنقه فى ٧ ديسمبر . وفض الملك البرلمان فى ١٨ يناير ١٦٨١ .

وبدلاً من أن يضحي شارل بأخيه بسبب حاجته إلى المال ، اعتزم شارل أن يعول الحكومة بأن يصبح من جديد أسيراً للملك الفرنسى لويس الرابع

هضر ، وارتضى أن ينظر في شيء من التجلد ورباطة الجأش إلى سياسة فرنسا العدوانية ، مقابل ٧٠٠ ألف جنيه (١٥٤) — وهو مبلغ يغنيه لمدة سنوات عن اطبات البرلمان واعتماداته . فلما أحس بالقوة دعا برلمانه الخامس ، ولكي يحرمه من تأييد جمهور لندن وقوات الطوارئ فيها ، فإنه ، أي الملك أمر باجتماعه في أكسفورد . وهناك إلتقى الجمعان مدججين بالسلاح : شارل مع عدد كبير من حرسه ، وزعماء الهويج مع أتباعهم حاملي السيوف والمسدسات رافعين أعلاماً كتب عليها « لا بابوية ولا عبودية » وأقر مجلس العموم في الحال « مشروع قانون الاستبعاد » الثالث ، ولكن قبل أن يصل المشروع إلى مجلس اللوردات حل شارل البرلمان (٢٨ مارس ١٦٨١) .

وتوقع كثير من الناس أن يلجأ شافيتسبرى الآن إلى الحرب الأهلية . أما الرأي العام الذي استرجع في ذاكرته أحداث ١٦٤٢ — ١٦٦٠ فقد تحول عنه وانحاز إلى صف الملك . ودافع رجال الكنيسة الأنجليكانية دفاعاً مجيداً عن حق جيمس الكاثوليكي في ارتقاء العرش . وعندما حاول شافيتسبرى أن يعيد تنظيم صفوف النواب المشنتين في ميثاق ثوري (١٥٥) ، أمر شارل باعتقله ، ولكن هيئة المحلفين برأته (٢٤ نوفمبر) وعلى الرغم من أنه كان آنذاك مريضاً بدرجة لا يسكاد معها يقوى على المشي ، فإنه انضم إلى دوق مونموث في ثورة علنية (١٥٦) . وأمر الملك باعتقالها كلها وهرب شافيتسبرى من سجن لندن ، وفر إلى هولنده ، وهناك وافته منيته (٢١ يناير ١٦٨٣) بعد أن أنهكته الأحداث ، ولكنه حاف وراءه صديقه لوك ، ليتابع في مجال الفلسفة ، المعركة التي لم يكتب لها لبعض الوقت التوفيق في ميدان السياسة .

وصفح شارل عن مونموث ، ولكنه لم يغتفر قط المحلفين في لندن تبرئتهم لشافيتسبرى . والآن وقد تحول الملك الانشوان إلى شخص آخر ، وكان متطرفاً في تحوله هذا ، فإنه عقد العزم على تحطيم استقلال المدن التي ترعرت فيها فكرة الهويج (الأحرار) بل الفكرة الثورية ، فأمر

بمراجعة الموائيق والمهود والقوانين التي هيأت للأجهزة البلدية الخروج على الارادة الملكية ، ووجد بالفعل في هذه بعض النقص والخلل من الوجهة التشريعية ، فأعلن إلغائها جميعا ، وصدرت عهود وقوانين جديدة تنص على أن يكون للملك حق الاعتراض وحق عزل كل الموظفين الذين ينتخبون لهذه الهيئات البلدية (١٦٨٣) . وخضعت الآن حرية الكلام وحرية الصحافة لقيود جديدة ، وبدأت موجة اضطهاد المنشقين — لا الكاثوليك : لأن معظم المنشقين كانوا من الأحرار (الهويج) . وفي اسكتلنده قاد جيمس حملة التعذيب بنفسه ، وبدأ أن انتصار حقوق الملك على اصلاحيات البرلمان بات انتصارا ساحقا كاملا ، وأن انجازات الثورة الكبرى كان واضحا أنه ينبغي التضحية بها في نكسة أو رد فعل تؤيده أمة تخشى تجديد الحرب الأهلية . وعكس هاليفاكس شعور البلاد حين تخلى عن شافنسبري ، وانحاز بحكمته المعتدلة البعيدة عن التطرف إلى جانب الملك ليكون في خدمته (١٦٨٢ — ١٦٨٥) فكان حامل الاختام الملكية .

وقام أتباع شافنسبري بمحاولة أخيرة . ففي يناير ١٦٨٧ ، اجتمع دوق مونموث وإرل اسكس وإرل كارليل ، ووليم لورد رسل وألجرون سدن في دار جون همدن (حفيد بطل الحرب الأهلية) ورسموا المخطط لتطويق جيمس والتغلب عليه ، وقتل شارل إذا لزم الأمر . وراود سدن أمل التقدم إلى خطوة أبعد ، وهي إعادة إقامة الجمهورية الانجليزية . وكان حفيد أحد أخوة سيرفيليب سدن « رئيس الفروسية » ، وحارب في صف البرلمان أثناء الحرب الأهلية وجرح في مارستن مور . وعين عضوا في اللجنة التي شكلت المحاكمة شارل الأول ، ولكنه رفض العمل بها على اعتبار أن الشعب لم يمنح اللجنة سلطة محاكمة الملك . وألقى نفسه في القارة حين طادت الملكية ، فظل بها ، مشغولا بدراساته وأبحاثه ، وتدير المؤامرات ضد شارل الثاني . وفي الحرب الهولندية الثانية حرض الهولنديين على غزو إنجلترا ، وعرض خدماته على الحكومة الفرنسية ليشعل نار الثورة في إنجلترا إذا مدت الحكومة الفرنسية بمائة

ألف كروان (١٥٧) . وفي ١٦٧٧ سمح له شارل بالعودة ليشهد وفاة والده ،
وبقي في إنجلترا وانضم إلى « حزب الريف » (الأحرار ، الهويج) . وفي
كتابه « مقالات عن الحكومة » (الذي كتب ١٦٨١ ولم ينشر إلا في
١٦٨٨) دافع سدني عن المبادئ شبه الجمهورية ، واستبق لوك في مهاجمته
دفاع فلر عن حقوق الملوك الإلهية ، وأكّد حق الشعب في محاكمة الملوك
وخلعهم . ومن الواضح أن سدني ورسل ، كليهما تسليما أموالا من
الحكومة الفرنسية التي كان يهما أن يظل شارل مشغولا بمشاكلة
الداخلية (١٥٨) .

وصح عزم « مجلس الستة » على أسر الملك . وكان معروفا أنه سيشهد
سباق الخيل في شهر مارس في نيوماركت . وكان لابد له ، لدى عودته إلى
لندن من أن يمر « برأي هاوس » في هودزدون في شمال المدينة ، فتقرر
أن تسد عربة محملة بالحشائش الجافة الطريق في هذا المكان ، ومن ثم يمكن
أسر الملك وربما أسر أخيه معه كذلك ، حينئذ أو ميتين . ولكن في ٢٢
مارس شب حريق في ميدان السباق ، وانتهت المسابقات قبل موعد المقرر
بأسبوع ، وطاد الملك سالما إلى لندن قبل أن يعد المتآمرون عدتهم . وخشى
أحدهم افتضاح الأمر وراودوا الأمل في العفو ، فأفضى بسر المؤامرة إلى الحكومة
(١٢ يولية) . وقبض على كارليل فأكد الاعتراف وعفوا عنه . واحتج
مؤمنوث بأنه بريء ، وعلى الرغم من أن شارل علم علم اليقين أن ابنه كاذب
فيما يقول ، فإنه ألغى أمر اعتقاله . أما رسل فحوكم وثبتت إدانته وأعدم
(٢١ يولية ١٦٨٣) . وانتحر اسكس في السجن . وعندئذ قال الملك « ما كان له
أن يقنط من الرحمة ، فلاني مدين له بحياة » (١٥٩) « فقد مات أبوه من قبل من
أجل شارل الأول . وشتق عدد من صغار المشتركين في « مؤامرة رأي
هاوس » وأخذ سدني مجرم لم يقم عليه دليل كاف من الناحية القانونية ،
ودافع عن نفسه دفاعا مجيدا ، وقابل الموت بصدر رحب (٧ ديسمبر) .
وكان شعاره « يدي هذه هي عدوة الطغاة » . ولكنه كان قد اختار سيفنا

ذا حدین • ونطق وهو على المشنقة بكلمات تستحق الذكر : « إن الله ترك
للشعوب حرية إقامة الحكومات كما تشاء (١٦٠) » . ورفض أية طقوس دينية
قائلاً أنه في سلام مع الله فعلاً •

لقد انتصر شارل ولكنه كان مشرفاً على النهاية ، ونعم ، مع جهده مضن ،
بشعبية جديدة ، وكانت إقتصاديات إنجلترا قد ازدهرت في عهده ، أما الآن ،
والبلاد تتطلع إلى هدوء سياسي ، فقد ركنت إلى ملك كان يمثل بقاء الأمة
ونظامها ، ولو كان معنى هذا ، لفترة من الزمن « ملكاً كاثوليكياً » •
وغفرت إنجلترا لشارل أخطائه ، حين رأته ينهار ويذبل قبل الأوان •
وافقت معه ، بعض الشيء ، على أن الحكومة الانتخابية — لا الملكية
الوراثية — مدعاة للاضطراب والمهرج الذين يصاحبان انتخاب الحاكم عندما
يحين موعده • واحترمت فيه إخلاصه لأخيه ، حتى في الوقت الذي حزن
فيه لنتيجة هذا الإخلاص ، ورأت جيمس منتصراً ، ورأته ثانية قائداً أعلى
للأسطول ، يتمتع أعداءه ليشأراً منهم • وفي يناير ١٦٨٥ رفع جيمس
دعوى مدنية ضد تيتس أوتس يطالبه فيها بتعويض قدره مائة ألف جنيه •
وكسب جيمس القضية • ولما كان أوتس عاجزاً عن الدفع فقد أودع السجن •
وقال شارل في حزن بالغ « لست أدري ماذا سيفعل أخى عندما ينتهي
الآجل وأفارق الحياة • أخشى ما أخشاه أنه عندما يأتي ليضع تاج الملك
على رأسه ، أن يرغب على العودة من حيث أتى • على أني سأعني العناية كلها
بأن أترك له مملكة يسودها السلام ، وكل أمل أن يحتفظ لها بهذا السلام
لأمد طويل • ولكن هذا يثير كل مخاوفي ، ولست أوصل فيه كثيراً ، بل
لا يكاد أمل يدور بخليدي أنه سيتمحق (١٦١) » • ولما اعترض جيمس على
تجول شارل حول لندن راكباً عربته دون حرس ، أمره شارل أن يهديه
من روعة : « لن يقتلني أحد ليجلسك أنت على العرش (١٦٢) » •

ولابد أنه اعترض على الأطباء • فلما نه في ٢ فبراير ١٦٨٥ أصيب بحالة
تشنج واضطراب شديدة ، شوهدت وجهه ، وجعلت فيه ، يرغى ، وأجرى

دكتور كنج عملية فصد بشق أحد الأوردة . وكان لهذا نتيجة طيبة .
ولكن مرافق الملك استدعوا ثمانية عشر طبيباً آخرين ليشرحوا الداء
ويصفوا الدواء . وطيلة خمسة أيام في عذاب أليم ، استسلم للملك للحملة التي
جردوها عليه مجتمعين . فبزلوا أورده ، ووضعوا كتوس الحجام إلى
كتفيه . وقصوا شعره ليزيلوا البثور والقروح من جلدة رأسه ، ووضعوا
على باطن قدميه لمبوقاً من القاروروث الحام . وقال مؤرخ طبيب
« ولكي يزيلوا النزوات من مخه نفخوا في أعلى خياشيمه الخريق (وهو
عشب جميل الزهر) ثم جعلوه يعطس . ولكي يتقيأ صبوا في حلقة الأنثيمون
وسلفات الزنك . ولتنظيف أمعائه أعطوه مطهرات قوية ، وعدداً من الحقن
الشرجية في تعاقب سريع (١٦٣) » .

ونادى الملك الذي يحضر زوجته التي عاشت في شقاء عقيم ، ولم يكن
يدرك أنها جائية في أسفل الفراش بذلك قدميه . وفي ٤ فبراير قدم له بعض
الأساقفة الأسرار الدينية الأخيرة وفقاً للطقوس الأنجليكانية ، ولكنه
رجاهم أن يكفوا ، ولما سأله أخوه ، هل يريد كاهناً كاثوليكياً أجاب
« نعم ، نعم ، من كل قلبي (١٦٤) » فأرسلوا في طلب الأب جون هدلتون
الذي كان قد أنقذ حياة شارل في معركة وورسيستر ، كما أن شارل كان قد
أنقذ حياة الأب جون أيام « الارهاب البابوي » وأعلن شارل إعترافه
بالمذهب الكاثوليكي ، واعترف بذنوبه وخطاياهم ، وعفا عن أعدائه ،
وطلب المغفرة من الجميع . ومسحوه مسحاتاً بالزيت المقدس ، وتلقى
الأسرار المقدسة . وطلب الصفح والعفو ، بخاصة من زوجته ، ولكنه
كذلك أوصى أخاه خيراً بالسيدة لويز كيرووال وأبنائه (منها) « لاترك
تلك المسكينات تتضور جوعاً (١٦٥) » واعتذر لمن حوله عن أنه قضى مثل
هذا الوقت الطويل بشكل غير معقول ، وهو يعاني سكرات الموت (١٦٦) .

وعند ظهر اليوم السادس من فبراير ، كان دوق يورك ملكاً .

الفصل العاشر

الثورة الجالية ١٦٨٥ - ١٧١٤

١ - الملك الكاثوليكي : ١٦٨٥ - ١٦٨٨

من ذا الذي كان يستطيع أن يتخيل حين يقع بصره على الصورة (١) التي رسمها فانديك في اللونين الأزرق والذهبي لدوق يورك وهو في الثانية من عمره ، أن هذا الطفل البريء الحبي سيقضي قضاء مبرما على أسرة ستيوارت ، ويسكل آخر الأمر ، في « الثورة الجالية » انتقال السلطة من الملك إلى البرلمان ، وهو ما كان أبوه قد بدأه بشكل مخز من قبل ؟ ولكن في الصورة التي رسمها ريبلي (٢) للشخص عينه تحت اسم جيمس الثاني ، نجد أن الحياء قد انقلب إلى ذهول وارتباك . وأن الحساسية تغيرت إلى عناد وتصلب ، وأن البراءة تحولت بين أحضان العشيقات المذعنات الطيعات إلى لاهوت جامد لا ينثنى . فما كان إلا أن حدد هذا الخلق لصاحبه مصيرا قاجما ، وفيه ، وكما يحدث في كل التراجيديات أو المآسي الكبرى ، كان كل فريق يناضل من أجل ما يبدو له هو أنه حق ، ومن ثم يستحق منا بعض العطف .

لقد أوردنا من قبل ذكر بعض فضائل جيمس الثاني ، فكم من مرة عرض نفسه لخطر الموت في عمله في البحرية . ووازن الناس بينه وبين أخيه ، موازنة مرضيه ، في النشاط الحسكوي والإداري ، والاعتدال في الإنفاق ، وفي ارتباطه بكلمته . أنه استمعك بما أوصاه به شارل وهو محتضر ، من العناية بأمر نل جوين ، فسد ديونها ، وخصص لها ضيعة تسكفل لها رغد العيش . وبعد ارتقائه العرش ظل لبعض الوقت على علاقة مع آخر عشيقاته كاترين سدي . ولكنه بناء على اعتراضات الأب بنز أجزل لها المطاء على

خدماتها وأقنعها بمغادرة إنجلترا ، لأنه اعترف بأنه إذا وقع بهرمد عليها ثانية فإنه لا يملك فسكا كما من سلطانها عليه (٣) . إن الأسقف بيرنت الذى ساعد على خلعه ، حكم عليه بأنه « صريح مخاص بطبيعته ، ولو أنه فى بعض الأحيان متلفف محب للانتقام ، صديق ثابت على العهد ، إلى أن أفسدت عقيدته الدينية مبادئه وميوله الأولى (٤) » وكان مقتصدًا ينمى ثروته بسرعة ، ولم يعمد قط إلى غش العملة ، كما كان رحيمًا بالشعب فى موضوع الضرائب (٥) . إن ما كولى بعد أن دون ثمانمائة صحيفة عن حكم جيمس الذى لم يدم لا أكثر من ثلاثة أعوام ، انتهى إلى « أنه يحل بمناقب كثيرة ، إلى حد أنه لو كان بروتستانتيا ، لابل كاثوليكيًا معتدلاً ، لكان عصره عصرًا زاهرًا مجيداً (٦) » .

وتفاقت أخطاؤه بنمو سلطانه . وكان مغرورًا متمجرفًا حتى قبل اعتلائه العرش ، ينظر إلى معظم الناس باحتقار ، لا يفتح قلبه إلا لقلّة منهم ، وتمسك تمسكًا حرفيًا بنظرية أبيه ، وهى أنه ينبغى أن يكون للملك مطلق السلطة ، ولم يكن له اللزاج الواقعى الذى كان لأخيه والذى أدرك به الحدود العملية لهذه السلطة المطلقة . ويجدر بنا أن نقدر حق التقدير غيرته الدينية ، ورغبته فى منح إخوانه الكاثوليك فى إنجلترا حرية العبادة والمساواة فى الحقوق السياسية . وكان مخلصًا لأمه وأخته الكاثوليكيتين ، وكان طوال الخمسة عشر عامًا السابقة محاطًا بالكاثوليك فى بيته ، وكان موضع استنراب عنده أن الديانة التى أنجبت مثل هذا العدد الكبير من أفاضل الرجال وفضليات النساء ، يضع الإنجليز أمامها العراقيل ويبغضونها ويحدون من انتشارها . ولم يشاطر البروتستانت ما تناقلوه من ذكريات حيه فى أذهانهم عن مؤامرة البارود ، أو خوفهم من أن يولى عليهم ملك كاثوليكي ، يميل . طاجلاً أو آجلاً ويقتنع ، بانتهاج سياسة ترضى البابا الإيطالى . إن إنجلترا البروتستانتية كانت تشعر بأن أى ملك كاثوليكي لا بد أن يعرض للخطر استقلالها الدينى واثقارى والسياسى .

إن تصرفات جيمس الأولى بعد ارتقائه العرش خفضت من هذه المخاوف شيئاً قليلاً : أنه عين هاليفاكس رئيساً لمجلس الملك ، وسندرلند وزيراً ، وهنرى هايد (أرل كلاروندن الثانى) حاملاً لأختام الملك ، وكل هؤلاء من البروتستانت . وفى أول خطاب له فى هذا المجلس وعد بالابقاء على نظم الكنيسة والدولة ، وعبر عن تقديره لتأييد كنيسة انجلترا لاعتلائه العرش ، ووعد بأن يوليها عناية خاصة . وعند تنويجه أدى اليمين للألوفة لدى ملوك انجلترا الحديثين ، بالمحافظة على الكنيسة الرسمية وحمايتها . وحظى الملك جيمس الثانى لعدة شهور بشعبية لم تكن متوقعة .

وأول اجراء مؤيد للكاثوليكية اتخذه جيمس ، لم يكن يحمل عدواناً مباشراً على البروتستانت . أنه أمر بالإفراج عن كل للمسجونين بسبب رفضهم تأدية قسم الولاء والسيادة . وبهذا أفرج عن آلاف من الكاثوليك ، بل أخلى معهم سبيل ألف ومائتين من الكويكرز وكثير من المنشقين غيرهم . ومنع إقامة الدعوى بعد ذلك فى المسائل الدينية . وأطلق سراح دانبي واللوردات الكاثوليك الذين أودعوا السجن بناء على اتهامات تيتسى أوتس . وحوكم أوتس من جديد وأدين بتهمة الايمان الكاذبة التى أدت إلى إعدام عدد من الأبرياء ، وأعربت المحكمة عن أسفها لأنها لم تستطع الحكم عليه بالإعدام ، وحكمت عليه بغرامة قدرها ألفان من الماركات ، وأن يربط خلف عربة ويجلد بالسياط مرتين علانية ، الأولى من أولدجيت إلى نيوجيت ، والمرة الثانية بعد الأولى بيومين ، من نيوجيت إلى تايبيرن ، وأن يوضع فى آلة التعذيب ، المشهورة ، خمس مرات سنوياً طيلة بقائه على قيد الحياة . وطاش أوتس بعد هذا التعذيب ، وأعيد إلى السجن (مايو ١٦٨٥) وطلبوا إلى الملك اعفائه من الجلد للمرة الثانية ، ولكنه رفض .

وتحطمت الهدنة المزعزعة بين الشيع الدينية بثورة مزدوجة . ذلك أنه فى مايو نزل أرشيبالد كامبل ، إرل أرجيل التاسع ، فى اسكتلنده ، وفى

يونية رسا جيمس دوق مونموث على الشاطئ الجنوبي الغربي لـ إنجلترا ، في مسعى مشترك لخلع الملك الكاثوليكي . وأصدر مونموث بلافا وصم فيه الملك جيمس بأنه فاسد طاغية سفاح ، كما اتهمه بإحراق لندن ولؤاامرة البابوية ، ودس السم لشارل الثاني ، وتمهد الغزاة ألا يضعوا السلاح أو يسكنوا عن القتال حتى يخلصوا البروتستانتية وحرقات الشعب والبرلمان . ومنى أرجيل بالهزيمة في ١٧ يونية ، وأعدم في ٣٠ يونية ، وبذلك أخفق الجناح الشمالي للثورة . ولكن أهالي دورستشير — وهم بيوريتانيون شديديو التمسك بمذهبهم — رحبوا بمونموث وحيوه مخلصا ومنقذا لهم . وانضم تحت لوائه عدد كبير جدا من الناس ، إلى حد أنه في ثقة وجلال ومهابة ، اتخذ لقب جيمس الثاني ملك إنجلترا . ولم يقدم له الإشراف والطبقات الغنية أى عون أو تأييد . وهزم جيشه المختل النظام على يد القوات الملكية في سدجور (٦ يوليه ١٦٨٥) وهذا آخر حرب جرى فيها القتال على تراب إنجلترا قبل الحرب العالمية . ولأذ مونموث بالهرب ، وتوسل إلى الملك أن يعفو عنه فأبى ، وضرب عنقه .

وتعقب جيش الملك ، بقيادة برس كيرك ، فلول الثوار ، وشنق الأسرى دون محاكمة . وشكل جيمس لجنة يرأسها قاضى القضاة جفرين ، لتذهب إلى المنطقة الغربية لتحاكم الأشخاص المتهمين بالانضمام إلى الثورة أو التعرض عليها . وسمح للمحلفين بالاشتراك فى المحاكمات ، باعتبار أن هذا من حق المتهمين ، ولكن جفرين قذف فى قلوب المحلفين الرعب ، حتى أن قلة قليلة من المتهمين هى التى أصابت شيئا من الرحمة لدى هذه « المحكمة الدموية » (سبتمبر ١٦٨٥)^(٥) . وشنق نحو أربعمائته ، وحكم على ثمانمائته بالعمل الإجبارى فى مزارع جزر الهند الغربية^(٧) . وكانت الزايت فى ١٥٦٩ وكرومول فى ١٦٤٨ ، قد اتهما قبل ذلك بمثل هذه الأعمال الوحشية ،

(٥) Assizes الجلسات الدورية المحاكم العليا فى كل مقاطعة

ولكن جفرين تفوق عليهما في إرهاب المتهمين والمخلفين والتجهم والعبوس ،
وصب اللعنات على ضحاياه ، والتعديق في وجوههم في كثير من الخبث ،
والإدانة لجرد الشك ، إلا إذا ساعدت رشوة مجزية على إقناعه بالبراءة (٨) .
وبذل جيمس جهودا متواضعة ليضع حدا للوحشية ، ولكن ما أن تمت
الإبادة الكاملة وخذت النار المحرقة حتى رفع جفرين إلى مرتبة النبلاء ، وعينه
رئيسا لمجلس اللوردات (٦ سبتمبر ١٦٨٦) .

وأسهم هذا الاجراء الانتقامي في إبعاد النبلاء عن الملك . وعندما طالب
من البرلمان إلغاء « قانون الاختيار » (الذي يقضى باقصاء الكاثوليك عن
الوظائف ومقاعد البرلمان) وتعديل قانون « حق التحقيق في قانونية
الاعتقال » وإنشاء جيش دائم تحت امر الملك ، لم يستجب البرلمان لشيء من
هذا . فعطله جيمس (٢٠ نوفمبر) وأخذ يعين الكاثوليك في وظائف الدولة .
ولما اعترض هاليفاكس على امتحان البرلمان على هذا النحو ، عزله جيمس
من المجلس . وأحل محله ، رئيسا للمجلس ، سندرلند الذي أعلن تحوله إلى
الكاثوليكية على الفور (١٦٨٧) . وحين امتدح جيمس إلغاء لويس الرابع
لرسوم نائت (٩) استنتجت إنجلترا أنه لو تمتع جيمس بمثل السلطة المطلقة التي
يتمتع بها البوربون ، لما تردد في إتخاذ خطوات مماثلة ضد البروتستانت في
إنجلترا ولم يخف جيمس إعتقاده بأن سلطته الآن باتت مطلقة بالفعل ،
وأن لويس الرابع عشر في نظره هو للمثل الأعلى للملك . وقبل الاطانات من
لويس لفترة من الزمن ، ولكنه أبى عليه أن يعلى سياسة الحكومة
الانجليزية ، فتوقفت الاطانات .

وكان لويس أكثر تعقلا فيما يتعلق بإنجلترا منه بالنسبة لبلاده . وعلى
حين أنه أضعف فرنسا باضطهاده الهيجونوت ، نواه يحذر جيمس من مغبه
التسرع في تحويل إنجلترا إلى الكاثوليكية . كما أن البابا أنوسنت الحادي
عشر زود جيمس بمثل هذه النصيحة . وعندما أرسل إليه الملك الانجليزي
بعده بقرب إنضواء إنجلترا تحت راية الكنيسة الكاثوليكية في رومه (١٠) ،

نصحه البابا بأن يقنع بالحصول على التسامح الديني للكاثوليك الانجليز ،
كمد حذر هؤلاء أن يكفوا عن الأطماع السياسية ، ووجه رئيس الجزويت
لتعنيف الأب بنزولومه على القيام بمثل هذا الدور الخطير في الحكومة (١١) .
إن البابا أنوسنت لم يخفف من غيرته الكاثوليكية ، ولكنه كان يخشى قوة
لويس الرابع عشر التي تبتغى التطويق والسيطرة ، كما كان يأمل في إمكان
تحويل إنجلترا من مجرد تابع أو خادم ذليل للسياسة الفرنسية ومشروطاتها
إلى قوة متوازنة ضدها . وأوفد البابا مبعوثا بابويا — للمرة الأولى منذ
عهد ماري تيودور — ليوضح لجيمس أن أي تصدع في العلاقة بين البرلمان
والملك لا بد أن يضر بالكنيسة الكاثوليكية (١٢) .

ولم يستفد جيمس من هذا النصح . إنه أحس ، وكان في الثانية والخمسين
حين اعتلى العرش ، أنه قد لا يتيسر له فسحة من الأجل لتنفيذ التغييرات
الدينية التي ينشدها والتي يجيش بها صدره ، ولم يؤمل كثيرا في أن ينجب
ابنا ، وهنا قد تخلقه ابنته البروتستانتية ، وتقاب عمله رأسا على عقب ، إلا
إذا أقيم هذا العمل على أساس وطيء راسخ قبل موته . وطغت آراء الأب
بنزولومسكة وسلطانهما على كل نصح بالثروي والتريت . ولم يكتف للملك
بالذهاب إلى القديس ، تحفه الجلالة والمهابة الملكية ، بل طلب كذلك إلى
مستشاريه أن يلحقوا به لحضور القديس . وتكاثر الأساقفة حول الحاشية ،
وعين الكاثوليك في المناصب العسكرية ، وحرص القضاة (الذين كان له حق
تعيينهم وعزلهم) على تأكيد حقه في أعفاء هؤلاء المعينين من العقوبات
التي فرضها عليهم « قانون الاختبار » . وجند ، تحت أمرة ضباط أغلبهم
من الكاثوليك ، جيشا قوامه ثلاثة عشر ألف رجل لا يخضعون إلا
لأوامره هو ، وواضح أن مثل هذا الجيش كان يهدد استقلال البرلمان .
وعطل العمل بالقانون الذي يفرض العقوبات على حضور العبادة الكاثوليكية
علانية . وأصدر في يونية ١٦٨٦ مرسوما يحرم على رجال الدين لقاء عظمات
في الخلقات المذهبية . ولما خطب الدكتور جون شارب في « دوافع

المرتدين « أمر جيمس بوصفه الرئيس الشرعى للكنيسة الإنجليزية ، هنرى كمتون أسقف لندن ، بفصل شارب مؤقتا من سلك رجال الكنيسة الأنجليكانية ، فرفض كمتون . فعين جيمس ، متجاهلا قانونا صدر فى ١٦٧٣ « محكمة كنسية » جديدة ، سيطر عليها سندرلند وجفرىز ، وحاكت كمتون بتهمة شق عصا الطاعة على التاج ، وعزلته من وظيفته . وبدأت الآن الكنيسة الأنجليكانية ، التى كانت قد التزمت من قبل بالطاعة المطلقة ، نقول بدأت تقاب للملك ظهر المجن .

أن الملك جيمس كان يأمل فى كسب الكنيسة الأنجليكانية إلى جانب المصالح والتراضى مع رومه ، ولكن تصرفه المتهور قضى الآن على هذه السياسة . وبدلا من ذلك انتهج سياسة التوحيد بين الكاثوليك والمنشقين ضد الكنيسة الرسمية . ان وليم بن الذى وجد طريقه إلى قلب الملك وأحرز ثقته ، نصحه بأنه يستطيع أن يظفر بالتأييد الحار من جانب كل البروتستانت الانجليز ، فيما عدا الأنجليكانيين إذا هو بجرة قلم ألغى القوانين التى تحرم العبادة العلنية على فرق المنشقين وفى ٤ أغسطس ١٦٨٧ أصدر جيمس أول « إعلان للتسامح » فى عهده . ومهما تكن دوافع الملك ، فإن هذه الوثيقة تحتل مكانا فى تاريخ التسامح الدينى . إنه ألغى كل قوانين العقوبات فيما يتعلق بالديانة ، وأبطل كل الاختبارات الدينية ، ومنح الحرية الدينية للجميع ، وحظر التدخل فى شئون الاجتماعات الدينية المسالمة . وأخلى سبيل كل المسيحيين بسبب الخلافات الدينية . أن هذا الاعلان ذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه إعلانات التسامح فى عهد شارل الثانى ، التى كانت قد أثبتت على الاختبار الدينى لمن يتولون الوظائف ، وسمحت بالعبادة الكاثوليكية داخل الدور الخاصة فقط . وأكد للكنيسة الرسمية أن الملك سيواصل حمايته لها فى كل حقوقها القانونية . ومما يدعو إلى الأسى والأسف أن هذا الاجراء قدر له أن يكون إعلانا ضمنيا للحرب على البرلمان ، الذى كان قد سن من قبل كل القيود وعدم الأهلية التى ألغيت الآن . ولو سلم

البرلمان بسلطة الملك في إلغاء التشريعات البرلمانية لكان لواما أن تنشب الحرب الأهلية من جديد .

ودخل هاليغا كس الذي كان في هاتيك الأيام ألمع عقلية في إنجلترا ، للمرة بكتيب لا يحمل اسم المؤلف بعنوان « رسالة إلى منشق » (أغسطس ١٦٨٧) — « أكثر النشرات توفيقا في هذا العصر (١٣) » ، حدث فيه البروتستانت أن يكونوا على يقين من أن هذا التسامح الذي قدم إليهم الآن ، صدر عن ملك موال الكنيسة تدعى العصمة من الخطأ ، وتذكر التسامح صراحة . وهل يمكن أن يكون ثمة انسجام دائم بين حرية الفكر والتفكير وبين كنيسة لا تخطئ ؟ وكيف يطمئن المخالفون إلى أصدقائهم الجدد الذين دمغهم بالآدمس القريب بأنهم هراطقة ؟ « كنتم بالآدمس أبناء الشيطان ، وأنتم اليوم ملائكة النور (١٤) » . ومن سوء الحظ أن الكنيسة الأنجليكانية كانت قد اتفقت مع رومه فيما يتعلق بأبناء الشيطان ، وأنها في السنوات السبع والعشرين الأخيرة أخضعت مخالفاتها لألوان من الاضطهاد والتعذيب تعفهم من قبول الحرية حتى على أيدي كاثوليكية . وأسرع رجال الدين الأنجليكانيون إلى التماس التصالح مع المشيخيين والبيوريتانيين والكويكرز ، وتوسلوا إلى هؤلاء جميعا أن يرفضوا التسامح الراهن ، ووعدهم على الفور بتسامح يحظى بموافقة كل عن البرلمان والكنيسة الرسمية . وبعث بعض المخالفين بخطابات شكر إلى الملك ، ولكن الأغلبية نأت بجانبها في تحفظ . وعندما حانت ساعة الفصل بهذا الجبيع الملك .

وتابع جيمس خطواته . لقد تطلبت جامعات إنجلترا لمدة سنوات مضت من أساتذتها وطلبتها الالتزام بمذهب الكنيسة الأنجليكانية ، ولم يستثن من ذلك إلا منح درجة لطالب لوثرى ، ومنح درجة نفزية لدهوماى . ولم على أن التساوسة الأنجليكانيين رأوا في أكسفورد وكبردج هيئات وظيفتها الرئيسية اعداد الرجال لقبول المذهب الأنجليكانى ، وتقرر ألا ياتق بهما أى كاثوليكى . ورغبة في كسر هذا القيد أرسل جيمس ، إلى نائب رئيس

جامعة كمبردج رهالة يلزمه فيها بأن يستثنى من الأنجليكاني راهبا بندكتيا يسمى للحصول على درجة الأستاذية . ورفض نائب رئيس الجامعة ففصل بأمر من لجنة المحكمة الكنسية . فأرسلت الجامعة وفدا من بين أعضائه ايزاك نيوتن ، ليشرح للملك موقف الجامعة . ولكن الراهب حل المشكلة بالانسحاب (١٦٨٧) . وفي نفس العام رشح الملك لرياسة كلية مجدلين في أكسفورد ، رجلا لا يتمتع بغزارة العلم ، ولكنه ذو ميول كاثوليكية ، فرفض الزملاء انتخابه ، وبعد نزاع طويل اقترح الملك مرشحا ليس عليه إلا اعتراض أيسر من سابقه ، وهو باركر أسقف أكسفورد الأنجليكاني ، ولكن الزملاء الذين يشكلون الهيئة الانتخابية رفضوه كذلك ، ففعلوا بأمر من الملك ، وعين الأسقف باركر قسرا .

واشتدت وطأة الاستياء عندما ارتضى الملك أكثر فأكثر في أحضان مستشاريه الكاثوليك . وكان إعجابه بالأب بتر شديدا إلى حد الإلحاف على البابا برسمه أسقفا ، بل كاردينالا ، ولكن أنوسنت أبى . وفي يوليو ١٦٨٧ عين جيمس الجزويتى القدير ، ولكن المستهتر ، عضوا في المجلس الخصوص (الملكي) ، فاحتج كثير من الكاثوليك الإنجليز بأن هذا تصرف طائش ، ولكن جيمس كان في عجلة من أمره ليصل بالنضال إلى خايته . وكان في هذا المجلس الآن ستة من الكاثوليك ، مكنت لهم حظوتهم لدى الملك من السيطرة والغلبة (١٥) . وفي ١٦٨٨ عين أربعة من الأساقفة الكاثوليك لإدارة شئون الكنيسة الكاثوليكية في إنجلترا ، وخصص جيمس لكل منهم راتبا سنويا قدره ألف جنيه ، والواقع أن الكاثوليك شاركوا الآن الأنجليكان في أنه أصبح لكل من الفريقين كنيسة تساندها وتعاونها الدولة .

وفي ٢٥ أبريل ١٦٨٨ جدد جيمس نشر « إعلان التسامح » الذي مضى على صدوره عام واحد ، وأكد فيه من جديد عزمه على توفير حرية الفكر والضمير « لكل الإنجليز إلى الأبد . فمن الآن فصاعدا لا بد أن

يعتمد التبعين في الوظائف والترقى فيها على الجدارة الشخصية لا للذهب الدينى . وتنبأ بأن الاقلال من الخلفات الدينية لابد أن يفتح أسواقا جديدة للتجارة الانجليزية ، ويزيد من ازدهار الأمة ورخائها . وتوسل إلى رطايه أن يطرحوا جانبا كل الأحقاد ، وينتخبوا البرلمان الجديد دون تمييز بين المذاهب الدينية ، وللتحقق من انتشار هذا الاعلان الموسع على أوسع نطاق ممكن ، أصدر مجلس الملك توجيهاته إلى كل الأساقفة ليرتبوا مع كل رجال الدين أمر تلاوته في كل كنيسة في الأقاليم في إنجلترا ، يوم ٢٠ أو ٢٧ مايو . واستخدم رجال الدين على هذا النحو ، وسيلة للاتصال بالجمهور ، أمر له سوابقه الكثيرة في إنجلترا . ولكن لم تكن الرسالة قط يوما بغیضة إلى الكنيسة الرسمية إلى مثل هذا الحد . وفي ١٨ مايو رفع سبعة أساقفة أنجليكانيين إلى الملك مظلمة أو ضحوا فيها أنهم لم ترض ضمائرهم أن يوصوا قساوستهم بتلاوة الاعلان ، لأنه يخرق قرار البرلمان بأنه لا يجوز إلغاء تشريع برلمانى إلا بموافقة البرلمان نفسه ، فأجاب جيمس بأن رجال اللاهوت هم الذين كانوا يلحون على عظاتهم وخطبهم دوما على ضرورة الامتثال للملك وطاعته بوصفه رئيسا للكنيسة ، وأنه ليس فى الاعلان ما يخذش أو يسيء إلى كرامة أحد . ووعده بأنه سوف ينظر فى ظلامتهم ، ولكنهم إن يتلقوا منه ردا فى الغد فعليهم أن يدعوا الأمر .

وفى صبيحة اليوم التالى بيعت آلاف النسخ من هذه الظلمة فى شوارع لندن ، فى الوقت التى مازالت فيه قيد البحث عند الملك . وأحس جيمس بأن هذا يحافى قواعد اللياقة ، وعرض الظلمة على القضاة الاثنى عشر فى المحكمة الملكية ، فأشاروا بأنه تصرف فى حدود حقوقه المشروعة . ومن ثم أغفل الرد على الظلمة . وفى ٢٠ مايو تليت الظلمة فى أربع كنائس فى لندن ، وتجاهلوا فى الكنائس الست والتسمين الباقية . وشعر الملك بأن سلطته قد امتهنت ، وأمر الأساقفة السبعة بالثول أمام المجلس . فلما جاءوا أبلغهم بأن عليهم أن يخضعوا للمحاكمة بتهمة نشر طعن أو قذف فيه تحريض

على الفتنة ، وعلى أية حال فإنهم لكي يتفادوا السجن في الحال ، يمكن أن يقبل الملك منهم وعدا كتابيا بالحضور عند استدعائهم . فأجابوه بأنهم بوصفهم من أشرف المملكة ، ليسوا في حاجة إلى تقديم أى ضمان سوى كلمتهم . وأحالهم المجلس إلى برج لندن (السجن) وحياتهم الأهالي وهتفوا لهم على الجانبين عند نقلهم عبر نهر التيمز .

وفي يومى ٢٩ و ٣٠ يونيه حاكم الأساقفة السبعة - أمام محكمة الملك - أربعة قضاة مع هيئة المحلفين . وبعد يومين من مناقشات حادة في قاعة يحيط بها عشرة آلاف من أهالي لندن المهتاجين ، أصدر المحلفون حكما بعدم الإدانة . وابتهجت كل انجلترا البروتستانتية ، وقال أحد النبلاء الكاثوليك « لم تع ذاكرة الإنسان قط مثل هذه الصيحات والمهتافات ودموع الفرح التي حدثت اليوم (١٦) » وتوهجت الشوارع بالمشاعل والنيران التي أضرمت في الهواء الطلق . وسار الناس في موكب خلف شيخوخ من الشمع تمثل البابا والكاردينالات والجزويت ، أحرقت وسط احتفالات صاخبة . إن هذا الحكم كان يعنى عند البسطاء من الناس أنه لا ينبغي التسامح مع الكاثوليكية ، وعند ذوى الإدراك الأوسع أو العقل الأنضج كان يعنى تثبيت حق البرلمان فى سن قوانين ليس للملك أن يبطلها ، وأن انجلترا ، فى الواقع ، حتى ولو لم تكن من الناحية النظرية ، ملكية دستورية ، لا ملكية مطلقة .

على أن جيمس الذى عراه الاكتئاب والحزن بسبب الهزيمة ، أخذ يتعزى بالطفل الذى وضعت له الملكة فى ١٠ يونيه ، قبل الموعد المتوقع للولادة بشهر ، وفى مقدوره أن ينشئ هذا الولد النفيس تنشئه قوامها الولاء والاخلاص للكاثوليكية ، وكان يمكن للوالد والولد ، فى وجه أیه معارضة أو معوقات ، أن يقتربا يوما بعد يوم خطوة من الهدف المقدس - ألا وهو الملكة القديمة ، تعيش فى وثام ووقاق مع الكنيسة ، فى انجلترا يسودها الهدوء والسلام والتراضى ، فى أوربا نادمه على

ارتدادها عن عقيدتها ، موحدة في ظل هذه العقيدة الحق الوحيدة العالمية .

٢ — الاطاحة بالعرش والملك في المهد

ربما كانت هذه الولادة التي جاءت قبل الأوان هي التي جلبت السكارته على رأس الملك المتهور . واتفقت انجلترا البروتستانتية مع جيمس في أن هذا الولد قد يواصل السعي لإطاحة الكاثوليكية ، ومن ثم يمكن القول بأنها خشيته لنفس السبب الذي أحبه الملك من أجله وأنكرت انجلترا البروتستانتية في أول الأمر ، بنوة الطفل للملك . واتهمت الجزويت بأنهم دسوا إلى مخدع الملك وليداً اشتروه ، كجزء من مؤامرة أرادوا منها إبعاد الابنه البروتستانتية ماري عن ورائه العرش . وانعطفت انجلترا أكثر فأكثر نحو ماري ، على أنها أمل البروتستانتية الانجليزيه ، ووطنت النفس على القيام بثورة أخرى لاجلاس ماري على العرش لتسكون ملكة انجلترا .

ولكن ماري كانت آنذاك زوجه وليم أورانج الثالث ، رئيس الدولة في المقاطعات المتحدة . ماذا يقول وليم المزهو بنفسه في أنه مجرد زوج الملكة ؟ لماذا لا يعرض عليه الاشتراك في الحكم مع ماري ؟ وفوق كل شيء ، أنه هو أيضاً يجري في عروقه الدم الملكي الانجليزي . أن أمه كانت ماري أخرى ، وكانت ابنة شارل الأول . وايس في نيه وليم على أية حال أن يلعب دور الزوج لازوجه الملكة . ومن الجائز أن الاستف بيرت الذي كان قد اتخذ سبيله إلى القارة هرباً ، عند إرتقاء جيمس العرش - أقنع ماري ، بايعاز (١٧) من وليم ، أن تتعهد بالطاعة التامة لوليم « في كل الأمور » أيا كانت السلطه التي تخولها التصرف فيها ، فوافقت على « أن يكون الحكم والسلطه في يديه هو ، لأنها لا ترغب إلا في أن يعمل هو بالوصية التي تقول : أيتها الأزواج أحبوا زوجاتكم ، كما تعمل هي بالوصيه التي تقول : أيتها الزوجات أطعن أزواجكن في كل شيء » (١٨) . وتقبل وليم الطاعه ، ولكنه تجاهل التلميح الرقيق إلى علاقته بعشيقته السيدة

فليبر (١٩) ، فان الحكام البروتستانت أيضا ، يحوز لهم فوق كل شيء ، أن يخدموا أو يخونوا زوجاتهم .

إن وليم الذي يحارب لويس الرابع عشر حفاظا على استقلال هولنده والبروتستانتية ، راوده الأمل لبعض الوقت في كسب والد زوجته (جيمس) في تحالف ضد ملك فرنسا الذي كان يحطم توازن القوى والحريات في أوروبا ، ولما خاب فآله ، صمد إلى التفاوض مع الإنجليز الذين تزعموا حركة للمقاومة ضد جيمس . إنه تغاضى من قبل عن الحملة التي إنظمها مونتوث على الأرض الهولندية ضد الملك جيمس ، وسمح لها بالإقلاع من أحد الثغور الهولندية دون طاق (٢٠) ، وخشى بحق أن يكون جيمس قد دبر خطة لإعلان عدم أهليته لوراثة عرش إنجلترا . ومتى ولد للملك ابن فمن الواضح أن يسقط حق ماري في العرش . وفي أوائل ١٦٨٧ أوفد وليم أفرهارد فان دي كفلت إلى إنجلترا ليقم علاقات ودية مع زعماء البروتستانت . وطادت البعثة برسائل مبشرة من مركيز هاليفاكس ، وأرسل شروزبرى وأرل كلارندون (ابن رئيس اللوردات السابق) ومن داني ، والأسقف كمتون وغيرهم . وكانت الرسائل فامضة مبهمة إلى حد لا يثم عن خيانة صريحة ، ولكنها انطوت على تأييد حار لوليم في نضاله من أجل العرش .

وفي يونيو ١٦٨٧ أصدر كاسبار فاجل ، الحاكم العام ، رسالة أوضح فيها بصورة جازمة آراء وليم في التسامح . إن وليم يريد حرية العبادة للجميع ولكنه يعارض إلغاء « قانون الاختبار » الذي يقصر حق تولي الوظائف العامة على أتباع المذهب الأنجليكاني (٢١) . أن هذا البيان الرسمي للتحفظ أكسب وليم تأييد الأنجليكانيين البارزين . ولما قضي . ولد ابن لجيمس على فرص وليم في أن يخلفه (جيمس) قرر زعماء البروتستانت دعوة وليم للقدوم والاستيلاء على العرش عنوة . ووقع الدعوة (٣٠ يونيو ١٦٨٨) إرل شروزبرى الثاني عشر ، دوق ديفونشير الأول ، إرل داني ، إرل سكاربره ، وأمير البحر ادوارد رسل (ابن عم وليم رسل الذي أعدم في

١٦٨٣) هتري سدنې (أخو الجرنون) ، والأسقف كبتون . أما هاليفاكس فإنه لم يوقع متذرعاً بأنه يؤثر المعارضة الدستورية . ولكن كثيرين غير هؤلاء ، من بينهم سندرلند وجون تشرشل ، وكلاهما آنذاك في خدمة جنبيه (بعثوا إلى وليم يؤكدون مساندتهم له (٢٢) . وكان الموقمون يعلمون علم اليقين أن دعوتهم خيانية ، ولكنهم وضعوا حياتهم على أكتفهم صمداً ، ونذروا أموالهم للمغامرة ، من ذلك أق شروزبرى الكاثوليكي السابق الذي تحول إلى البروتستانتية ، رهن ضياعه نظير أربعين ألف جنيهه ، وعبر البحر إلى هولنده ليساعد في توجيه الغزو (٢٣) .

ولم يكن في مقدور وليم أن يتخذ أي إجراء فوري . لأنه لم يكن على ثقة من شعبه . كما كان يخشى أن يجدد لويس الرابع عشر هجومه على هولنده في أية لحظة . وخشيت الولايات الألمانية كذلك مهاجمة فرنسا لها ، ومع ذلك لم تبد هذه الولايات اعتراضاً على غزو وليم لانجلترا ، لعلها بأن الهدف الاسمي لوليم هو كبح جماح ملك البوربون . أما حكومتا آل هابسبرج في النمسا وأسبانيا فقد نسيتا كذلك كيتهما في بغضهما للملك لويس الرابع عشر ، وأقرتا خلع ملك كاثوليكي يصادق فرنسا بل أن البابا نفسه منح الحملة بركته ورضاءه السامي . ومن ثم أصبح بإذن من الدول الكاثوليكية أن يأخذ وليم البروتستانتى على عاتقه الإطاحة بجيمس الكاثوليكي وتمجيد لويس وجيمس كلاهما الغزو ، وأعلن لويس أن روابط «الصدقة والتحالف» القائمة بين انجلترا وفرنسا تحتم عليه أن يعان الحرب على كل من يغزو انجلترا . ولكن جيمس الذى خشى أن يؤدي هذا البيان إلى توحيد صفوف رعاياه البروتستانت ضده بشكل أقوى ، نفي وجود مثل هذا التحالف ، ورفض مساعدة فرنسا له . وانهصر غضب لويس الرابع عشر على استراتيجيته ، فأمر جيوشه بمهاجمة ألمانيا ، لاهولنده (٢٥ سبتمبر ١٦٨٨) ، ووافقت الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة ، التي تحررت لبعض الوقت من الخوف من فرنسا ، على أن يقود وليم حملته قد تؤدي بإنجلترا إلى الدخول في

تمحالف ضد فرنسا .

وفي ١٩ أكتوبر تحرك الأسطول — خمسين سفينة حربية ، وخمسمائة سفينة نقل ، وخسمائة فارس ، وأحد عشر ألفاً من المشاة ، بما فيهم عدد كبير من الهيجونوت اللاجئين من الاضطهاد في فرنسا . وصدت الرياح الأسطول ، فانتظر حتى يهب « نسيم بروتستانتى » (مؤات) ، وأقلع ثانية في أول نوفمبر . وخرج أسطول إنجليزى ليعترض سبيله ، ولكن سرقة العاصفة . وفي ٥ نوفمبر ، وهو يوم عطلة وطنية احتفالاً بذكرى « مؤامرة البارود » ألقى الغزاة مراسيمهم في « ثورباى » ، وهو منفذ على المانش على شاطئ دورستشير . ولم يلق الغزاة أية مقاومة ، ولكنهم كذلك لم يلقوا أى ترحيب . فإن الناس لم يكونوا قد نسوا جفرين وكيرك . وأصدر جيمس أوامره إلى جيشه بالتجمع في سالسبورى تحت أمرة لورد جون تشرشل ، ولحق للملك به هناك ، ولكنه وجد القوات يعوزها الولاء والاخلاص ، ينحيم عليها الفتور إلى حد الإرتياب فى اشتراكهم فى معركة ، فامر بالتقهقر ، وفى تلك الليلة (٢٣ نوفمبر) إنحاز تشرشل واثنان من كبار الضباط فى جيش الملك إلى وليم مع أربعمئة رجل (٢٤) . وبعد ذلك بأيام قلائل انضم جورج الدنركى ، زوج الأميرة آن ابنة جيمس ، إلى جماعة الخارجين على الملك ، والذين يتزايد عددهم ، ووجد الملك التمس ، لدى عودته إلى لندن ، أن ابنته آن وسارا جنجىز زوجة تشرشل قد هربتا إلى نوتنجهام . وتحطمت روح الملك الذى كان يوماً مزهواً مختالاً ، حين وجد أن ابنتيه كلتيهما قد انقلبتا ضده . فأوفد هاليفاكس للتفاوض مع وليم وفى ١١ ديسمبر غادر الملك نفسه عاصمة ملكه . ولما عاد هاليفاكس من الجبهة ، وجد الأمة بلا رئيس ولا زعيم ، فعمد جماعة من النبلاء إلى تنصيبه رئيساً لحكومة مؤقتة . وفى يوم ١٣ تسلموا من جيمس رسالة تقول بأنه وقع فى أيدى الأعداء ، فى فافرشام فى كنت . فأنفذوا بعض القوات لانتقاذه ، وفى يوم ١٦ عاد الملك الذليل إلى قصر هويتسهول وأرسل

وليم أثناء تقدمه نحو لندن ، بعض حراس هولنديين زودهم بتعليمات بأن يحملوا جيمس إلى روشستر ، وهناك يسهلون له طريق الفرار . وقد كان ، ووقع جيمس في الفخ الذي نصب له ، وغادر إنجلترا إلى فرنسا (٢٣ ديسمبر) . وعمر ثلاثة عشر عاماً بعد سقوطه ، ولكنه لم ير إنجلترا ثانية قط .

ووصل وليم إلى لندن في التاسع عشر من ديسمبر . واستغل انتصاره في حزم وحذر واعتدال ممتاز ، ووضع حدا للشغب الذي آثاره البروتستانت في لندن وسلبوا فيه منازل الكاثوليك وأحرقوها . وبناء على طلب الحكومة المؤقتة ، دعا اللوردات والأساقفة وأعضاء البرلمان السابقين للاجتماع في كوفنتري . وأعلن « المؤتمر » الذي انعقد هناك في أول فبراير ١٦٨٩ أن جيمس اعتزل العرش بفراره . وعرض المجتعمون أن يتوجوا ماري ملكة ، ويرتضوا وليم نائبا لها . فقبلا (١٣ فبراير) . ولكن المؤتمر قرن هذا العرض « بإعلان الحقوق » الذي سنه وأصدره البرلمان من جديد في ١٦ ديسمبر على أنه « وثيقة الحقوق » ، وأصبح (بالرغم من عدم موافقه وليم عليه مراحلة) جزءاً حيويًا أساسيًا في قوانين المملكة :

حيث أن الملك السابق جيمس الثاني .. سعى جهده أن يدمر ويستأصل العقيدة البروتستانتية وقوانين وحریات هذه المملكة من جذورها :

١ — باتتحاله لنفسه وممارسته سلطه التحلل من القوانين وإلغائها ، أو تنفيذها دون موافقه البرلمان . .

٣ — بإشياء « محكمة خاصه بالقضايا الدينيه » .

٤ — بمجباية أموال من أجل الملك وليستخدها هو ، بحجه الامتيازات والحقوق الملكيه ، في غير الوقت ولغير الغرض اللذين أقرهما البرلمان .

• — بتجنيد جيش ثابت والاحتفاظ به دون موافقه البرلمان .

٧ — بإقامه الدعوى أمام « محكمة الملك » في مسائل وقضايا هي من إختصاص البرلمان وحده .

وكل هذا يتعارض تماما ، وبطريق مباشر ، مع قوانين هذه المملكة

وشرائعها المعروفة . ولما كانوا (أعضاء البرلمان - المجتمعون) على ثقة تامة من أن . . أمير أوراج . . سوف يحميهم من إهدار حقوقهم التي أثبتوها هنا ، ومن أية محاولات أخرى للاعتداء على حقوقهم الدينية وحررياتهم ، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المجتمعين في وستمنستر ، يقررون أن يعينوا وليم وماري ، أمير وأميرة أوراج ، ملكا وملكة على إنجلترا وفرنسا وأيرلنده ، وأن يقسم اليمين المذكورة بعد ، كل الأشخاص الذين يتطلب القانون منهم أن يقسموا يمين الولاء . .

« أقسم أنا (س من الناس) أن أمقت وأبغض وأبذ من كل قلبي على أنها كفر وهرطقة ، تلك النظرية الدنسة اللعينة . . التي تقول بأنه يجب أن يخلع أو يقتل ، بيد رعاياه أو غيرهم أيًا كانوا ، كل أمير يصدر ضده البابا أو أية هيئة في المقر البابوي في رومه ، قرارا بالحرمان من الكنيسة أو من العرش . . كما أعلن أنه ليس ، ولا ينبغي أن يكون . لأي حاكم أو فرد أو مطران أو دولة أو عاهل أجنبي ، أية ولاية أو سلطه أو سيادة أو سلطان . . في هذه المملكة . أسألك العون على هذا يارب . »

وحيث ثبت بالتجربة أنه لا يتفق مع سلامه هذه المملكة ولا مع مصلحتها أن يحكمها أمير مناصر للبابا ، أو ملك أو ملكة متزوجة من أحد أشياع البابا ، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المذكورين يرجون فوق ذلك أن يسن تشريع يقضى بأن كل شخص أو أشخاص يذعنون أو سيدعنون للبابا أو الكنيسة في رومه ، أو تكون أو ستكون لهم علاقة بهما ، أو سيدعنون بالمذهب البابوي ، أو يتزوجون من نصيرات البابا والمشايخ له ، يجب استبعادهم وجرمانهم إلى الأبد من وراثته أو إمتلاك أو التمتع بتاج وحكومة هذه المملكة (٢٥) .

أن هذا الإعلان التاريخي عبر من النتائج الجوهرية لما أتمته إنجلترا البروتستانتية « الثورة الجليلا » : وهي الاعتراف الصريح بالسيادة التشريعية لبرلمان ، التي طالما نازع فيها أربعة منوك من آل ستيوارت ، وحماية المواطن

ضد السلطة التمسكية للحكومة ، واستبعاد الكاثوليك من تولى عرش إنجلترا أو المشاركة فيه . وبلى هذه النتائج في الأهمية ، هو ادماج سلطة الحكومة في الارستقراطية مالكة الأرض ، لأن الثورة بدأها كبار النبلاء ، وسار بها إلى غايتها صغار الملاك الممثلون في مجلس العموم . وواقع الأمر أن الملكية المطلقة « المتمسكة » بحق الملك الإلهي ، تحولت إلى أوليغاركية اقليمية أو ذات علاقة بالملكية الخاصة للأرض . وهي أوليغاركية تميزت بالاعتدال والجد والبراعة في إدارة دفة الحكم ، متعاونة مع ملوك الصناعات والتجارة والمال ، كما أهملت بصفه عامه أمر الحرفيين والفلاحين . إن الطبقات المتوسطة العليا أفادت من الثورة بصورة فعليه . واستردت مدن إنجلترا حريتها ، لتحكمها أوليغاركيات التجار المستغلين . أن تجار لندن الذين أحجموا من قبل عن مساعدة جيمس ، أقرضوا وليم مائتي ألف جنيه فيما بين وصوله إلى العاصمة ، وتسلمه اعتمادات البرلمان لأول مرة (٢٦) . إن هذا القرض عزز اتفاقه غير مسطورة : فالتجار يتركون لملاك الأرض حكم إنجلترا ، على أن توجه الارستقراطية الحاكمة سياسته البلاد الخارجيه نحو المصالح التجارية ، وتحرر التجار أكثر فأكثر من النظم الرسمي .

وإنه عناصر مخزيه غير كريمه كانت في « الثورة الجليله » (٢٧) . فما يبدو أنه مدعاة الأسف أن تضطر إنجلترا إلى استدعاء جيش من هولنده ليهلح من أخطاء الإنجليز أنفسهم ، وأن تساعد الإبنه على خلع أبيها عن عرشه ، وأن ينحاز قائد جيشه إلى الغزاة ، وأن تشارك الكنيسه الوطنيه في الإطاحة بملك سبق لهذه الكنيسه أن بررت وقدست سلطته الإلهيه المطلقه في وجه أليه ثورة أو أي عصيان . كما كان مدعاة الأسف أن يكون تثبيت سيادة البرلمان على حساب مناهضه حريه العبادة . ولكن السيئات التي اقترفتها هؤلاء الرجال والنساء طويت في الأحداث مع رقائهم ، أما حسناتهم التي أدوها فقد بقيت بعدهم وآت أكلها . أنهم حتى في إقامة الأوليغاركيه وضعوا أسس ديمقراطيه كان لا بد أن تنشأ مع توسيع القاعدة الانتخابية .

وجعلوا من دار الرجل الانجليزى قلعة ، آمننا نسبنا من « عجرفة الحكم » و « أخطاء الظلم » وأسهموا إلى حد ما فى هذا التوفيق الذى يدعو إلى الإعجاب بين النظام والحرية ، وهذا هو قوام الحكومة الانجليزية اليوم . إنهم فعلوا هذا كله دون اراقة قطرة من الدم ، اللهم إلا ما نزل من أنف الملك المنزعج المنهوك الآخرق الذى تخلى عنه الجميع فى ساعة العسرة .

٣ — انجلترا تحت حكم ولیم الثالث ١٦٨٩ — ١٧٠٢

عين للملك لمجلسه الخاص : داني رئيسا ، وهاليفنا كس حاملا للأختام الملكية ، وإرل شروزبرى وإرل نوتنجهام وزيرين ، وإرل بورتلاند رئيسا للخامسة الملكية ، وجلبرت بيرت أسقف سالسبورى .

وكان أبرز هذه الشخصيات وأكثرها نفوذاً هو جورج سافيل مركز هاليفنا كس . ولما كان ابن أخى لورد سترافورد الذى أعده البرلمان الطويل من قبل ، فإنه — أى هاليفنا كس — كان قد فقد جزءاً كبيراً من ممتلكاته فى الثورة الكبرى ، ولكنه كان قد أنقذ ما يكفيه لعيش رغيد فى فرنسا أيام حكم كرومول . وهناك عثر على « مقالات » مونتاني ، وأصبح فيلسوفاً . وإذا كان للمركز قد ارتقى فيما بعد من السياسة إلى فن الحكم ، فما ذاك إلا لأن الفرق بين السياسة وفن الحكم هو الفلسفة أى القدرة على رؤية اللحظة العابرة والجزء الصغير فى ضوء الزمن الخالد ، والكل الذى يضم كل الأجزاء ، ولم يكن هاليفنا كس ليرضى قط بأن يكون كله رجل أعمال وكتب يقول : « إن حكومة العالم (يعنى حكم الشعوب) عمل عظيم ، ولكنه شاق خشن جداً كذلك ، إذا قورن برقة للمعرفة التأملية (١٢٨) » . فقد كان على السياسة فى بعض الأحيان أن تتعامل مع الجماهير وهو ما أزعج هاليفنا كس . إن فى الجمع من الناس قساوة مثراكية ، على الرغم من أنه ليس بينهم فرد واحد بالذات ردىء الطبع . . . ان الغمضة الغاضبة فى حشد

من الناس من ألهم وأسوأ الضوضاء في العالم » (٢٩) . لقد عاش من قبل في ظل « الارهاب البابوي » حين كانت الجماهير تقذف الرعب في المحاكم . ومذ رأى كثيراً من المذاهب الدينية للولعة بكسب الانصار ، طرح معظم اللاهوت ، إلى حسد أنه ، كما يقول بيرنت « تحول إلى ملحد جريء ثابت العزم ، على الرغم من أنه كان غالباً ما يحتاج إلى بأنه ليس كذلك ، وأنه قال أنه يعتقد أنه ليس في العالم رجل ملحد . واعترف بأنه لم يستسغ كل ما فرضه رجال الدين على العالم . وكان مسيحياً ، امتثالاً ، وآمن قدر طاقته » (٣٠)

وعندما عاد إلى إنجلترا استرد ممتلكاته ، وبلغ من الثراء حداً استطاع معه أن يكون أميناً . وخدم شارل الثاني حتى علم بأمر « معاهدة دوفر » المرية . ودافع عن حق جيمس في عرش إنجلترا ، ولكن طارض في إلغاء « قانون الاختبار » ، وتطلع إلى حكم بروتستانتى بعد فترة حكم كاثوليكي قصيرة . وحقق آماله حين لعب دوراً قيادياً في انتقال الحكم بطريقة سلمية من جيمس الثاني إلى وليم الثالث . والتزم هاليفا كس بما يعتقده هو أنه حق ، وما كان لينحاز إلى أى حزب . وكتب في « أفسكار وتأملات » : « ان الجهول يقود معظم الناس إلى الانضمام إلى حزب ما ، والجهل يحول بينهم وبين الخروج منه » (٣١) . ولما هوجم بسبب خروجه على اتجاهات الحزب ، دافع عن نفسه في كتيب مشهور « شخصية الحول القلب »

إن اللفظة البريئة (قلب حول) لا تعنى أكثر من أنه إذا كانت مجموعة من الرجال في قارب . ومال به قسم منهم إلى جانب ، فلا بد أن يميل الباقون بنفس القدر إلى الجانب الآخر ، ويحدث أن يكون هناك رأى ثالث لأولئك الذين يرون أنه يكفى أن يكون القارب مستويا أو متعدلاً (٣٢) .

وكان في بعض الأحيان عديم الضمير ، فصيحاً دائماً ، ذكياً بشكل خطير ولما اجتاحت صائدوا المناصب الذين ادعوا مساعدة الثورة ، بلاط وليم الثالث ناصبوه العداء لأنه قال : « إن الأوز أنقذ رومه ، ولكن لا أذكر أن

هذه الأوزات هيئت في مناصب القناصل « (٣٣) (١)

ولابد أن هاليفنا كس ابتم ساخراً عندما حول « للوثمر » نفسه الى برلمان ، ثم عمد إلى ما حسبه أول ما تحتاج إليه الحكومة — ألا هو قسم جديد للولاء والطاعة لوليم الثالث ، لا بوصفه رئيساً للدولة فحسب ، بل للكنيسة الرسمية كذلك . انها لإحدى مهازل التاريخ للضحكة ، إن الكنيسة الأنجليكانية وهي التي ظلت لمدة قرن من الزمان تضطهد الكلفنيين (البرسبترينانز ، والبيوريتانز وغيرهم من مخالفينها) تقبل الآن رئيساً لها كلفنيا هولنديا .

إن أربعائة من رجال الدين الأنجليكانيين للتمسكين بنظرية « حقوق الملوك الالهية » ومن ثم ينادون حق ولیم في الحكم ، رفضوا أن يؤدوا القسم الجديد . وعزل هؤلاء الرافضون « من وظائفهم الكنسية ، وشكلوا شعبة أخرى من المنشقين أو المخالفين . أما الذين أقسموا اليمين فإن كثيراً منهم فعلوا ما فعلوا مع « تحفظ عقلي » (٣٥) ربما أضحك الجزويت الباقين في انجلترا . ويرى بيرنت « أن مراوغة الكثيرين ومواربتهم في موضوع يمثل هذه القدسية أسهم إسهاماً غير قليل في تدعيم الاتحاد الآخذ في التفاقم (٣٦) « وصعق الأنجليكانيون من ذوى المشارب والأمزجة المختلفة ، حين ألغى ولیم — إذعانا للشعور السائد بشكل طاغ في اسكتلندة — ألغى هناك النظام الأسقفي الذي كان آل ستيوارت قد أقاموه قسراً . وحزن كثير من الأنجليكانيين حين ألغوا ولیم يجنح إلى التسامح الديني .

إن ولیم الذي نشأ في أحضان الكلفنية الجبرية المؤمنة بالقضاء والقدر لم يطق تعاطفاً مع وجهة النظر الأنجليكانية التي تقضى بإقصاء البرسبترينانز عن الوظائف العامة أو مقاعد البرلمان . انه شجع بالفعل التسامح في المقاطعات

(١) ان قاعة الأوز المقدس المنزهج في السكايتول أيقظت المامية الرومانية لاصد

بخارة ليلية قام بها السكت في ٢٩٠ ق م (٣٤)

للتحدة ، ولم يكن يسمح بأى تمييز ديني في صداقاته . إن السكفنية الجبرية كانت قد أصبحت بالنسبة لوليم ثقة في النفس وكأنها حامل من عوامل القدر . وفي ظل هذه الثقة ينظر ، دون ما تعصب ، إلى الانشقاق الديني على أنه في حد ذاته أداة من أدوات تلك « القوة الخفية » أكثر منها شخصية التي مماها تارة « الحظ » وتارة « العناية الإلهية » وأخرى « الله » (٣٧) . ورأى في الخلاقات الدينية في إنجلترا قوة تمزق الأمة اربا إذا لم يحده التهام والمحبة من مثل هذه القوة .

وكانت خطوة بارعة من جانب المجلس الخصوص (أو مجلس الملك) أن يعهد بتقديم « قانون التسامح » الذي أعده ، إلى البرلمان ، إلى نوتنجهام الذي عرف بأنه ابن غيور بار للكنيسة الأنجليكانية . وأبطل دفاع نوتنجهام عن هذا القانون أمام البرلمان حجة المعارضين للمتشددين وجردهم من سلاحهم وهكذا أقر المجلس أول انجازات العهد الجديد دون معارضة تذكر (٢٤ مايو ١٦٨٩) . وسمح هذا القانون بحرية العبادة العلنية لكل الفرق التي سلمت بمبدأ التثليث وبأن الكتاب المقدس نزل به الوحي ، والتي نبذت صراحة تحول خبز القربان والخمر إلى جسد المسيح ودمه ، وسيادة البابا الدينية . وسمح لأنصار تجديد العهد بتأجيله إلى سن البسوخ . وبعقضى « قانون تثبيت التسامح » الذي صدر في ١٦٩٦ سمح للسكويكرز باستبدال وعد قاطع بالقسم سالف الذكر . واستثنى التوحيديون والسكاثوليك من التسامح . وقام ولیم ومجلسه في مشروع « قانون التسامح الشامل » الذي قدم في أواخر ١٦٨٩ ، بمحاولة للسماح بدخول كل طوائف المنشقين إلى الكنيسة الأنجليكانية ، ولكن لم تتم الموافقة على هذه الخطوة . وظل المنشقون محرومين من الجامعات ومن مقاعد البرلمان ومن الوظائف العامة إلا إذا تلقوا الأسرار المقدسة وفقاً للطقوس الأنجليكانية ، وحدث في ١٦٩٧ العمل بقانون يقضى بعقوبة السجن على من يهاجم أية نظرية مسيحية أساسية . ولم يصدر بعد ذلك أى تشريع بالتوسع في الحرية الدينية في إنجلترا حتى ١٧٧٨

وعلى الرغم من ذلك كان التسامح هنا أكبر منه في أية دولة أوروبية أخرى بعد ١٦٨٥ ، باستثناء للمقاطعات المتحدة . والواقع أن التسامح اتسعت دائرته في إنجلترا بازدياد قوة إنجلترا إلى الحد الذي تحررت معه من مخاوفها من أن تغزوها أية دولة كاثوليكية أو تعمل على تخريبها في الداخل .

إن الكاثوليك أنفسهم نعموا في عهد وليم بأمن متزايد . وأوضح الملك أنه ليس في مقدوره أن يحتفظ بالأحلاف مع الدول الكاثوليكية إذا هو صب العذاب والظلم على رؤوس الكاثوليك في إنجلترا (٣٨) . وظل المساواة الكاثوليك لعشر سنوات يقيمون القداس في دور خاصة . وما كان أحد ليتحرش بهم لو تستروا في شيء من الحزم والحكمة ، أمام الجمهور . وفي أخريات عهد وليم (١٦٩٩) ، حين كان للمحافظين (أنصار السلطة الملكية المطلقة) والمتشددين ، الغلبة في البرلمان ، شددت القوانين ضد الكاثوليك ، فتمرض العقوبة السجن مدى الحياة أى كاهن يبدان باقامة القداس أو أداء أية مهمة كهنوتية أخرى إلا في دار أحد السفراء . وتنفيذا للقانون كانت ثمة مكافأة قدرها مائة جنيه لمن يدبر الإدانة . ونص القانون على نفس العقوبة لأي كاثوليكي يقوم بالتعليم العام للصغار . وما كان يجوز للوالدين أن يرسلوا أولادهم إلى الخارج لتلقى العلم وفق للمذهب الكاثوليكي . وما كان يجوز لأي فرد أن يشتري أو يرث أرضا إلا بعد أداء القسم على أن الملك رئيس الكنيسة ، وعلى أنه لا يؤمن بتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . وصودر من أجل الحكومة ارث أي فرد امتنع عن أداء القسم (٣٩) . وفي ١٦٨٩ عفا وليم عن تيتس أوتس وأجرى عليه معاشا .

وجلب الكاثوليك في أيرلنده على أنفسهم اضطهادا مجددا بتنظيمهم ثورة تهدف إلى إطاحة جيمس الثاني إلى العرش . ذلك أن ريتشارد تاليوت جمع جيشا قوامه ٣٦ ألف رجل ودعا جيمس للتقدم من فرنسا ليتولى قيادته . وكان لويس الرابع عشر قد أسكن الملك المخلوع أحد قصوره في سان جرمان ، وخصص له ستائة ألف فرنك سنويا ، وجيز له الآن أسطولا

و إلى ميناء برست ، وودعه بكلمات مشهورة : « أن أحسن ما أرجوه لك ألا يرى الواحد منا الآخر ثانية أبدا » (٤٠) . وفي ١٢ مارس ١٦٨٩ ألقى جيمس مراسيه في أيرلنده مع ألف ومائتي رجل ، ورافقه تالبوت إلى دبلن ، حيث دعا برلمانا أيرلنديا ، وأعلن حرية العبادة لكل الرعايا المخلصين . واجتمع البرلمان في ٧ مايو وألقى « قانون التسوية » الذي صدر في ١٦٥٢ ، وأمر بإعادة الأراضي التي انتزعت من أصحابها منذ ١٦٤١ إلى ملاكها السابقين . وأرسل وليم قائده الهيجونوتي شومبرج إلى أيرلنده على رأس عشرة آلاف جندي . ورد لويس الرابع عشر على ذلك بإرسال سبعة آلاف من الفرنسيين المحنكين لمساعدة جيمس . وعبر وليم بنفسه إلى أيرلنده في يونيو ١٦٩٠ . فلما ألتقى الجمعان في معركة بوين (أول يولييه) فر جيمس من الميدان مذعورا ، ولو أنه اشتهر بالبسالة يوما ، حين رأى قواته تنهزم . وسرطان ماعاد أدراجه إلى سان جرمان .

وربما ابتهج وليم بمقد الصلح وإقرار السلام مع الأيرلنديين على أساس الوضع الراهن . ولكن الزعماء والقوات البروتستانتية الذين كانوا تحت أمرته ، طالبوا بالقضاء التام على العناصر الثورية ، وبالإستيلاء على المزيد من أراضي أيرلنده . وطاد وليم إلى انجلترا تاركا جيشه تحت قيادة جودرت دي جنكل ، إيرل أتلون آنذاك ، وكان شومبرج قد قضى محبه في انتصاره في بوين . وأوصى الملك جنكل بإصدار عفو عام دون قيد أو شرط ، وإطلاق حرية العبادة ، وبالإعفاء من أداء القسم بعدم الاعتراف بسيادة البابا ، وباسترداد الثوار لضياعهم شريطة أن يضعوا السلاح (٤١) . وعلى أساس هذه الشروط ضمن جنكل استسلام جولواي وليمرك وبمقتضى معاهدة ليمرك (٣ أكتوبر ١٦٩١) وافق الثوار الأيرلنديون على التسوية التي عرضها وليم . وفي مارس ١٦٩٢ صدر بيان ملكي يعلن انتهاء الحرب مع أيرلنده .

واستنكر البروتستانت في أيرلنده هذه المعاهدة على أنها استسلام

ذليل للبابويين ، ولجأوا إلى البرلمان الانجليزي . ووضع هذا البرلمان على الفور (٢٢ أكتوبر ١٦٩١) قانونا يحرم من عضوية برلمان أيرلنده ، كل من يمتنع عن أداء يمين السيادة وإعلان رفضه لفكرة تحول الخبز والخبز إلى جسد المسيح ودمه . ورفض البرلمان الأيرلندي الجديد ، وكان بروتستانقيا تماما ، الاعتراف بمعاهدة ليمرك . وعلى حين كان ولیم منهمكا في تكتيل أوربا ضد لويس الرابع عشر ، سن برلمان دبلن سلسلة جديدة من قوانين العقوبات ضد الكاثوليك في أيرلنده ، تنقض صراحة الصلح الذي وقعه ولیم وماري من قبل ، ونصت هذه القوانين على عدم شرعية للمدارس والكتليات الكاثوليكية ، وعلى أن القساوسة الكاثوليك معرضون للترحيل خارج البلاد ، وعلى أنه ليس للكاثوليك أن يحمل سلاحا ، أو يمتلك حصانا تزيد قيمته على خمسة جنيهات ، وعلى مصادرة أملاك أية وريثة بروتستانتية تزوج من كاثوليكي (٤٢) . واستمرت مصادرة أراضي أيرلنده حتى « لم يعد هناك في الواقع أرض تصادر » (٤٣) . وكاد يكون من المستحيل أن يكسب كاثوليكي أيرلندي قضية في محكمة أيرلندية ، وقل أن صدرت عقوبة على من يقترف جريمة ضد الكاثوليك . واستكمالا لخراب أيرلنده قضت قوانين برلمان إنجلترا قضاء تاما على صناعة الصوف التي كانت قد نمت إلى حد منافسة صناعة الصوف في إنجلترا ذاتها ، حيث حظرت هذه القوانين تصدير الصوف من أيرلنده إلى أي بلد آخر سوى إنجلترا ، وخنقت حتى هذه التجارة نفسها بما وضع من تعريفات جمركية معوقة همدا (١٦٩٦) . ومن ثم انتشر الفقر والتسول والمجاعة والتمرد على القانون في الجزيرة ، خارج نطاق « البسال » الانجليزي (قسم في شرق أيرلنده حول مدينة دبلن) . وفي الستين عاما التي أعقبت الثورة الجليلية هاجر من أيرلنده نصف الكاثوليك الذين كان عددهم يقرب من المليون في ١٦٨٨ ، أي أن أذكى الدماء وأطيب العناصر نزحت إلى البلاد الأجنبية .

وازدهرت آنذاك كل الطبقات الاقتصادية في إنجلترا فيما عدا طبقة

الكادحين (البروليتاريا) وطبقة الفلاحين . وعانى عمال النسيج من المنافسة الأجنبية ومن الاختراع . وفي ١٧١٠ أضرب عمال الجوارب بسبب ادخال أنوال الجوارب واستخدام الغلمان لتشغيلها لقاء أجور منخفضة (٤٤) على أن الانتاج القومى كان آخذاً في الارتفاع . ويمكن أن نحكم على هذا الارتفاع من زيادة متوسط إيرادات الحكومة من ٥٠٠ ألف جنيه في القرن السادس عشر إلى سبعة ملايين ونصف للمليون من الجنيهات في القرن السابع عشر (٤٥) . وقد ترجع الزيادة إلى حد ما إلى التضخم ، ولكنها نتجت أساساً من التوسع في الصناعة وفي التجارة الخارجية .

ومع هذا لم يكن الدخل كافياً ، لأن وليم كان يجند الجيوش لمحاربة لويس الرابع عشر ، فارتفعت الضرائب إلى حد لم يسبق له مثيل ، بل اشتدت الحاجة إلى مزيد من المال . وفي يناير ١٦٦٣ أحدث شارل مونتاجو — إيرل هاليفاكس الأول — بوصفه وزير الخزانة تغييراً أساسياً في مالية الحكومة ، باقناع البرلمان بطرح قرض عام قدره ٩٠٠ ألف جنيه ، ووعدت الحكومة بدفع ٧ ٪ فائدة سنوية عنه . وفي أخريات ١٦٦٣ ، حين زادت النفقات عن الإيرادات ، اتفق جماعة من أصحاب المصارف على اقراض الحكومة مبلغ مليون ومائتى ألف جنيه بفائدة قدرها ٨ ٪ . تحصل من رسم اضافى على السفن . وكانت فكرة القروض المتحدة (الجماعية) هذه ، قد اقترحها وليم باترسون قبل ذلك بثلاثة أعوام . وجاء الآن مونتاجو فعززها من الناحية الرسمية . وأقر البرلمان هذه الخطة . واتباعا للسوابق التى جرى عليها العمل فى جنوه والبنديقية وهولنده ، عمد المقرضون إلى تنظيم أنفسهم فيما يسمى « محافظو وشركة بنك انجلترا » الذى صدرت براءة تأسيسه فى ٢٧ يولييه ١٦٩٤ . واقترضوا هم النقود من مصادر مختلفة بسعر ٤ ٪ . واقترضوها للحكومة بسعر ٨ ٪ ، وجنوا أرباحاً اضافية عن طريق القيام بكل الأعمال المصرفية . وهكذا نشأ بنك انجلترا ، وقدم للحكومة قروضا أخرى . وفى ١٦٩٦ حصل من البرلمان على حق احتكار مثل هذه القروض .

وبعد تقلبات كثيرة مر بها هذا البنك ، أصبح العامل الرئيسي في استقرار الحكومة الانجليزية المشهور منذ اعتلاء وليم وماري عرش إنجلترا حتى يومنا هذا . ومنذ ١٦٩٤ أصدر البنك أوراقا نقدية تضمنها الودائع ، قابلة للدفع بالذهب ، عند الطلب . وتداولها المتعاملون على أنها مال قانوني ، فكانت أول عملة ورقية حقيقية غير زائفة في إنجلترا (٤٦) . (٥)

واشتهر عهد مونتاجو في وزارة الخزانة بعمل ممتاز آخر ، هو اصلاح العملة المعدنية . ذلك أن العملة الجيدة التي سكنت في عهد شارل الثاني وجيمس الثاني اختزأت أو صهرت أو صدرت . أما العملة للشوهره أو التالفه منذ أيام إليزابث وجيمس الأول ، فقد طرحت للتداول والاستعمال ، وفقدت في القوة الشرائية جزءا لا يستهان به من قيمتها الاسمية . ودعا مونتاجو أصدره جون لوك واسحق نيوتن وجون سومرز ليعيدوا لإنجلترا عملها أكثر استقرارا فصمموا قطع نقد جديدة ذات حافة مسننه تتحدى التشويه . واشتردوا العملة القديمة وسحبوها من التداول بقيمتها الاسمية ، وتحملت الحكومة الخسارة الناجمة عن ذلك . وصار لإنجلترا نقد ثابت صحيح ، كان مزار الخسد أوربا ، ومثالا تحتذيه . وفي ١٦٨٩ فتحت بورصة الأوراق المالية في لندن ، وبدأت فترة مضاربة مالية ، سرطان ما أنتجت « شركة البحر الجنوبي » (١٧١٩) وانفجار « فقاعتها » (١٧٢٠) . وفي ١٦٨٨ أقام إدوارد لويث في أحد مقاهي لندن شركة للتأمين تعرف الآن بكل بساطه تبعت على الفخر باسم « لويثز » وفي ١٦٩٣ أصدر آدم واند هاللي أول نشرة وفيلبيته معروفه . وأكدت هذه التطورات المالية ووسعت دور المصالح القائمة على المال في شئون إنجلترا ، وحسدت بداية الأهمية المتزايدة

(*) صدرت أول عملة ورقية معروفة في القرن السابع الميلادي في الصين على عهد أسرة تانج . ورأى ماركو بولو مثل هذه العملة في الصين ١٢٧٥ ، وحاول إدخال أساليب التعامل هذا الى إيطاليا . واستخدمت السويد أوراق العملة في ١٦٥٦ ومستعمرة ماساشوسيت ١٦٩٠ .

لرأسماليين - الذين يمدون برأس المال والدين بديرونه - في بريطانيا .
وفوق الاقتصاد الأخذ في التوسع احتدمت المعركة السياسية حول
النزاع على السلطة بين المحافظين (التوري) مالكي الأرض وبين الأحرار
(الهويج) جامعي الثروات ، وبين الإنجليز والاسكتلنديين ، وصحب هذا
مؤامرات لقتل وايم ، ومشروعات لاعادة جيمس إلى العرش . ولم يكن
وليم مهتما بالشئون الداخلية في إنجلترا ، انه غزاها أساساً ، ليجمع بينها
وبين هولنده (موطنه الأصلي) ودول أخرى ، لتقف جميعاً في وجه لويس
الرابع عشر ، أو كما قال هاليفاكس من قبل : « أنه استولى على إنجلترا وهو
في الطريق إلى فرنسا » (٤٨) . ولما اكتشف الإنجليز أن هذا هو شغله الشاغل
أوالشعور المستولى عليه فقد كل شمبيته ولم يعد ملكاً محبوباً . وقد يقسو
دون مبالاة ، كما حدث حين أمر باستئصال عشيرة مكند ونالد في جلنكو
لتأخرها في إعلان ولائها له (١٦٩٢) ، وكان « صموتا فظا غليظا في
المعاشرة » لأنه كان يتكلم الانجليزية بصعوبة . ولم يمن كثيراً بالسيدات .
وكان سلوكه على المائدة يدعو إلى الاشمئزاز ، حتى أطلق عليه سيدات
المجتمع في لندن « الدب الهولندي الوضيع » (٤٩) ، وأحاط نفسه بحراس
ورفاق هولنديين ، ولم يخف رأيه في تفوق الهولنديين تفوقاً عظيماً على
الإنجليز في المقدرة الاقتصادية والتفكير السياسي والأخلاقي وعلم أن
كثيراً من النبلاء يفاوضون جيمس الثاني سرا . ووجد الفساد يستشري
حوله إلى درجة تلوثه هو نفسه ، وانجر في شراء أصوات أعضاء البرلمان .
وكان الخبير كل الخبير فيما يمكن عمله لكبح جماح فرنسا الهائجة المتحفزة .
وحيث ترك ولیم الشئون الداخلية لوزرائه ، فقسد بدأ عهد الوزراء
الآقوياء (١٦٩٥) و « الوزارات » المتضامنة في المسؤولية والعمل ، والتي
يسيطر عليها رجل واحد ، هو في العادة وزير الخزانة . وفي ١٦٩٧ جاء
أعداؤه المحافظون (التوري) أثر انقلاب إنتخابي ، ومن ثم حدوا من
سلطانه ونازعوه سياسته الخارجية ، إلى حد أنه فكر في الاعتزال

(١٦٩٩) . ولكنه حين رقد رقدته الأخيرة (٨ مارس ١٧٠٢) وقد أنكر الربو والسل جسمه ، كان يمكن أن يتعزى عن هزأته في الداخل حين يدرك كل الإدراك أنه هياً لانجلترا مشاركة أكيدة في « الحلف الأعظم » (١٧٠١) الذى استطاع بعد اثني عشر عاما من الصراع ، أن يخضع ويذل الملك البوربونى العظيم ، وينقذ استقلال أوروبا البروتستانتية ، ويطلق يد انجلترا في بسط نفوذها على العالم .

٤ — إنجلترا في عهد الملكة آن : ١٧٠٢ - ١٧١٤

بعد وفاة الملكة ماري ١٦٩٥ أصبحت أختها آن وريثة العرش . ومذ نشأت آن وسط الخطر والشغب ، أصبحت بنتا مخلوعة الفؤاد ، قوية الخلق ، بسيطة التفكير ، قوية الشموخ ، تلتمس العزاء والسوى والجرأة في صداقة خاصة متواضعة مع رفيقة صباها ساره جننجز الضاحكة الوفية الشكاكة الواثقة من نفسها المفعمة بالحياة والنشاط . وفي ١٦٧٨ تزوجت سارة التى كانت تكبر آن بخمس سنين من جـون تشرشل ، وفي ١٦٨٣ تزوجت آن من الأمير جورج الدنركى . وحالف التوفيق الزوجين كليهما . ولكنهما لم تمسا العلاقة الوثيقة بين المرأتين . وتخلت آن عن كل الشكليات والرسميات ، فاطلقت مازحه على سارة (التي كانت آنذاك وصيفه مخدعها) « مسز فريمان » وأصرت على ألا تنادىها سارة « بالأميرة » بل « مسز مورلى » ولما تخلى الزوجان عن الملك جيمس وانحازا إلى وليم ، كأن أمام آن أن تختار بين أمرين أحلاهما مر : بين الوالد والزوج ، ولكن حبها لزوجها ولصديقتها أوجب عليها السفر إلى نوتنجهام (٢٨ نوفمبر ١٦٨٨) . وفي ١٩ ديسمبر عادة هى وسارة إلى لندن وإلى ملك أجنبى غريب عنهما .

لم تأخذ آن قط نفسها بحب وليم ، ولقد ما أحست بالامتهان والأذى والالم ، حين منح أحد أصدقائه ضيعة أبيها التى كان لها نصيب فيها . وكانت في ١٦٩١ تتطلع إلى عودة أبيها إلى عرشه . واشتبه وليم ، بحق ، في أن

تشرشل (إرل مالبرو آنذاك) وزوجته سارة تمحيطان له الدسائس مع الملك المخلوع. وأمرت الملكة ماري أختها آن بطرد سارة من بطانتها، ولكن الأميرة رفضت. وفي صباح اليوم التالي (يناير ١٦٩٢) عزل مالبرو من مناصبه الرسمية، وأبعد هو وسارة عن الحاشية، وبدلاً من أن تفترق الأميرة عن صديقتها، تمحدث الملك والملكة (وليم وماري) وغادرت قصر هويتول لتعيش مع سارة في «سيون هاوس». وفي ٤ مايو أودع مالبرو سجن لندن. وكثيراً ما كانت سارة تزوره هناك. وعرضت أن تنهى صداقتها للأميرة آن لتهدى من غضب الملكة. ولهذا كتبت آن لسارة تقول:

« في آخر مرة كان هنا وورستر، أبلغته أنك عرضت على عدة مرات أن تبتهدي عني... وإني لا توصل إليك، من أجل يسوع المسيح، ألا تعودى إلى مثل هذا الحديث ثانية. وإني لاؤكد لك أنك إن أقدمت على مثل هذه الجفوة القاسية، فإنى لن أنعم بلحظة من الهدوء والراحة بعد ذلك. فإن فعلت دون موافقتي، (ولو قدر لي أن أوافق لما كان لي أن أرى وجه الله قط) فلسوف أعتزل الحياة، ولا أرى العالم بعد ذلك، وأعيش حيث ينسأني البشر جميعاً (٥٠) ».

ولما لم يقيم أى دليل حاسم على اشتراك مالبرو في أية مؤامرة لاعادة جيمس إلى العرش، ولما كان وليم في مسيس الحاجة إلى قادة مهرة. فإنه أخلى سبيله وأعادته إلى سابق مكانته ونفوذه.

ولما أصبحت آن ملكة، وكانت آنذاك في سن الثامنة والثلاثين، بدل وغير إيثارها الخلق الكريم والأمانة والإخلاص والعزلة، من طبيعة البلاط الأنجليزى، فلم يحج، المولعون بالقصف والصخب واللهو والتعجور إليه منقذاً. وآووا ساخطين ناقلين إلى المقاهى واللواخير. وحل رجل الأخلاق أديسون محل روشستر المستهتر الخليع. وكتب ستيل «البطل المسيحى». وكان لتجنب الملكة آن التردد على المسرح ولتخوفج حياتها، بعض الأثر في تحسين أسلوب المسرح الإنجليزى. وعبرت الملكة عن ورعها

وتقواها بأن حوت إلى فقراء رجال الدين في الكنيسة الرسمية نصيب العرش في « بشائر النصار » والعشور الكنسية (١٧٠٤) ، ولاتزال الحكومة البريطانية تدفع « منحة الملكة آن » هذه . وأنجبت الملكة أطفالا في كل عام بانتظام تقريبا ، ولكنهم ماتوا في سن الطفولة عدا واحدا . ولم يبق على قيد الحياة بعدها منهم أحد . ولشد ما أظلمت حياتها وتحطم قلبها لكثرة ما شيعت من جنازات .

ولو كان في مقدور الملكة الآن أن تحدد هي السياسة القومية لعقدت الصلح مع فرنسا ، واعترفت بما طالب به أخوها من أبيها المتوفى ، أن يترفع على العرش تحت اسم جيمس الثالث . ولكن وليم الثالث بإرادته القوية كان قد أدخل إنجلترا في « الحلف الأعظم » كما أن الرجل الذي غلبت آراؤه ومشورته على كل ما عداها ، والذي كانت قد رفعتة فور اعتلائها العرش من إرل إلى دوق مالبرو ، نقول أن هذا الرجل أغراها بأن تشق في حكمها لمدة أكثر من عشر سنوات بحرب دامية باهظة التكاليف . وكانت لاتزال واقعه تحت تأثير صديقتها . وهي آنذاك دوقه والمشرقه على ملابس الملكة ، وعلى أموالها الخاصة . وكانت سارة تتقاضى ٥١٠٠ جنيه سنويا . واستغلت تأثيرها الذي كاد يكون مغناطيسيا على الملكة ، في زيادة ثراء زوجها ، فمين مالبرو قائدا عاما للقوات البرية . كما عين بناء على اقتراحه (صديقه سدني جودولفين وزيراً للخزانة لأنه كان أمينا بشكل شاذ ، كما كان قد ira في الشؤون المالية كما كان يمكن الاعتماد عليه في تحويل الأموال قورا إلى قادة الجيش الذين كان جنودهم يبدون من الشجاعة بقدر ما يقبضون من نقود . وقد يشوقنا أن نسجل أن جودولفين مات فقيراً ، بعد أن قضى نصف صره يضطلع بشؤون الخزانة ، وذهبت دوقه مالبرو العنيدة إلى أنه « خير من عاش من الرجال » (٥١) ومهما يكن من أمر فإنه قضى وقت فراغه في صراع الديكة ومسابق الخيل والميسر ، وهي رذائل معتدلة تعتبر مقاربه للمفضيلة .

أن تجرد آن من الدكاء والخطئه صمخ لوزرائها بالاستعواذ على قدر

كبير من السلطة وحقوق المبادرة التي كان البرلمان قد تركها للتاج ، ومن ثم
نشبت المعارك السياسية (فيما عدا فترة حكم جورج الثالث) بين البرلمان
والوزراء ، لا بين البرلمان والملك . وفي ١٧٠٤ دخل الوزارة شخصيات
جديدة : روبرت هارلي وزير الدولة ، وهنري سانت جون وزير للحرب .
ومس كلا الرجلين تاريخ الأدب مساهمات : فان هارلي كان يستخدم
ديفو وسوينجت ، كما كان سانت - بوصفه فيسكونت بولنجبروك فيما بعد -
ذا تأثير على بوب وفولتير ، كما أنه هو نفسه مؤلف أبحاث كانت يوما
مشهورة . « أبحاث في دراسة التاريخ » و « فكرة عن ملك يحب لوطنه » .
وكان كلا الوزيرين يد من الشراب ، ولكن هذا لم يكن ميزة في انجائهما
في ذاك الزمان . وكلاهما تولى منصبه بعون من مالبرو ، ولكنهما اقلبا
ضده بتهمة اطالة أمد حرب الوراثة الأسبانية دون مبرر يدعو إلى ذلك .

ولد سانت جون (١٦٧٨) في عهد شارل الثاني ، وتوفي (١٧٥١) في
أول سني « دائرة المعارف » ، ومن هنا مثل تمثيلا دقيقا عبور أوروبا من
عودة الملكية إلى عصر الاستنارة في فرنسا ، وتلقى أيام صباه تعليمًا دينيًا
كثيرا ، وأهدر قدرا كبيرا منه أيام كان رجلا . وأنه ليروي لنا :
« كنت أرغم حين كنت صبيا على قراءة تعليقات دكتور مانتون الذي
كان يفخر بأنه ألقى ١١٩ عظة عن المزمور رقم ١١٩ (٥٢) » وفي ايتون
وأكسفورد سعى جون وأحرز قصب السبق في الذكاء والتسكامل الخالي من
الهموم ، والانغماس في الملذات والادمان على الشراب في لبافة . وكان يفاخر
بأنه يتناول أكبر قدر من الخمر دون أن يشمل . وبأنه يخادن بهظ الماهرات
نفقة في المملكة (٥٢) . وفي لحظة أراد أن يسكتني فيها بواحدة تزوج من
ورثة ثرية . ولكنها سرعان ما هجرته لخياته . ولكنه استمر بنعم
بضياها ، مع بعض فترات انقطاع يسيرة . ووجد في ١٧٠١ أن الانتخاب
للبرلمان لا يكلف كثيرا ، نسبيا . وهناك حظي في مجلس العموم بنفوذ عظيم
نتيجة لوسامته وسرعة بديهته وبيانه المتدفق . ودخل الوزارة ولما تجاوز

السادسة والعشرين من العمر .

وكان أبرز انجازات هذه الوزارة هو توحيد برلمان إنجلترا واسكتلندة، فإن البلدين على الرغم من خضوعها للمليك واحد، كان لهما برلمانان منفصلان . واقتصاديات متعارضة ومذاهب دينية متنافرة ، وشنت كل منهما الحرب على . الأخرى ، زد على ذلك أن التعريفية الجركية التي أملاها الحقد والحسد بين البلدين عوقت تجارتها . وفي ١٦ يناير ١٧٠٧ وافق البرلمان الاسكتلندي ، وفي ٦ مارس صدقت الملكة ، على بنود « الاتحاد » التي بمقتضاها أصبحت المملكةتان — على حين احتفظت كل منهما بمذهبها الديني المستقل — « المملكة المتحدة » لبريطانيا العظمى ، ولها برلمان بريطاني واحد ، مع حرية مطلقة في الاتجار . على أن يختار ١٦ نبيلًا اسكتلنديا لمجلس اللوردات ، وينتخب ٤٠ عضوا في اسكتلندة لمجلس العموم ، وينضم صليب سان جورج وصليب سانت أندرو في علم جديد واحد . « اتحاد جاك » ولم يرحب أهالي اسكتلندة بالاندماج ، ولمدة نصف قرن من الزمان تفاقمت العداوات القديمة . ولكن ما جاءت ١٧٥٠ حتى اعترف الجميع بأن الاتحاد كان خيرا وبركة . وتخلصت اسكتلندة من نفقات مزدوجة ، وانطلقت طاقتها الفكرية لتبدع في النصف الثاني من القرن الثامن عشر با كورة نتاج مشرق من الأدب والفلسفة .

وعزل هارلي وسانت جون عن الوزارة أثر فوز الأحرار (الهويج) في أكتوبر ١٧٠٧ ، ولكن استمر تأثير نفوذ هارلي على الملكة عن طريق ابنة عمه « مسز أبيجيل ماشام » وكانت دوقة مالبرو قدمت هذه السيدة إلى الملكة آن من قبل . تخفف هدوؤها ولين عريكتها ورقة مزاجها عن الملكة التي أرهقت مسئولياتها الجديدة أعصابها كما أزعجت نظرات سارة وصوتها العنيف . ورحبت سارة لبعض الوقت بتحررها من مداومتها على البقاء في البلاط ، ولكنها سرعان ما فزعت حين اكتشفت تضائل نفوذها لدى الملكة : وكادت آن تكون بالطبيعة « محافظة — توري » تقية محبة للسلام ، على حين كانت سارة « متحررة — هويج » ضعيفة الإيمان ،

تسخر صراحة من حقوق الملوك الالهية على أنها تدجيل على الشعب وخداع له . وكم ألت على الملكة في تأييد مشيئة مالبرو في شن الحرب على فرنسا حتى يتم القضاء عليها . وكشفت آن عن شيء جديد من قوة العقل والتفكير بعد أن تقلص ظل سارة . وعندما ثارت نائرة ساره عليها بشكل وقع طردها من الحاشية (١٧١٠) ، وصرحت الملكة آنذاك بأنها تحررت من أسر طال أمده .

وفي نفس السنة مالفوز « المحافظين » في الانتخابات ، هارلى وبولنجبروك إلى الحكم ، وحل هارلى محل جودولفين في وزارة الخزانة ، وتولى بولنجبروك وزارة الحربية ، وأصبح جوناثان سوينف كاتب السكراسات والنشرات ، البالغ الأثر ، لهما . وعين هارلى إرل أكسفور (١٧١١) وحظى سات جون بلقب فيكونت بولنجبروك (١٧١٢) . وابتهمت موه سات لندن حين سمن نبأ ترقية بولنجبروك ، قائلات : « أنه يحصل على ثمانية آلاف جنيه في العام ، وكلها لنا » (*) . وقدمت الأغلبية « المحافظة » إلى المجلسين (١٧١١) مشروعا ينص على أنه يشترط لترشيح للبرلمان امتلاك أرض ذات دخل سنوى لا يقل عن ٣٠٠ جنيه لممثلى المدن ، وستائة جنيه لمدونى الريف (٥٤) . لقد بلغت الارستقراطية مالكة الأرض ذروتها آنذاك في إنجلترا .

واعتمدت الوزارة الجديدة — على حين رفض مالبرو — انتهاء الحرب بعقد صلح منفرد مع فرنسا . وفي ١٧١١ قدم هارلى إلى مجلس العموم اتهاما بالاختلاس ضد مالبرو . فتذرعوا بأن الدوق كان يجمع ثروة خلسة طائلة بوصفه القائد العام للقوات البريطانية ، وعن طريق مهام أخرى يتولاها ، وأنه بالاضافة إلى رواتبه السنوية التى تصل إلى نحو ٦٠ ألف جنيه . كان يقبض ستة آلاف جنيه سنويا من سيرسولومون مدينا متعهد توريد

(*) من رسالة مؤرخة : ٢ أبريل ١٧٦٩ ، للافاتير ، وهو لى الغالب كلدوب .

الخبز للجيش . وأنه اقتطع لنفسه خاصة ٢١٪ من اللبائغ التي كان يتسلمها من الحكومات الأجنبية لدفع رواتب القوات الأجنبية التي كانت تحت امرته . ولم توق عمارة قصر بلنهم الضخم لأحد إلا لعين مهندس . وكان مالبرو يشيد هذا القصر في وودستوك قرب أكسفورد . وكانت الملكة قد أمرت أن تتولى الحكومة الانفاق على بنائه . وشرعوا في البناء ١٧٠٥ ، ولم يتم في ١٧١١ إلا نصفه الذي تكلف ١٣٤ ألف جنيه بالفعل (٥٥) ، وكان اتمامه يستلزم مبلغ ٣٠٠ ألف جنيه دفعت الحكومة أربعة أخماسه (٥٦) .

ودفع مالبرو بأن المبلغ المقتطع (٢١٪) كان مسموحا به بحكم العادة والعرف للقائد للصرف منه — دون تسجيل علني في الحسابات — على الخدمات السرية وأعمال التجسس التي أتت بأحسن النتائج . وأبرز ترخيصا موقعا من الملكة تجيز له الاقتطاع ، كما أكد الحلفاء الأجانب أنهم أيضا فوضوه في الاقتطاع ، وزاد ناخب هانوفر على ذلك أن هذا المال استخدم بحكمة « وأدى إلى كسب معارك كثيرة (٥٧) » أما عن المنحة التي كان مالبرو يتقاضاها من مدينتي فإن دفاعه كان غير مقنع . وأدانه المجلس بأغلبية ٢٧٦ صوتا ضد ١٧٥ . وعزلته الملكة من جميع مناصبه (٣١ ديسمبر ١٧١١) ، فغادر إنجلترا إلى المنفى الذي اختاره لنفسه بنفسه ، وعاش في هولنده أو ألمانيا حتى نهاية العهد . وعين الوزراء جيمس بنلر دوق أورمند الثاني ليتولى قيادة الجيوش البريطانية ، وفوضوه في اقتطاع نفس النسبة من عقود توريد الخبز ومن الأموال الأجنبية ، وهو ما أدانوا به مالبرو (٥٨) . ولكن الشعب البريطاني تقبل سقوط مالبرو على أنه خطوة على طريق السلام ،

وتعبر النزاع من جديد بين حزبي المحافظين والأحرار حول موضوع الوراثة الأسبانية . ذلك أنه في ١٧٠١ حين مات آخر من بقي على قيد الحياة ١٤ — قصة المضارة

من أولاد الملكة آن ، أقر البرلمان - رغبة منه في احباط عودة أسرة ستيوارت إلى الملك مرة ثانية ، قانونا للتسوية ينتقل عرش انجلترا بمقتضاه في حالة عدم وجود عقب لوليم الثالث والأميرة آن - إلى الأميرة صوفيا وورثتها من صلبها ، وهم بروتستانت . وكانت صوفيا ، زوجة ناخب هانوفر ، بروتستانتية يقينا ، يجري في عروقها بعض الدم الملكي البريطاني لأنها من حفيدات جيمس الأول . وكانت آن قد قبلت هذا التدبير ضمنا للحفاظ على انجلترا بروتستانتية . ولكن الآن وقد آذنت شمس حياتها بغييب فإن عطفها على أخيها المحروم من حقه في العرش ، نما واشتد ، ولم تدع مجالا للشك في أنها لابد أن تساند مطالبة جيمس الثالث بالعرش إذا هو ارتضى نبذ الكاثوليكية . وأعرب الأحرار « عن تأييدهم التام لوراثة آل هانوفر للعرش ، على حين مال المحافظون إلى وجهة نظر الملكة . وفاوض يولنجبروك جيمس ، ولكن الأمير أوى التخلي عن عقيدته الكاثوليكية . على أن يولنجبروك القى لم تكن الديانات في نظره إلا أثوابا متباينة تسكو الموت جللا وشرقا . حاول بكل الوسائل إلغاء « قانون التسوية » وابقاء وراثة العرش لجيمس ، وعاب على هارلى تباطؤه الشديد في هذه المسألة ، وبناء على اقتراح منه عزلت الملكة آن هارلى وهي كارهة . وبدأ لمدة يومين اثنين أن يولنجبروك سيد الموقف .

ولكن في ٢٩ يولييه انتاب الملكة مرض خطير نتيجة تأثرها وحزنها الشديد للخلافات بين وزرائها . وهنا تسلم البروتستانت في انجلترا لمقاومة أية عودة للملكية آل ستيوارت ، ونبذ المجلس المخصوص سياسة يولنجبروك ، وأقنع الملكة المترددة بتعيين دوق شروزبرى وزيرا للخزانة ورئيسا للحكومة . وفي أول أغسطس ١٧١٤ فارقت آن الحياة . وكانت صوفيا قد قضت معها قبل ذلك بشهرين ، ولكن « قانون التسوية » مازال قائما . وأرسل المجلس إلى ابن صوفيا ، ناخب هانوفر ، يبلغه أنه أصبح الآن جورج الأول ملك انجلترا

أن سنى حكم ولیم ومارى وآن (١٦٨٩ - ١٧١٤) كانت سنين حيوية بارزة فى تاريخ انجلترا . وعلى الرغم من الإنحلال الخلقى والفساد السياسى والنزاع الداخلى ، شهدت هذه السنوات انقلابا أسريا (تغييرا جذريا فى الأسرة المالكة) ، وإقرار البروتستانتية نهائيا فى انجلترا ، وانتقال سلطنة الحكم من الملك إلى البرلمان بشكل لارجعة فية . كما شهدت نشوء الوزراء الأقوياء ، وهذا بدوره أدى إلى الانتقاص من سلطان الملك . وشهدت لآخر مرة فى ١٧٠٧ اعتراض الملك على تشريع البرلمان ، وخطت خطوة أوسع فى اقرار التسامح الدينى وحرية الصحافة . ووحدت بطريقة سلمية بين انجلترا واسكتلنده ، فى دولة أقوى ، هى بريطانيا . وأحبطت محاولة أقوى ملوك العصر الحديث ليجعل من فرنسا الدكتاتور الأمر الناهى فى أوربا ، وبدلا من ذلك جعلت انجلترا سيدة البحار ، ووسعت ممتلكات انجلترا فى أمريكا، مما كان له نتائج تاريخية بعيدة المدى وشهدت هذه السنوات أيضا انتصارات العلم والفلسفة فى انجلترا فى « مبادئ اسحق نيوتن » ، وفى كتاب لوك « بحث فى التفاهم الإنسانى » . أما سنى حكم آن الوديدة ، وهو حكم قصير لم يتجاوز اثنى عشر عاما ، فقد كان عهدا بثاق فى الأدب — ديفو ، أديسون ، ستيل ، والفترة الأولى من حياة الاسكندر بوب — لم يكن له نظير فى أى مكان فى العالم فى ذلك العصر .

الفصل الحادى عشر

من دريدن إلى سوبفت ١٦٦٠ — ١٧١٤

١ — صحافة حرة

ترى ماذا حدا برجل فرنسى أن يكتب فى ١٧١٢ بزت د انجلترا
فرنسا فى الانتاج الأدبى كما وكيفا وأن مركز الحياة العقلية والفكرية ..
انتقل أكثر فأكثر إلى الشمال حتى قام الإنجليز حوالى عام ١٧٠٠
« بأكبر دور خلاق^(١) » إن رجلا انجليزيا نعم بمآثر فرنسا يرد التحية
فيقول : إن جزءا من هذا الحافز جاء عن طريق آداب السلوك والعادات التى
جلبها شارل الثانى والمهاجرون العائدون ، وأن جزءا آخر ينبع من ديكرات
وباسكال وكورنيل وراسين وموليير وبوالو ومداموازيل دى سكودرى
ومدام دى لافايت ، ومن الفرنسيين المقيمين فى انجلترا مثل سانت أفرموند
وجرامونت . وأنا لثرى التأثير الفرنسى فى الملهيات الشهوانية الجنسية
والتأسيات البطولية التى ظهرت على المسرح فى عودة الملكية ، وفى الانتقال
من غزارة النثر فى عهد اليزابث وتلافيف فترات ملتون إلى النثر المذهب
المصقول المنطقى الذى دبجه دريدن وهو يكتب المقدسات وإلى الشعر
الذى نظمه بوب : ومضى الآن قرن من الزمان (١٦٧٠ — ١٧٧٠) كان
الأدب الإنجليزى فيه نثرا ، حتى ولو كان موزونا مقفى ، ولكنه نثرا نفما
واضحاً ممتازا من الطراز الأول .

ومهما يكن من أمر فإن الأثر الفرنسى كان مجرد استعشات ، ولكن
جذور المسألة كانت فى وسع انجلترا نفسها : فى عودة الملكية المقرونة
بالبهجة والفرح والتحرر ، وفى التوسع الاستعمارى ، وفى إراء الفكر بفضل

التجارة ، وفي الانتصارات البحرية على الهولنديين ، وفي قهرها (١٧١٣)
 لفرنسا التي كانت قد انتصرت على أسبانيا . ومن ثم انفتح الطريق إلى
 الامبراطورية شمالا ، وكما أجرى لويس الرابع عشر الرواتب على المؤلفين
 بوصفها رضيخة أو رشوة تمنح الأنصار ، فان الحكومة الإنجليزية ، بطريقة
 شبيهة بهذه ، كافأت الشعراء أو النازين المحبين لوطنهم أو المشايخين
 للحكومة — دريدن كونجراف ، جاي ، بربر ، أديسون ، سوينف —
 بالرواتب تخصصها لهم ، ويتناول الطعام على موائد الارستقراطية ، وبمحبة
 على المبيعات من المطبوعات ، أو بالوظائف ذوات الدخل الكبير والجهد
 اليسير في الإدارة ، من ذلك أن أحدهم صار وزيرا ، ونظر فولتير في شيء
 من الحسد إلى هذه الوظائف السياسية (٢) . ورعى شارل الثاني العلم والجمال
 لا الأدب والفن . ولم يسكث ولیم الثالث والملكة آن بالآدب . ولكن
 وزراءهم — حين وجدوا أن الكتاب نافعون في عصر الصحافة والنشرات
 والمقاهي والدعابة — أغدقوا المال على الأقلام التي يسكن أن تخدم التاج أو
 الحزب أو الحرب . وأصبح الكتاب سياسيين ثانويين ، وبعضهم مثل بربر
 Prior ، صار من رجال السلك الدبلوماسي ، وبعضهم مثل سوينف وأديسون
 برع في التعمين في الوظائف وفي المحسوبية وفي التدخل في شئون السلطة . وأهدى
 المؤلفون أعمالهم إلى اللوردات وسيدات المجتمع ، تقديرا كريما لما ينتظر أن
 يحظوا به من خيرات وفضل وعطف ووصال ، في عبارات اهداء ملؤها
 المديح والاطراء والتحيات والتمنيات ، مما جعل هؤلاء السيدات وأولئك
 اللوردات أسمى من أبولو أو فينوس في جمال الجسم والقوام ، ومن شكسبير
 وسافو في كمال العقل والدهن .

وساعدت الحرية الذهب على اطلاق العنان لفيضان المداد وجريان القلم .
 وكانت قصيدة ملتون « أريو باجيتيكا » قد اخفقت في القضاء على « قانون
 الرقابة » ، الذي تمسكت به الرقابة في الصحافة في عهد ملوك أسرتي التيودور
 وستيوارت ، واستمر القانون نافذ المفعول في عهد كرومول غير المستقر ،

وبعده في عودة الملكية لآل ستيوارت ، ولكن حين بدأت حكومة جيمس الثاني في إزطاج الأمة ، شرع عدد أكبر فأكبر من كتاب الكراسيات والنشرات يتحدون القانون ويدخلون السرور على قلوب الشعب . وعندما احتل وليم الثالث العرش ، كان هو وأنصاره « الأحرار » مدينين بأكثر الفضل للصحافة إلى حد أنهم طارضوا تجديد قانون الرقابة ، فانتهى العمل به ١٦٩٤ ، ولم يجدد ، وتدعت حربة الصحافة تلقائياً . وربما ظل الوزراء الملكيون يعتقدون الكتاب بسبب هجماتهم العنيفة للمتطرفة على الحكومة وظل « قانون التجديف » (١٦٩٧) يفرض عقوبات صارمة على التشكك في أساسيات الدين المسيحي ، ولكن انجلترا نعمت منذ ذلك الوقت فصاعدا بحرية الأدب التي أسهمت ، على الرغم من سوء استخدامها غالباً ، إسهاماً كبيراً في نمو الفكر الانجليزي .

وتضاعف عدد الدوريات ، وانتظم صدور الصحف الأسبوعية منذ ١٦٢٢ ، وعطّلها كرومول جميعاً ماعدا اثنتين ، ورخص شارل الثاني في صدور ثلاث منها تحت إشراف رسمي ، أصبحت واحدة منها هي « أكسفورد » وفيها بعد لندن جازيث « الناطقة باسم الحكومة » وكانت تصدر نصف شهرية أو نصف أسبوعية منذ ١٦٦٥ . وفور إلغاء قانون الرقابة صدرت عدة صحف أسبوعية . وفي ١٦٩٥ أسس المحافظون أول جريدة يومية انجليزية « ساعي البريد Post Boy » والتي لم تصدر إلا أربعة أيام فقط ، حيث طاكسها « الأحرار » في الحال بصحيفة « البريد الطائر Flying Post » . وأخيراً في ١٧٠٢ أصبحت The English Courant هي الصحيفة اليومية المنتظمة في انجلترا — فرخ صغير من الورق مطبوع على وجه واحد فقط ، تقص الأنباء ولا تدون آراء ، ومن هذه الهبات المتقطعة نشأت صحافة الإعلان التي تراها اليوم بين أيدينا .

وأنى ديفو بمستوى جديد في صحيفه « ريفيو » (١٧٠٤ - ١٧١٣) وكانت أسبوعية تقدم التعليقات كما تقدم الأنباء . وهي التي بدأت القصة

المسلسلة وتبعه ستيل في « تانلر » (١٧٠٩ - ١٧١١) . وسما هو وأديسون بهذا التطور إلى ذروته التاريخية في « سبكتاتور » (١٧١١ - ١٧١٢) وروع حكومة المحافظين التوزيع الإجمالي وتأثير الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية ، فقرضت عليها ضريبة تمغة تتراوح بين نصف بنس وبنس واحد . بها جعل البقاء مستحيلا بالنسبة لمعظم الدوريات . وكانت « سبكتاتور » إحدى الدوريات التي احتجبت . وقال سوينف لبطلته وصديقه ستللا : « لقد دمروا شارع Grub بأمره »^(٢) (الشارع الذي يقطنه محررو الصحف) . وأصدر بولنجبروك في ١٧١٠ « اجزامر Examiner » الأسبوعية ليدافع فيها عن سياسة وزارة المحافظين . ووجد في جوناثان سوينف رجلا واسع الاطلاع لاذع القدح والطعن ، منوقد الذكاء . لقد وقع المال على أداة جديدة ، وطنى سلطان الصحافة الدورية شيئا فشيئا على تأثير المنابر في تشكيل الرأي العام ، وإعداده للأهداف الخاصة ، ودخلت التاريخ قوة جديدة تنزع عن الناس الصبغة الدينية وتنزع بهم إلى التعلق بالأهوار الدنيوية .

١١ — المسرحية في فترة عودة الملكية

فيما بين عامي ١٦٦٠ و ١٧٠٠ كان ثمة أداة أخرى شكت أو شوهت أو عبرت مجرد تعبير عن روح لندن المجردة من الحيوية والنشاط . وحيث استطاب شارل الثاني المسرحية الباريسية فإنه أجاز فتح مسرحين : الأول للملك وجامعته في « دروري لين » والثاني لدوق يورك وجامعته في « لنكوان ان فيلدز » وفي ١٧٠٥ افتتح مسرح الملكة في هامباركت ، ولكنها نادراً ما شهدت التمثيل فيه . وفي أيام شارل الثاني كان مسرحان اثنان يفيان بالحاجة طادة . وظل البيوريتانيون يقاطعون المسرحية ، أما الجمهور بصفه عامه على أيه حال ، فلم يكن يرخص له بدخول المسارح بين ١٦٦٠ و ١٧٠٠^(٤) ولم يقصد إليها في معظم الأحوال إلا كل هريبد ماجن من رجال الحاشية ، وحنالة الطبقة الأرستقراطية والمتصلين بها ، والأثرياء المتعطلين الذين

يقضون أوقاتهم في المسارح والنوادي وسباق الخيل وغيرها . يقول :
 دكتور جونسون الوقور : « أن المحامي الوقور ليحط من قدره ويمتحن
 كرامته ، وأن المحامي الناشئ ليسى إلى ميمته ، إذا غشى بيوت الاباحية
 للنحلة هذه (٥) » وشكل النساء قسماً صغيراً من النظارة على أمن إذا ذهبن
 إلى المسرح كن يخفين شخصياتهن وراء الأقنعة (٦) . وكانت العروض تبدأ
 في الساعة الثالثة بعد الظهر ، حتى إذا تحسنت الإضاءة في الشوارع (حوالي
 ١٦٩٠) أجلت إلى السادسة . وكان أجر الدخول أربعة شلنات للمقصورات
 وللمقاعد الخلفية شلنين ونصف وللشرفات شلناً واحداً . وكانت أجهزة التأثير
 المسرحي وتغيير المناظر أكثر إتقاناً بكثير مما كانت عليه في أيام اليزابيث .
 ولو أن حجرة نوم واحدة وملحقاتها ربما كانت تكفي لمعظم ملهيات عصر
 عودة الملكية ، وحلت الممثلات محل الغلمان في تأدية أدوار النساء ، وكن
 كذلك عشيقات ، من ذلك أن مرجريت هيوز التي مثلت ديدمونا لأول مرة
 ظهرت فيها امرأة على المسرح الانجليزي (٨ ديسمبر ١٦٦٠) كانت عشيقة
 الأمير روبرت (٧) . وفي عرض مسرحية دريدن « الحب الاستبدادي »
 تعلق قلب شارل الثاني لأول مرة بخليته فل جوين التي كانت تمثل دور
 فاليريا (٨) . إن طبيعة جمهور المشاهدين ، ورد الفعل ضد البيوريتانية ،
 وأخلاق البلاط ، وذكريات روايات عصرى اليزابيث وجيمس الأول (وبخاصة
 روايات بن جونسون) وأحياء هذه الروايات واستعادة تلك الذكريات من
 جديد ، وقائير المسرح الفرنسي والملكيين المهاجرين ، كانت كلها عوامل
 تجمعت لتشكيل المسرحية أيام عودة الملكية .

وكان الإسم الالامع في « مسرحية المأساة » في عودة الملكية هو دريدن
 لتركه مؤقتاً ، لنتحدث عن مسرحية توماس أوتواي « الحفاظ على فينيسيا »
 التي عملت بعد كل روايات دريدن وظلت تمثل حتى ١٩٠٤ . إنها قصة حب
 مطعمه بمؤامرة أصدقاء كوت دي أوزونا لقلب سناو فينيسيا في ١٦١٦ .
 ويرجع ما صادفته من نجاح في البداية من ناحيه ، إلى الصورة الساخرة التي

رسمتها لإرل شافتسبرى الأول (عدو شارل الثانى وصديق لوك) فى شخصيه أنطونيو الذى يحب أن تضربه عشيقته البغى ، ومن ناحية أخرى إلى التشابه بين هذه المؤامرة وبين المؤامرة البابويه «الحديثه» ومن ناحية ثالثه إلى تمثيل توماس بترتون ومسز اليزابيث بارى ، ولكن الروايه تقف اليوم على قدميها إن مناظرها الهزليه سخيغه مؤذيه ، خاتمها تنشر الموت فى إجماع أقرب شبيهها بالمسرحيه الموسيقيه (الأوبرا) ، ولكن حبكه الروايه متقنه دقيقه ، وشخصيها مصورة تصويراً مميزاً ، والحركة مسرحيه إلى أبعد حد ، والشعر المرسل فيها ينافس مثيله فى المسرحيه فى عصر اليزابيث ، باستثناء مارلو وشكسبير . ووقع أوتواى فى غرام مسز بارى ، ولكنها أثرت عليه معاملة إرل روشستير ، وبعد كتابه عدة مسرحيات أخرى ناجحه أخرج الشاعر سلسله من الرايات لم يكتب لها النجاح ، وانحدر إلى مهاوى الفقر والعوز وفى روايه أنه مات جوعاً (٩) .

إن ذكرى المسرحيه فى فترة عودة الملكيه حيه من أجل ملهياتها . فإن ما كان فى هذه الملهيات من مرح وسخرية ، ومحاورات داعرة ، ومغامرات فى الخدع ، بالإضافة إلى قيمتها فى أنها مرآة تعكس حياة طبقه واحده فى جيل واحد . كل أولئك أكسبها شعبيه جزئيه ، إن لم تكن مختهاسه لا تكاد تستحقها . فإن مجالها ضيق إذا قيست بملهيات عصر اليزابيث أو مولير ، وأنها لا تصور الحياه بل تصف عادات المتعطلين المتسكعين فى المدن والحاشيه الخليه المشتهكه ، وتتجاهل الريف إلا إذا أخذوه هدفالاستهزاء والسخرية ، أو « سيديريا » ينفى إليها الأزواج زوجاتهم للتطفلات . إن بعض للمسرحيين الإنجليز شاهدوا مولير يمثل أو تمثل رواياته ، واستعار بعضهم شخصيه أو حيكات مسرحياته ، ولكن أحدا منهم لم يبلغ نزعتة فى مناقشه الأفكار الاساسيه ، فالفكرة الاساسيه الوحيدة فى هذه الملهيات هى أنى الرئى هو الهدف الرئيسى لأعظم عمل بطولى فى الحياه . وكان المثل الأعلى للرجل فيها هو ما وصفه دريدن فى « المنجم الهزاة » على أنه « سيد ماجد ، رجل ثرى

طاطل يغشى النوادي وللقاهى وللسارح والمواخير ، يرتدى أفخر الثياب ، يأكل ويشرب وينفق ويعاشر البغايا إلى أقصى حد ممكن . وفى رواية « خداع العاشقين » جاء على لسان أحد الشخصيات ، وكأنما يقول سيد مذهب آخر : « إني أحب جوادا جميلا ولكنى أنزكه لرجل آخر ليتولى العناية بأمره ، وإني كذلك بالمثل أحب سيدة جميلة » (١٠) وهذه لا معنى أنه لا يشتهى زوجة جاره ولا يمد عينيه إليها ، بل أنه يريد أن يستمتع بكل مفاتها وأطايها ، على حين ترك زوجها أن يرعى شئونها وينفق عليها . وفى رواية كونجريف « طريق الحياة الدنيا » يقول ميرابل للممدوق موضع الإعجاب لزوجته صديقه « يجب أن تشمرى بالاشمزاز والنفور والكراهية لزوجك بما يجعلك تستمتعين بحبيبك أو عشيقك » (١١) . ويندر أن ترى الحب فى هذه الروايات يرتفع فوق الشهوة الجسدية التى تلهف بين جوانح الطرفين ، يريدان إطفاءها . وإنا لننلطف عند قراءتها أن تقع العين على ظل للمعساة النبيل والشرف ، ولكننا لا نرى فيها إلا أخلاقيات للمواخير وبيوت الدارة .

إن وليم وتشرلى هو الذى استهل هذا التقليد . وكان أبوه ملكيا من أسرة عريقة تملك ضيعة كبيرة ، وأرسل ولده إلى فرنسا لتلقى العلم ، عندما تولى البيوربتانيون مقاليد الحكم فى إنجلترا ، إصرارا منه على ألا ينشأ الولد بيوربتانيا . ولم يعتنق وليم قط هذا المذهب ، ولكن الأسرة صمقت حين أصبح كاثوليكيا . وسرطان ماعاد إلى البروتستانتية لدى عودته إلى إنجلترا ، وهناك درس فى أكسفورد وتركها دون الحصول على درجة جامعية . وإنصرف إلى كتابة الروايات . وجمع ثروة من رواية « حب فى الغابة » (١٦٧١) التى أهداها إلى ليدى كاسلين . واستقبله فى البلاط الملك الودود اللطيف الذى لم يشك ولم يتذسر حين وجد آن وتشرلى وتشرشل كليهما ، يشاركانه غرام عشيقته كاسلين (١٢) .

واشترك وليم فى الحرب الهولندية ١٦٧٢ ، ببسالة متوقعة من سيد.

بماجد ، وعاد إلى انجلترا ولم يمسه سوء ، وأحرز نجاحاً آخر في « الزوجة الريفية » (١٦٧٢) . ودعى النظارة في المقدمة - إذا لم تعجبهم الرواية - إلى دخول غرفة ملابس الممثلين في ختامها ، وهناك :
« فإننا عن طيب خاطر ... نتغلى لكم يا شعراءنا ، عن العذارى ، لا بل عن عشيقاتنا كذلك » .

وخلاصة الموضوع أن مستر بنشويف اصطحب زوجته معه لقضاء استيوغ في لندن ، وأحسكم حراستها إلى حد أنها أوقعت في شرك الفتاوى تحت مسمه وبصره ، ذلك أن من بدعى مستر هورنر - العائد من فرنسا لتوه ، والمتلف على الوصول إلى الزوجات دون عائق - أذاع بين الناس أنه خصي ، ومن هنا يستنتج بنشويف أنه لا حرج في أن يفتح بيته لمثل هذا العنين العاجز ، ولكنه سرعان ما يكتشف أن زوجته تكتب رسالة غرامية إلى هذا الوير المتودد إليها الذي أدعى العنة ، فيرغمها على كتابة رسالة أخرى تسكيل له فيها أقذع السباب والشتائم ، وما أن أدار الزوج ظهره حتى أسرعته هي فوضعت رسالتها الغرامية الأولى مكان الرسالة الثانية التي تم عن الغضب والاستياء . وسلم الزوج المزهو المفاخر بالسيطرة على الموقف الرسالة الأصلية إلى هورنر . وبعد فترة اتجه ظن الزوج إلى أن هورنر أقدر مما ترددده عنه الشائعات ، ففكر في أن يشغله ، ووافق على أن يأخذ إليه أخته أليشيا . وتتنكر الزوجة حتى تبدو وكأنها أليشيا ، ويحملها زوجها إلى عشيقها . وتختتم الرواية « برقصة الديوث » ، وهورنر هو المنتصر في النهاية ، ثم تلقى إحدى الممثلات شعراً توجه فيه اللوم والتقريع إلى الرجال الحاضرين ، لأنهم لا يتحلون بقدر كاف من الرجولة . « وقد يظل الناس على اعتقادهم بأنكم ممثلون قوة ورجولة ، ولكننا نحن النساء لا سبيل إلى خداعنا » .

واقتبس وتشراي كثيراً من « الزوجة الريفية » من رواية مولير « مدرسة الأزواج ومدرسة الزوجات » وفي روايته التالية « التساجر

« الشريف » حول وتشلى شخصية « ألت » فى رواية مولير « مبغض البشر » إلى شخصية كابتن مانلى الذى لم تتعد فكرته عن التعامل الشريف ، مجرد تناول كل الناس والأشياء بلغة بذيئة مقذعة . والغريب للدهش فى الأمر أن سكان لندن ، بل حتى سكان بعض الضواحي ، أحبوا وصف الحياة على أنها سعى متصل وراء شهوة الجسد ، يلطف منه بعض التجديف فى الحديث . وفى إحدى المكتبات فى « تنبريدج ولز » سمع وتشلى إحدى السيدات تسأل عن كتابه المنشور حديثاً « التاجر الشريف » فغمرته نشوة الفرح ، ولم تسكن هذه إلا كوفتس دور جيداً ، الأرملة الثرية ، فطلب يدها وتزوجها . ووجد أنها كانت تضعه تحت مراقبة أشد وأكثر مباشرة مما كان يفعل بنشوييف ، ولكنها ماتت فجأة فظن أن أموالها لا بد أن تؤول الآن إليه ، ولكن القضايا القانونية التى تشابكت فيها التركة حالت دون ذلك ، فلم يستفد منها شيئاً . وعجز عن تسديد الديون التى كان قد اقترضها ثقة منه بأيلولة التركة إليه ، فأرسل إلى السجن حيث قضى سبع سنين وهنت فيها عزيمته وذبل نشاطه ، حتى جاء جيمس الثانى ، وسدد — قبل إرتداد وتشلى إلى الكاثوليكية ثانية أو بعده — ديونه وأجرى عليه راتباً . وبلغ وتشلى أرذل العمر فى شقاء ومعاناة . وظل مع عجزه يلاحق النساء ، ويسكتب نظاماً ، حاول صديقه الشاب بوب أن يحوله إلى شعر . وفى سن الخامسة والسبعين تزوج العاجز المعجوز امرأة شابة ، ولم يعمر بعد الزواج إلا عشرة أيام ، ووافته المنية فى أول يناير ١٧١٦

وكان سيرجون فابر وألطف من كتب عن الزنى والزناة . وكان « جون بول » (الرجل الإنجليزى النموذجى) يتجسد فيه تماماً ، فهو خشن مرح طلق المحيا ، يحب طعام إنجلترا وشراها ، ولو أن جده لوالده هو جلليس فيان برو ، وهو فلنسكى من مدينة غنت قدم إلى بريطانيا فى عهد جيمس الأول . وكان جون يبشر بحسن المستقبل إلى حد أنه أرسل إلى باريس فى سن التاسعة عشرة ليدرس الفن . فلما عاد فى الحادية والعشرين التحق

بالجيش ، وقبض عليه في كاليه بتهمة أنه جاسوس بريطاني ، وقضى مدة في الباستيل ، وهناك كتب المسودة الأولى « للزوجة المغيظة » حتى إذا ما خرج من السجن عكف على كتابة الروايات . وفي ستة أسابيع - كما يروي لنا هو - فكر وتصور ، ثم كتب ومثل رواية « النكسة » (١٦٩٦) ، بما فيها من هجاء مرشح للتأنيق في لندن ، مثل لورد فوبنيجتون وملاك الأرض في الريف مثل سيرتنبلي كلزى ، ومس هويدن الشهوانية . وكان سيرتنبلي يضعها تحت الرقابة والحراسة منذ بلغت الحلم ، وفرح وابتهج لبراءتها وطهرها . « يا للبنات المسكينات : إنها ستفزغ وتنزعج في ليلة عرسها ، لأنها ، والحق أقول ، لا تميز الرجل من المرأة إلا بلحيته وبطلونه القميص » (١٤) . ولكن مس هويدن تصف نفسها على نحو آخر : « من حسن حظي ، هناك عريس قادم ، وإلا تزوجت الخباز ، سأفعل ذلك . فما من أحد يستطيع أن يقرع الباب ، ولكن حالياً يجب على أن أختبئ » ، وهنا يمكن السكابة السلوقية الصغيرة تحوم حول البيت طوال اليوم ، إنها تستطيع ذلك » . وعندما يأتي توم فاشون ليطلب يدها ، ويمهله أبوها أسبوعاً ، تحتج الفتاة وتقول « أسبوع : ولماذا ؟ إنى أكون عند ذاك امرأة عجوزاً » (١٥) :

ونجحت مسرحية « النكسة » نجاحاً كبيراً إلى حد أن قايرو تعجل إكمال « الزوجة المغيظة » (١٦٩٧) وكانت هذه من أنجح أعمال ذاك العصر . وظل دافيد جارك طيلة نصف القرن التالي يتحف لندن ويمتعها بتمثيله المشتهر لشخصية سيرجون بروت ، وهي أعظم شخصية مشهورة مذكورة بين كل شخص المسرحيات في فترة عودة الملكية . وسيرجون هذا وسيم هزلى ساخر يمثل المظاهر الأقرب شبهة بالخنزير في ملاك الأرض الانجليز - يشرب الخمر ، ويتباهى ، ويهدد ويتوعد ، ويستأسد ، ويطن ويهكو من « عصر الاتحاد الأمين هذا » . ويفتح المسرحية برأيه في الزواج حيث يقول :

«أى لحم متخضم هو الحب ، إذا كان متبلا بالزواج ، إن عامين قضيتهما متزوجا قد أفسدا على حوامى الخمس . فكل شيء أراه ، وكل شيء أسمع ، وكل شيء أحس به ، وكل شيء أشمه ، وكل شيء أتذوقه ، أظن أن فيه زوجة . فما ضجر ولد يؤدبه ، ولا بنت ولا رجل بعمل الكفارة ، ولا عذراء عجوز بظهرها وعفتها ، قدر ضجرى بزواحي وسأهي إياه .

ومذ عرفت زوجته آراه ، فانها تفكر فى ترويضه بأن تجعل منه ديوثا .
ليدى بروت : إنه أساء معاملتى أبلغ أساءة مؤخرًا : حتى كاد يستقر عزمى على أن ألعب دور الزوجة بكل ما فى الكلمة من معنى ، وأجعل منه ديوثا وأخوته . . .

يلندا : ولكنك تعلمين أنه ينبغى علينا أن نقابل الإساءة بالإحسان .
ليدى بروت : ربما كان هذا خطأ فى الترجمة (١٦) .

وهنا تأتى جارتها ليدى فانسيفل التى تميل إلى ماتمبل إليه ليدى بروت ، وتناقض شكوكها ومخاوفها مع وصيفتها الفرثسية التى تحبب بالفرنسية ، وهى هنا مترجمة :

ليدى ف : سمعتى يا آنسة : سمعتى :
الوصيفة : سيدتى ، إذا فقد المرء سمعته يوما ، فلن تعود بعد ذلك نزعجه .

ليدى ف : تبالك يا آنسة ، تبالك ، أن السمعة جوهرة .
الوصيفة : وقيمتها غالية جدا يا سيدتى .
ليدى ف : لماذا إذن ، يقينا أنك لن تضحى بشرفك من أجل متعتك ؟
الوصيفة : إنى فيلسوفة .

ليدى ف : انه لا يتفق مع الشرف (لقاء العاشقين) .
الوصيفة : ولكنه للثمة . . .

ليدى ف : ولكن إذا كان العقل يصلح من شأن الطبيعة .

الوصيفة : عندئذ يكون العقل وقحا ، لأن الطبيعة أخته الكبرى . .

ليدى ف : إذن أنت تؤثرين طبيعتك على عقلك ؟

الوصيفة : نعم ، بكل تأكيد .

ليدى ف : ولماذا ؟

الوصيفة : لأن طبيعتي تغمرني بالهجة والسرور ، أما عقلي فيورثني الجنون (١٧) .

وربما كانت هذه الراوية هي التي أثارت غضب جرمي كوليير إلى حد أنه في العام الذي تلا ظهورها ، نشر هجومًا عنيفًا على للمسرحية في فترة هودة الملكية ، وعلى فانبرو بصفة خاصة . وكان كوليير كاهنًا أنجليكانيًا على درجة من العلم ، ومن الشجاعة والتشدد في عقيدته . وحيث كان قد أقسم بين الولاء لجيمس الثاني ١٦٨٥ ، فإنه أبى أن يقسم بين الولاء لوليم وماري ١٦٨٩ . واستنكر « الثورة الجلية » ، حتى إلى حد التحريض على التمرد والعصيان . وقبض عليه ، ووجد أصدقاءه مشقة كبيرة في اقناعه بأن يسعوا لإطلاق سراحه بكفالتهم . ومنح الغفران للطلق لرجلين كانا على وشك أن يشنقا بتهمة التآمر على ما اعتبر كوليير أنها حكومة اغتصبت الحكم . فأُنكر أسقفه عليه تصرفه وأدائه النائب العام ، ولكنه رفض المثول أمام أية محكمة . وعاش طريد العدالة محروما من الكنيسة حتى وافته المنية . ولكن الحكومه قدرت نزاهته ، ولم تلاحقه بعد ذلك . وعبر وليم الثالث عن تقديره الكبير للمصنفة التاريخيه التي قام بها كوليير .

وكان الكتاب الذي نشره كوليير يحمل عنوان « لمحة قصيرة عن الانحلال والدنس في المسرح الإنجليزي » . وكان يحوى ، كما حوت معظم الكتب ، هراء كثيرا . واستنكرا الراعى الغاضب في المسرحية الانجليزية أخطاء كثيرة قد تبدو لنا الآن تافهة ، أو أنها ليست أخطاء اطلاقا ، واعترض على أية إشارة غير كريمة لرجاء الدين ، ونشر في سخاء شديد ، مظلة المصنفة

من الخطأ فوق زعماء الوثنية والكهنة الكاثوليك والقساوسة للأنشقين .
أدان كثيرا من كتاب المسرح ، من أشبللس إلى شكسبير إلى
كونجريف ودريدن ، حتى يشعر كل الاتهمين ببراءتهم لمجرد حشرهم في زمرة
هؤلاء العظماء . ولكن كوليير أضعف قضيته في مجادلته في أن للمسرح العام
يجب ألا يتناول الجريمة أو الانحلال الخلقى مطلقا . ولكنه وجه بعض
ضربات ناجعة لأن الأهداف البراقة واجهته في كل مكان . فنعى على كثير
من كتاب المسرح في فترة عودة الملكية ما أبدوا من إعجاب بالأسفاف
في الزنى والفسق ، وأثر ذلك على جمهور المشاهدين . وظل الكتاب حديث
لندن طيلة عام كامل . ودافع الروائيون عن أنفسهم بأساليب متنوعة ، وتحول
قائرو عن المسرحية إلى هندسة العمارة ، وانهمك لا أكثر من عشر سنوات
في بناء قصر بلنهم ، ثم شاد قصر هوارد على طراز عمارة بللاديو الروماني
الجميل (١٧١٤) . واعترف دريدن بخطاياهم ، وأظهر ندمه على ما فعل
وأنسكز كونجريف جريمته ، ولكنه أصلح من فنه .

وبلغ وليم كونجريف بمسرحية عصر عودة الملكية ذروتها ونهايتها
معا . ولد بالقرب من ليدز في ١٦٧٠ ، في أسرة كانت عراقنتها موضع نخره
واعتزازهم وسط كل ما أحرز من فوز ونجاح . وكان والده قائد حامبة
انجليزية في أيرلنده ، ولذلك درس وليم في مدرسة كاسكني ، وجلس على
نفس المقعد الذي جلس عليه جوناثان سويفت ، ثم في ترتي كولدج في دبلن ،
ثم في مدل تمبل في لندن . وسرى في دمه جرثومة الطموح الأدبي من بيئة
كان فيها الأذواق أنفسهم يؤلفون الكتب . وفي أول سنة كان يدرس فيها
القانون كتب « المستخفية » (١٦٩٢) التي امتدحها ادموند جروس
« لمرحها ودمايتها الخفيفة » ولأنها أقدم قصة طويلة (عن العادات وآداب
السلوك ؟) في الإنجليزية (١٨) ، ولكن صمويل جونسون قال عنها «
خير لي أن أمتدحها من أن أقرأها » (١٩) ، وحظى كونجريف بالشهرة من

قفزة بجلهاته الأولى « الأعزب المعجوز » ١٦٩٣ ، التي أقسم دريدن - وهو عميد الأدب للمعترف به في إنجلترا في هاتيك الأيام - بأنه لم ير قط خيرا منها ، باكورة للعمل في مجال الرواية ومذكان كونجريف غير واثق من أن الرجل الماجد ينبغي أن يكتب للمسرح ، فإنه اعتذر بأنه إنما كتبها « لمجرد التسلية في فترة إبلال بطيء من علة أملت به » ، ومن هنا قال كولير « ليس لي أن أقسامل ماذا كانت علمته ، ولكن لا بد أنها كانت خطيرة جدا ، وأسوأ من العلاج (٢٠) » . أما هالييفا كس فإنه اتفق في الرأي مع دريدن ، حتى أنه عين كونجريف في منصبين يدران عليه دخلا كافيا يستطيع بفضلله أن يحتفظ بمكانته ، سيدا كريما ، وأن يعمل في عالم المسرح .

ولم تلق روايته الثانية « التاجر المخادع » (١٦٩٤) ترحيبا كبيرا ، ولكن اطراء دريدن ، الذي وضع كونجريف مع سكسبير في مرتبة سواء ، شد من أزر المؤلف الناشئ ، وفي ١٦٩٥ ، في سن الخامسة والعشرين ، عاد إلى خشبة المسرح برواية « الحب للحب » التي فاق نجاحها كل ما عرف من نجاح . ولكن كولير شجب الرواية وانهمها بأنها تؤيد الفسق والفجور وتشجعهما ، وبلغ رد كونجريف عليه من التفاهة حسدا انقطع معه عن المسرح طيلة ثلاثة أعوام . وعندما عاد إليه برواية « طريق الدنيا » (١٧٠٠) كان قد أفاد من النقد القاسي ، وأوضح أن الموهبة لا تعتمد على قلب الوصايا العشر رأسا على عقب . وكان في هذه الرواية التي قال عنها سوينبرن المغالى أنها « التعفة التي لا نظير لها والتي لا تدانيها رواية أخرى في روائع الملهاة الإنجليزية (٢١) » ، نقول كان فيها بعض أخطاء المسرحية في عصر عودة الملكية ، ولكن ليس فيها شيء من رذائلها . وقد ترهقنا عند قراءتها بظرفها المازح الساخر ، وتدكرنا بالتلاعب السخيف بالألفاظ في أعمال سكسبير الأولى ، ولكن إذا مثلت (ونطق بها بترتوف ومسر بريسجيردل كما حدث في أول عرض لها) ، فلربما كانت أمتعتنا بما فيها من حيوية وتألق

١٥ — قصة المضارة

يقول وتوود « أعرف سيده تحب الكلام بلا إقطاع ، ولا تترك أنراً حسناً (٢٢) » وحبكة الرواية بالغة التعقيد ، وقد تتذمر من طول الوقت المطلوب لنهم شجارات ومشروطات الشخص من التافه الطائفة ، وحل المقدة لا يعدو أن يكون سخفاً لا حده . ولكن في الرواية بعض تهذيب في اللغة وفي الدعابة ، وتفكير لطيف (ولو أنه غير صحيح أبداً) ، مما يمكن أن يدخل السرور على الذهن غير المتعجل ، وليس فيها سخرية لازمة ، كما هو الحال في مسرحيات فابرو ، بل فيها تهكم مهذب رقيق ؛ تسرب من قصر فرساي إلى قصر هويتهول وإلى البلاط في فترة عودة الملكية . وفي الرواية خلق الشخصيات الروائية وتصوير الخصائصها . فالبطل ، ميرابل شخص غير جذاب ، ولكنه نابض بالحياة ، صياد للتركات والثروات . وجدير بالذكر أنه يسمى للزواج من ميللامات ، بدلاً من إغرائها . ولكن لهما نروة تساوي اثني عشر زاييا ، وهي أجل ما أبدع كونيغريف ، ماجنة عابثة تريد ألف عاشق ، وتوود الهيام بها لمدي الحياة ، من أجل منقن أو جمال لن يدوم إلا لسنوات عشر ، وترفض الزواج ولكن بشروط :

ميللامات : ... لاشك يا ميرابل آتى سأبني في الغراس في الصباح كيفما أشاء .

ميرابل : هل من شروط أخرى تعرضنيها ؟

ميللامات : توافه : - أكون حرة في تناول طعامي متى أشاء ، وأتناوله وحدي في حجرة ملاسي ، إذا كنت متعكرة المزاج ، دون إبداء الأسباب . وألا يقتحم علي أحد خلوتي . وأن أجلس « امبراطورة » وحدي إلى مائدة الشاي التي لا يجوز لك أن تفكر في الاقتراب منها قبل أن تستأذني أولاً وأخيراً حينما كنت ينبغي عليك أن تطرق الباب قبل الدخول . تلك هي شروطي ، حتى إذا استطعت أن احتملك لمدة أطول ، فقد أفضاه هيناً فشيئاً حتى أصبح زوجة .

ميرابل : أأستحراً أن أعرض شروطي ؟

ميللامات : هات أقصى ما عندك ...

ميرابل : أشرت عليك أن تستمرى تحبين وجهك وتعجبين به طالما أحبيته أنا أو أعجبت به ، حتى إذا ألفتها أنا ، فلا تحاولي قط تشكيكه من جديد .. اشترط ثانيا ، أنك إذا حملت .

ميللامات : آه : لا تذكري شيئا من هذا .

ميرابل : وهذا هو المفروض ، وليبارك الله في محاولتنا

ميللامات : هذه محاولة كريهة قبيحة :

ميرابل : إني أعترض وأمنعك من إرتداء الملابس المحبوة التي تشد جسمك لتحتفظي بقوامك حتى لا تشوهي ولدي ويخرج وكأن رأسه قمع سكر (٢٣) ..

وهكذا ، وتلك سفسة سارة ، وهجاء معقول ، يمر بخفة وسرعة ، في أمان ، على مظاهر الحياة .

وضرب كونيغريف نفسه مثالا لمظاهر كثيرة ، مؤثرا التركيب على المادة ، والتنوع على الوحدة . ولم يتزوج قط ، ولسكنه اختلاف إلى سلسلة من المشيقات ، ولم نسمع عن ذرية أشقته أو أسعدته . وكان رقيقا لطيفا في المقامى والنوادي . وكانت أكرم العائلات تستقبله ببالغ الترحيب . وكان أ كولا ، وكان يدهن قدميه ويعالجهما بانتظام من داء النقرس . وعندما زاره فولتير ١٧٢٦ استنكر كونيغريف إطراء الشاعر الفرنسي لرواياته ، وأبدى عدم اكتراثه لها ، على أنها توافه لا تستحق الذكر ، وطلب إلى فولتير أن يعتبره مجرد رجل مذهب . عندئذ أجاب فولتير (طبقا لروايته) « لو كان الأمر كذلك ، وأنت مجرد رجل مذهب ، لما جئت لأراك (٢٤) » .

وفي ١٧٢٨ ، في رحلة للاستشفاء بالمياه المعدنية في باث ، انقلبت عربة كونيغريف ، وظل يعاني من بعض إصابات باطنية حتى وافته المنية في ١٩ يناير ١٧٢٩ . ودفن في كنيسة وستمنستر . وفي وصيته ترك مائتي جنيه لمسز بريسجيردل التي كانت تقاسي الفقر في شيخوختها ، أما معظم الضيعة ،

أى نحو عشرة آلاف جنيه ، فقد أوصى به لدوقة مالبرو الثانية البالغة الثراء ، ومضيقته الأثيرة لديه ، فحاولت اللال إلى عقد من اللالى . وكانت تضع على الدوام ، فى المكان الذى اعتاد الشاعر أن يجلس فيه إلى مائدتها ، تمثالاً من العاج والشمع تدهن قدميه وتعالجهما بانتظام من النقرس (٢٥) .

وقبل موت كونجرف بزمان طويل ، كان المسرح الإنجليزى قد شرع يظهر نفسه ، حيث أمر وليم الثالث مدير للملاهى والمسارح أن يمارس بشكل أشد حرامة ، سلطته فى رقابة الروايات أو منع عرضها . وعززت موجة من الاستياء فى رأى العام هذه الرقابة . وحرّم قانون أصدرته الملكة آن إرتداء السيدات للأقنعة فى المسرح ، وقاطعت النساء اللاتى حرمن هذا التستر ، الروايات المجردة من الاحتشام والوقار على وجه اليقين (٢٦) . واتفق سويفت مع الأساقفة على أن مسرح لندن وصمة فى جبين الخلق الإنجليزى . وعرض ستيل روايته « العشاق الشاعرون بالانتم » (١٧٢٢) على أنها مسرحية أخلاقية . ونافس أديسون وقار للأساسة الفرنسية وجلاطها فى مسرحيته « كاتو » (١٧١٣) . وئمة علامة أقدم من هذا ، على التغيير الذى حدث فى المسرح ، ظهرت فى أسلوب رد دريدن على كولير ، حيث أحس دريدن أن السكاهن غالباً ما حمل على كتاب للمسرح دون وجه حق ، وأنه « فى كثير من المواضع .. فسر كلاتى بأنها تمجيد وفجور ، وهى بريئة من هذا كله » ، ولكنه أضاف :

لن أتحدث كثيراً عن مستر كولير لأنه اتهمنى فى أشياء كثيرة ، وله فى هذا كل الحق . واعترفت بذنبى فى كل الأفسكار والتعبيرات التى أوردتها والتى يمكن أن توصم بحق بالفحش أو الدنس أو مجافاة الأخلاق الكريمة ، ولا بد من سحبها . فإذا كان يناصبنى العداء ، فقد كتب له الانتصار على . أما إذا كان صديقاً ، حيث أتى لم أهيب له فرصة خاصة لىكون غير ذلك ، (لم أسىء إليه إساءة شخصية) ، فإنه سيسر بأى ندمت (٢٧) .

٣ - جون دريدن ١٦٣١ - ١٧٠٠

كان أبوه من صغار ملاك الأرض ، يمتلك ضيعة متواضعة في نورنجهتونشير وأرسل إلى مدرسة وستمنستر التي علمه فيها ، هو ورفيق دراسته جون لوك ، الأستاذ الضليع ريتشارد بزبي Buzby كثيرا من اللاتينية والنظام والانضباط . وهناك حصل على منحة دراسية مكنته من الذهاب إلى ترقى كولدج في كمبردج . وفي العام الذي حصل فيه على الدرجة الجامعية مات أبوه (١٦٥٤) وورث جون ، بصفته أكبر الأبناء البالغ عددهم أربعة عشر ، الضيعة التي كانت تدرستين جنيتها في العام . وانتقل إلى لندن وحاول عن طريق الشعر أن يضيف شيئا إلى دخله ، احتيالا على العيش . وفي ١٦٥٩ نشر « مقطوعات شعرية بطولية » تخليدا لذكر كرومول — وهو شعر تافه غير ذي قيمة بشكل ملحوظ من شاعر في التاسعة والعشرين من عمره . وألحق أن دريدن نضج في بطاء ، وكأنه رجل يتخطى في جهد جهيد مائة عقبة ليرقى مدارج الثراء في نجاح . وبعد ذلك بعام واحد هلك الشاعر لعودة الملكية في قصيدته « عودة النجم » التي قارن فيها نجمة شارل الثاني بنجمة بيت لحم ، وما كاد أحد يتجزأ على اتهام دريدن بالتقلب ، لأن كل الشعراء تقريبا — عدا ملتون — ولوا ظهورهم إلى البيوريتانية وولوها شطر الملكية مع تغيير بارع لأساليبهم .

ولكن دريدن كان أشد اهتماما بالمسرح منه بمجرد نظم الشعر ، حيث أثنى الكتاب المسرحيون على حين حالف البؤس والشقاء الشعراء الجدد . إن دريدن لم يكن به ميل إلى المسرحية ، ولكنه كان يتطلع إلى الحصول على لقمة العيش بانتظام . وحاول كتابة الملهاة فأخرج « زير النساء الطائش » (١٦٦٣) التي وصفها بيتر بأنها « أحقر شيء رأيته في حياتي تقريبا » (٢٨) . وفي أول ديسمبر ١٦٦٣ تزوج دريدن من ليدى إليزابيث هوارد ابنة إرل بيركشير ، وأشيرأبت الإغناطي ديشا من سيدة ذات مكانة وتزواج من

عناصر ، ولكنها كانت في سن الخامسة والعشرين ، وفي خطر من فواته الألوان ، كما كان أخوها سير روبرت هوارد للتلف على التأليف والكتابة ، قد ضمن تعاون دريدن معه في رواية « الملكة الهندية » التي أخرجها ١٦٦٤ ، في مشاهد بالغة البذخ ، مع نجاح عظيم .

وحددت هذه المسرحية « للأساة » طورا في تاريخ الأدب ، حيث تخلصت عن الشعر للرسائل الذي كان سائدا في عصر إليزابيث ، واستخدمت للقاطع للمقافة ذات البيتين اللذين يتكون كل منهما من خمس تقاعيل ، أسلوبا منتظما لها . وكان لورد أوريري قد تأثر بحلاوة واتساق المقافية في « للأساة » ، وأدخل هذا الأسلوب في رواياته . وعاد دريدن إلى الشعر للرسائل بعد ١٦٧٥ ، معترفا بأن المقافية تقضى إلى تمزيق سيل الكلام والتفكير . ولو أنه لقي عناء أكثر في نظم الشعر لأصبح شاعرا أعظم مما كان .

وواصل نجاحه التعاوني بعمل مستقل ، وهو « الامبراطور الهندي » (١٦٦٥) ، وكان موثقا وما بطل الراوية . وما كاد يجد لمسرحيته مكانا على المسرح الانجليزي حتى دام الطاعون لندن فأغلقت المسارح أبوابها لمدة عام . ولما زال كابوس الطاعون والحريق احتفل دريدن بخروج إنجلترا من هذه المحنة الثلاثة — الطاعون والحريق ثم الحرب — بقصيدة « سنة المعجائب » (١٦٦٦) وهي مكونة من ٣٠٤ مقاطع رباعية الأبيات ، تأرجح بين الوصف الرائع (المقاطع ٢١٢ — ٢٨٢) والتفاحة المبيانية (مثل للقطع ٢٩) ولما فتحت المسارح أبوابها من جديد في ١٦٦٦ عجل دريدن بالعودة إلى المسرحية . ولم ينتج حتى ١٦٨١ غير الروايات . وتميل مآسياته إلى أن تكون كلاما منهقارا نائبا طنانا ، ولكنها بدت لأعين معاصريه أممي منزلة من مآسيات شكسبير (٢٩) — ولما انضم دريدن إلى دافنانت في إعادة صياغة « العاصفة » كانت النتيجة باجماع المهترئين فيها أذالمياغة الجديدة تنطوي على تحسين كبير للأصل . وربما اتفقت معهم « شركة الملكية » في هذا الرأي لأنها كلفت دريدن بتزويدها بثلاث روايات في السنة مقابل

حصنة في الأربع التي بلغت ٣٥٠ جنبها في العام . أما ملهيات دريدن ، على الرغم من أنها داعة فاحدة مثل غيرها ، فإنها لاقت نجاحا أقل من نجاح مأسياته السبع والعشرين ، لأنه في هذه الأخيرة استطاع أن يثير اهتمام الرأي العام في الدنيا الجديدة والمهجين البدائيين المدهشين فيها ، وهكذا يقول المنصور في « فتح غرناطة » .

« أنا حر طليق مثلما خلقت الطبيعة الإنسان لأول مرة ، قبل أن يظهر قانون الاسترقاق الحقير ، حين هام النبلاء المتوحشون على وجوههم في الغابات » .

وربما كان نجاح هذه الرواية بالإضافة إلى ما تضمنته رواية « سنة المعجائب » ، من مديح منمق لشارل الثاني ، هو الذي كسب لدريدن منصب مؤرخ الملك ، بساعة التاج (١٦٧٠) . وبلغ دخله السنوي آنذاك ألف جنيه في المتوسط .

وفي خاتمة القسم الثاني من « فتح غرناطة » زعم دريدن تفوق مسرحية فترة عودة الملكية على المسرحية في عصر اليزابيث . وذهب منافسوه ، على حين قدروا له هذه التحية والجمالة ، إلى القول بأن في هذا اطراء مغاليا لمسرحياته . ولم يشارك المفكرون في المدينة جمهور المسرح إعجابه وتذوقه . لغة الطنانة الرنانة المسرفة في مأسيات دريدن ، وأصدر دوق بكنجهام بالاشتراك مع آخرين في ١٦٧١ هجاء صرحا تحت عنوان « التجربة » سخر كثيرا من المستحيلات والجمادات واللغة الطنانة للنمقة في المأسيات للماصرة ، وبخاصة ما كتبها دريدن . وأحس الشاعر بأنها لطمه له ، ولكنه كظم غيظة لمدة عشرة أعوام . وبعدها شهر بالدوق بكنجهام أيما تشهير في شخصية « زمسى » في أقوى أبيات رواية « أبشالوم وأخيتوفل » .

وفي الوقت نفسه عملت دراسته لشكسبير على تحسين فنه . وفي أروع مأسياته (كله من أجل الحب) (١٦٧٨) تحول من راسين والقافية إلى

مكسيرا والشعر المرسل . وأفرغ كل جهده وبراعته في أن يبارى ما كان منه في عصر اليزابث ، بصنعة طامة ، وعرض في ثوب جديد قصة أنطونيو وكايوبتره التي فقدت الدنيا من أجل قصة غرام قصيرة . ولو أن الرواية القديمة لم توجد لحظيت رواية دريدن بثناء وإعجاب أكبر ، ففي مواضع كثيرة منها ترتفع من الكلام الشديد البساطة إلى الشعور النبيل المكظوم ، كما يتمثل في قدوم أو كتافيا إلى أنطونيو لتعرض عليه صفع أو غسقى هذا (٣٠) . ورواية دريدن محكمة في ايجاز ، بقصد مراعاة الوحدات ، ولكنه بتضييق الحدث في أزمة واحدة في مكان واحد ثلاثة أيام ، اختزل الفكرة الرئيسية البطولية إلى قصة غرام ، وضيق للشهد الكبير الذي رأى في « أنطونيو وكايوبتره » (لشكبير) أن هذه القصة الغرامية ليست إلا جزءا من الأحداث التي هزت عالم البحر المتوسط وشكلته .

وأكثر الجواب امتاا وتشويقا اليوم في مسرحيات دريدن هي المقدمات التي قدمها بها مطبوعة ، والأبحاث التي شرح فيها وجهات نظره في الفن المسرحى . وكان كورنى قد ضرب له المثل ، ولكن دريدن جعل منه مجالا لثرائع . وإنما إذ نمر مرور الكرام بهذه الأبحاث الموجزة وهذه الحوادث القوية ، لنلمح أن عصر الخلق والابداع في الأدب الإنجليزى كان يعبر إلى عصر النقد الذي قد يبلغ ذروته في بوب . ولكن اجلالنا لتفكير دريدن وعقليته يزداد إذ نراه يسير في رشاقة ورفق غور أسلوب المسرحية ومعالجة تفاصيلها ، وفن الشعر ، ويقارن في مقدرة فائقة على التمييز والمقارنة ، بين المسرحين الفرنسى والإنجليزى . وانك اترى في هذه المقالات والبحوث أن الالتواء المثير في النثر في عصر اليزابث ، والجمل الطنانة المترجمة عند ملتون ، كل أولئك يفسح الطريق لأسلوب أبسط وأسلس وأكثر تنظيما ومنهجية ، أسلوب خلا من الترا كيب ، اللاتينية ، وزاده صقلا التعرف على الأدب الفرنسى ، لم يجبار الإفاقة الفرنسية كل المجازاة قط ، ولكنه أخرج إلى القرن الثامن عشر — قرن النثر — نماذج

من كلام يتميز بالصفاء والروعة والسلاسة وسحر البيان ، وعدم التكاف والقوة . وهنا اتخذت المقالة الإنجليزية شكلها ، وبدأ العصر الكلاسيكي (النموذجي الممتاز) للأدب الإنجليزي .

ولكن إذا كانت مقالات دريدن تبدو الآن أعلى مكانة من الروايات التي كانت سبباً في كتابة المقالات ، فإنه في الهجاء ساد عصره وأرهبه . وربما وقع حادث أطلق لسانه اللاذع . ذلك أنه في ١٦٧٩ وزع جون شفيلد إرل ملجريف نشرة مخطوطة بعنوان « مقال في الهجاء » لا تحمل اسم كاتبها ، هاجت إرل روشستر ، ودوقة بورتسموث (لويزدي كيرووال) ، بلاط شارل الثاني بصفه عامه . واتجه الظن خطأ إلى أن كاتب المقال هو دريدن الذي كان آنذاك يحصل على معظم دخله من الملك . وفي ليلة ١٨ ديسمبر في « زقاق روز — كوفنت جاردن » هجم على دريدن نفر من السوق وأوسموه ضرباً بالهراوات ، والمفروض أن روشستر استأجرهم لهذا الغرض ، ولو أن هذا لم يثبت على سبيل اليقين . وكان دريدن رجلاً ودوداً كريماً مستعداً لم يد المعونة وكيل المديح . ولكن نجاحه وغروره وافراطه في التحدث عن نفسه وتوكيداته الخلافية ، كل أولئك جلب عليه عداوات كثيرة . واحتمل دريدن لبعض الوقت حملاتهم عليه ، دون رد على منه ، بل أن « كمين زقاق روز » لم يلق استجابة سريعة من قلمه . ولكنه في ١٦٨١ جمع عديداً من أعدائه في مرجل واحد وسلمهم بالسنة حداد ، في ألدع هجاء عرف في اللغة الإنجليزية .

وتلك هي السنة التي حاول فيها شافستبري أن يقوم بثورة ليخلف ابن شارل الثاني غير الشرعي أباه على العرش وعندما ظهر القسم الأول من قصيدة « أبشالوم وأخيتوفل » كان شافستبري على وشك أن يقدم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى . وانحاز هجاء دريدن إلى جانب الملك ، وربما كان بإيعاز منه (٢١) . وهزأ الشاعر من شافستبري في شخص أخيتوفل الذي يحرض

أبغالوم (وهو دوق مونتوث) على الثورة ضد أبيه داود (شارل الثاني) .
ولما كان داود وشارل كلاهما قد أحبا عددا من النساء ، فإن القصيدة تبدأ
ببحث في قيمة تعدد الزوجات :

« في عهد التقي والورع ، قبل ظهور الكهنة وأساليهم ، وقبل أن
يصموا تعدد الزوجات بأنه خطيئة ، وحين تكاثر الإنسان بتعدد زوجاته
وقبل أن يقتصر الواحد على واحدة بكل بغيض . وحين استعشت الطبيعة
— ولم يمنع أى قانون — على معاشرة الخليلات والزوجات دون تمييز ،
وحين عاش ملك بنو إسرائيل ، برضا السماء ، على الزوجات والاماء من مختلف
الأنحاء ، في قوة وحيوية ، ونشر صورة خالقه على أوسع نطاق نطاق على
الأرض ، بأسره . »

ويتهج دوا د بجمال ابنه أبغالوم . وكان مونتوث ، حتى قيام الثورة ،
قرة عين أبيه الملك السعيد (شارل الثاني) ، أما بنو إسرائيل فهم الإنجليز
(في القصيدة) :

جنس عنيد متقلب متذمر ، أرقق النعمة الإلهية إلى آخر مداها ،
شعب الله المدلل الذي انغمس في الم لذات والشهوات ، والذي لم يستطع أن
يحكمه ملك أو يرضيه إله (٣٢) .

وأستروفل هو رئيس شياطين الخيالة ، وتتحقق لدن لغورها
أنه شافيتسبرى :

وكان على رأس هؤلاء جميعا اختيوفل الكاذب ، وهو اسم ملمون كرية
على مر العصور ، أهل لكل التدابير الخفية والمشورات الملتوية ، ذكي
جريء مضطرب الحواس ، قلق ، لا يثبت على مبدأ ولا يستقر في مكان ،
غير راض إذا تملك وتسلط ، ضائق صدره إذا تجرد من سلطانه ، يحمل
بين جنبيه نفسا محرومة مضطربة انهكت وأبليت جسم القزم وهي تشق طريقها .
ضائق بها جسده الهزيل ، قائد جسور لأخطار الأهمال أنياسة ، يطرب للأخطار

حين ترتفع الأمواج . أنه يلتبس الأعاصير والروابع ، لأنه لا يحب الهدوء .
يدنى سفينته من الرمال بفطنته وذكائه . يقينا أن ذوى المواهب العظيمة
قريبون من الجنون ولا يفصله عنهم إلا حواجز رقيقة . وإلا ، لماذا —
وهو ذو الثراء العريض والمناصب الرفيعة — يرضن على شيخوخته بما تحتاج
من راحة ودعة ؟ . . لا يقيم على ود ولا يخلص فى صداقة ، عنيد حقوقه
فى عدائه وبغضه ، مصمم على أن يدمر الدولة أو يحكمها هو (٢٣) .

ثم يحى دور الانتقام من دوق بكنجهام و « التجربة » :
ويقف على رأس هؤلاء (المعصاة الثاثرين) زمرى ، وهو رجل متعدد
الجوانب ، حتى إنك لا تحسبه واحدا ، بل صورة مصغرة لكل بنى البشر ،
جامد الرأى ، يجافى الصواب دائما . كان يتدفع فى كل أماله ، ولكنه
لا يثبت على حال . وخلال فر منير واحد ، كان السكيمياى والمازف ، ورجل
الدولة والمهرج . ثم ينصرف بسكنته إلى النساء والتصوير ، والشعر والشراب ،
فضلا عن عشرة آلاف نزوة تموت فى المهد . . وكان تبديد المال فنا خاصا
برع فيه . أغدق على كل الناس إلا من يستحقون المكافأة ، أفقره الحق
المهرجون الذين اكتشفهم بعد فوات الأوان . وحظى هو بالمرح ،
وحصلوا هم على ماله وضيعته (٢٤) .

ولم تر انجلترا قط من قبل مثل هذا الهجاء اللاذع الذى لا يرحم ،
الذى يركز كل التشويه والتجريح فى سطر واحد ، ويترك جثة ممزقة مهتمة
فوق كل صفحة . وبيعت القصيدة بالمشات خارج نفس الحكمة التى كان
يحاكم فيها شافنبرى ، مخاطرأ بحياته . وقضت الحكمة براءته فصك أشياءه
الأحرار (الهوبج) « ميدالية » تمجيداله ، وانبرى عدد من الشعراء
والكتاب يترجمهم توماس شادويل لإصدار ردود ظافرة على الرجل الذى
أيقنوا أنه باع عقله ، ولسانه السليط وبيانه السكاوى إلى الملك . وطود
دريدن الكرة بهجاء آخر ، « للميدالية » (مارس ١٦٨٢) سلق فيه شادويل ،
بصفة خاصة ، فى قصيدة « ما كفلكنو » (أكتوبر) . وهنا كان الدم

والقدح أسكى وأمر ، فانحط أحيانا إلى شتائم لفظية صريحة ، لم تتميز ، مثل الهجاء السابق ، بمقاطع قاصدة تنشر السم في دقة دون اسراف أو اسفاف .

إننا لا نستطيع اليوم هذا اللون من « الذبح » الأدبي ولم نعد نتذوقه إلا قليلا ، وأنا لثرتاب بعد قرون من الجدل والمناقشة ، في أن هناك بعض الصدق في كل عاطفة أو هوى ، وأن في كل خصم أو عدو شيئا محببا . وما السياسة حتى في أيامنا هذه إلا حرب بوسائل أخرى ، أكثر بكثير مما كانت حين كان عرش أسرة ستيوارت يتربع على حافة الثورة ، وكان الظهور إلى جانب الفريق الخاسر المنهزم قد يعنى الموت المحقق . وعلى أية حال ، فإن دريدن بذل كل همه ، مما أكسبه امتنان الملك ودوق يورك ، ولم ينازعه أحد آنذاك التربع على عرش مملكة الشعر . وكانوا يحجزون له — إذا قصد إلى « حانة ول will » مقعدا إلى جانب المدفأة في الشتاء ، وفي الشرفة صيفا ، وهناك رأى يبرز وسمع « أحاديث طريفه ذكية (٣٥) » وصورة سير والتر سكوت ، في خيال مبدع ، وهو يدخل إلى هذه الحانة ، « رجل عجوز بدين قليلا ، ذو شعر أشيب ، يرتدى حلة سوداء بالغة الأناقة ، محمكة الأطراف وكأنها قفاز ، تشرق في وجهه أرق ابتسامه رأيتها في حياتي (٣٦) » وكان الانحناء تحية لشاعر التاج والاستماع إلى رأيه في آخر مأساة أخرجها راسين ... يعتبر ميزة ، كما كانت القبضنة من علبة سموطه شرفا كفيلا بأن يريك المتحمس الناشئ . وكان كل العطف بعينه بالنسبة لأصدقائه ، ولكن ما كان أسرع في كيل السباب لمنافسيه وخصومه (٣٧) وما كان لأحد أن يبرزه في طراء شعره . إن تعلقه للملك وليدى كاسلين ولكل أولئك الذين يحزلون له الطعام مقابل الإهداء إليهم ، جاوز الحد المألوف من الاستسلام الدليل في مهنته في عصره (٣٨) . ومع ذلك فإن كونجريف بادلته التشجيع بمثله حين وصفه بأنه « بالغ الإنسانية والرجة ، مستعد أن يغتفر الإساءة ، أهل للتراضى بإخلاص مع من أساء إليه (٣٩) » .

والآن ، وقد آذن جسمه بالضعف والانحلال ، بدأ الشاعر يفكر في الدين بشكل أكثر انعطافاً وميلاً ، مما كان عليه في سني القوة والفتوة والزهو والغرور . لقد اندفعت مسرحياته وقصائده هجائه اندفاطاً طارئاً بين هذا وذاك من مختلف المذاهب الدينية ، أما الآن ، وقد ربط الشاعر مصيره بالمحافظين (الملكيين — التوري) ، فإنه تحول إلى الكنيسة الأنجليكانية بوصفها ركيزة للاستقرار في إنجلترا ، مستنكراً عدوان العقل للمتغرس على هذا الحرم للمقدس ، ألا وهو الإيمان والعقيدة . وفي نوفمبر ١٦٨٢ أدهش أصدقاءه الديويين بنشره قصيدة « الدين والدنيا » دفاطاً عن الكنيسة الرسمية . وبداله أن الكتاب للقدس المنزل ، بل وكنيسة معصومة من الخطأ تفسره وتسكله ، دعامتان لاغنى عنهما للمجتمع ولسلامة العقل . وكان على علم بالخلافات وبالجدل بين الربوبين ، وكان رده عليهم أن شكوكهم إنما تبكر صفو النظام الاجتماعي للعقد الذي لا يمكن أن يدعمه إلا قانون أخلاقي تقره عقيدة دينية .

لأنه لا قيمة ولا فائدة في تعلم النقاط الغامضة ، أما السلام العام فهو كل ما يهم العالم .

وتلك حجة كان يمكن أن تستخدم قضية الكنيسة الكاثوليكية أيضاً ، وتابعها دريدن إلى غايتها بتحويله إلى الكاثوليكية ١٦٨٦ . ولسنا ندري إذا كان لاعتلاء ملك كاثوليكي العرش في السنة السابقة ، ولتلهف الشاعر على الاستمرار في الحصول على رواتبه — نقول لسنا ندري إذا كان لهذا الأمر أو ذاك دخل في هذا التحول (٤٠) . على أن دريدن على أية حال ، صب كل فنه — الشعرى ليشرح وجهة النظر الكاثوليكية في قصيدة « الأيلة والتمرة » The Blind and The Panther (١٦٦٧) وفيها (أيلة ناصعة البياض » تدافع عن المذهب الكاثوليكي ، ضد تمرة « هي أجمل النوع المرقط » التي تمثل المذهب الأنجليكاني . وكانت صورة حيوانين من ذوات الأربع يناقشان موضوع الوجود الحقيقي في قربان المقدس مدعاة للسخرية (٤٢) والتسخيف .

سرحان مآثرهما ماتييو برير Prior ولورد هاليفاكس في محاكاة تهكية تحت عنوان « الآية والجمرة تنقل إلى قصة فأرة القرية وفأرة للدينة » (١٦٨٧). وفي ١٦٨٨ فرجيسم الثاني إلى فرنسا . ووجد دريدن أنه يعيش من جديد في ظل ملك بروتستانتى ، فلزم مذهبه الجديد ، وكان أولاده الثلاثة يعملون في روما تحت إمرة البابا . كما أن الردة إلى مذهب آخر أمر غير مقبول ، فاحتل في شجاعة وجلد فقدانه لمنصب شاعر التاج ولراتبه ووظيفته « مؤرخ للملك » ، على أن التاريخ ، زاد من أحزانه ، لأنه أضى كل هذه للناسب والشرف على شادويل الذى توجه دريدن ملكا على الهراء ، وصوره نموذجاً للغباء . وعاد في شيخوخته يكسب بقلمه قوت يومه . فكتب مزيديا من الروايات ، وترجم مختارات من تيوكريتس وهوارس وأوفيد وبرسيوس ، وأخرج الأبيادة في شعر بطولى في أداء غير محكم ، ولكنه سلس ، ونقل بأوزانه المصرية الخاصة بعض أساطير هوميروس وأوفيد وبوكاشيو ، وتشوسر . وفي ١٦٩٧ وهو فى السابعة والستين اعظم قصيدته للشهيرة « ولعبة الاسكندر Alexanders Feast ، التى حظيت بأعظم الثناء والإطراء . ووافته للنية فى أول مايو ١٧٠٠ ، وشهدت جنازته اضطرابا شديدا ، وتنازعت الشيع للتنافسة جثمانه ، وأخيرا وورى التراب إلى جانب تشوسر فى كنيسة وستمنستر .

ومن الصعب أن تحب هذا الشاعر ، فكل الظواهر تقول بأنه كان انتهازيا نفصيا متقلبا ، امتدح كرومول فى فترة الحماية ، وكال للديبح اهارل الثانى وخيلاته ، وأثنى على البروتستانتية فى عهد ملك بروتستانتى ، وأطرى الكاثوليكية فى ظل ملك كاثوليكي ، وألمس موارد كسب للال بكل الطرق ، وجلب على نفسه عداوة كثير من الناس ، مما لا بد منه أن يكون ثمة شيء يكرهه الناس فيه . وجارى كل منافسيه فى إباحية رواياته وتحررها من كل القيود ، وفى تورعه فى شعره . وبلغت قوته فى الهجاء مبلغا يستدر العطف على ضحاياه ، مثل العطف على الشهداء وهم يحترقون على الخازوق . ولكن

لا جدال في أنه كان أعظم الشعراء الانجليز في جيله . وكتب معظم شعره في المناسبات ، وقلما حفظ الزمن شعرا نظم للمناسبات . ولكن هجاءه لا يزال حيا ، لأن أحدا غيره لم يستطع أن يأتي بمثل هذا الهجاء الذي صور الشخصيات في ازدراء قارس وسخرية لاذعة . وطور المقطع الشعري البطولي ذا البيتين إلى درجة من الإيجاز المحكم واللرونة ، سيطرت على الشعر الانجليزي طيلة قرن من الزمان . وكان أثره على النثر أقوى ، حيث نقاه من التراكيب للزعجة والمصطلحات الغريبة ، وضبطه على درجة ممتازة من الصفاء والسهولة . وكان معاصروه على حق حين كانوا يرهّبونه أكثر مما يحبونه . ولكنهم أدركوا أن له الحق كل الحق ، بفضل قوة إرادته وبراعته في فنه في صناعة الأدب والكتابة ، وملسكا على عرش القوافي ، فكان بن جونسون الروائي ، ودكتور صمويل جونسون الكاتب ، في وقت معاه في عصره .

٤ — في ثبت واحد

والآن نجمع في قائمة غير نابضة بالحياة بعض الشخصيات الأصغر شأنا الذين أمدوا هذه الفترة بالحياة وبالأدب ، ولكننا لن نستطيع أن نمكث معهم طويلا لننتبع مجرى حياتهم .

وأعظم قصيدة في الجانب الوثني من فترة عودة الملكية كانت ملحمة بيوريتانية ، ولكن أشهرها هي ملحمة هجاء ساخر ضد البيوريتانية : « هو دبراس » (١٦٦٣ — ١٦٧٨) . ذلك أن الشاب الفاجر ، صمويل بتلر ، قضى عدة سنوات مضنية في خدمة سير صمويل لوك ، وهو مشيخي (برستيران) متحمس غيور ، ضابط برتبة زعيم في جيش كرومول ، كان مقره في « كوبل هو » ، وهي قلعة بيوريتانية للسياسة والعبادة . وعندما عادت الملكية ثار بتلر لنفسه بنشر هجاء مرع ، يصور فيه كيف أن سير هو دبراس الفارس المغوار يقود سيده صاحب الأرض « رالف » إلى حرب

صليبية ضد الخطيئة والإثم . وتستطيع أن تحكم منذ بداية القصيدة عليها .
 « حين اشتدت ثورة الغضب والحقد بين الناس لأول مرة وتشاجروا لأنهم
 لم يدركوا السبب ، وحين أشعلت السمكات النارية والأحقاد والمخاوف نار
 الحرب بين الجماعات وجعلتهم يقتتلون كالحجائين أو المخمورين ، من أجل
 « السيدة : الديانة » وكأنا يقتتلون من أجل عاهرة فاجرة . . . وحين أعلن
 نافخ البوق الإنجيلي يحيط به الرعاع ذوو الأذان الطويلة ، النفير من أجل
 الحرب ، ودقت طبول المنبر والكنيسة بمجامع الأيدي بدلا من العصي .
 عندئذ فادر السيد الفارس مسكنه وامتنطى صهوة جواده متزعا الركب . . .
 وكان كثيرون من الناس يرون ، أنه كما اشتكى موتاني من أن قطته حسبته ،
 وهو يداعبها ، حمار آ ، فلا بد أن القطه تحسب هو دبراس حماراً أو أكثر من
 حمار ، وإنا لنسلم بأنه على الرغم مما أوتى من ذكاء شديد ، فإنه ينجل من
 استخدامه ، وكأنا يكره أن يستنفذه ويبلية ، ولذلك لم يظهره أو لم يلبسه
 إلا في أيام العطلة أو ما يشابهها ، كما يرتدى الناس أحسن ملابسهم . . . وكان
 من الملائم ، من أجل عقيدته ، أن يوفق بين علمه وذكائه ، وكان مذهبه
 مشيخياً صادقاً متشدداً ، لأنه كان من بين العصبة العنيدة من القديسين
 الضالين الذين يقر الناس جميعاً بأنهم المناضلون الصادقون عن الكنيسة المجاهدة
 الذين يبنون عقيدتهم على الرمح والمدفع ، ويحسمون كل الخلافات عذمية
 لا تخطئ المرعى ، ويثبتون صحة نظريتهم بالضربات والسمكات . الرسولية . .
 فرقة تتمثل أعظم تقوالم في كراهياتهم الحقاء الضالة ، الشاذة فرفة نحرم
 على الخطأ في يوم العطلة أكثر من حرص سائر الناس على الصواب ، بجمعة
 على الخطايا التي فطرت عليها . تلحن أولئك الذين لا يفكرون فيها (٤٣) .

وهكذا مما آلم البيوريتانيين أيما إيلام وسر الملك كل السرور . ومنح
 شارل المؤلف جائزة قدرها ثلاثمائة جنيه . وامتدح كل الملكيين القصيدة
 فيما عدا بيدز الذي لم يستطع « أن يتبين موضع العبقرية فيها » ، على الرغم
 من أنها تعتبر الآن من أحدث طراز من الهزل والسخرية (٤٤) ، وبأدر بتلر

إلى الاستزادة من الكتابة (١٦٦٤ — ١٦٧٨) ، ولكن لم يعد في جميعته
سهام ، ولم تسعفه القوافي . وحل النزاع بين البروتستانت والكاثوليك محل
النزاع بين الملكيين والبيوريتانيين . ونسى القوم بتلر ، وقضى نحبهم مغمورا
معدما (١٦٨٠) . وبعد أربعين عاما أقيمت له لوحة تذكارية في كنيسة
وستمنستر ، تحمل هذه العبارة « طلب الخبز ففتح حبرا (٤٥) » .

وخير من هذا الشعر الهزلي المعتل الوزن الذي بتصيد القوافي ، ثر كلارندون
العظم في كتابه « تاريخ الثورة » الذي ظهر في ١٧٠٢ على — الرغم من أنه
كتب في ١٦٤٦ — ١٦٧٤ — وشهد الناس في عهد الملكة آن مقدار العناية
التي بذلت في تأليف هذه المجلدات الثمانية ، وروعة أسلوبها ، وكيف كان
تصوير الشخصيات أخذا ، وكيف كانت روح قاضي القضاة الذي ضرب
قدما ، طالية . وبالمثل لعب جلبرت بيرنت دورا ليس بهزيل في كتابه
« تاريخ زمانه » الذي لم ينشر ، بأمر منه ، إلا بعد وفاته ١٧٢٤ . أما كتابه
« تاريخ إصلاح كنيسة إنجلترا » (١٦٧٩ ، ١٦٨١ ، ١٧١٥) فكان حملا
أضخم ، وكان ثمرة بحث طويل ، وظهر في وقت كانت فيه إنجلترا البروتستانتية
تخشى إحياء الكاثوليكية . وقدم له مجلسا البرلمان كلاما الشكر عليه .
ووجد فيه الأعداء والمحررون ألفا من الأخطاء . ولكنه لا يزال يحظى
بمن يشايه وينتصر له ، وفي بعض الأحيان يكون موضع ذم وطعن .
ولكنه يظل أعظم مرجع في موضوعه ، وحاول بيرنت أن يوسع دائرة
التسامح الديني ، فكسب عداة السوق .

وسعى ثلاثة رجال آخرين إلى تكبير الحاضر بأن يضيفوا إليه صورا
من الماضي . وطاف توماس فولر Fuller بأرجاء الأرض الحبيبة متنقلا
من بلد إلى بلد ، حيث جمع كتابه « تاريخ مشاهير الرجال في إنجلترا
(١٦٦٢) ، وأحيا أبطاله الأموات بما روى عنهم من فذلكات وحكايات
ودموية وذكاء ، وبما كتب على شواهد قبورهم . وقص أثنوني وود
تاريخ أ كسفورد ، وجمع ثبنا حوى سير حياة خريجيها ، وللوافات القيمة
١٦ — قصة الحضارة

التي اقتبس منها كثير من المؤلفين خلاصة . وجمع جون أوبري شذرات ممتعة عن نحو ٤٢٦ من مشاهير الإنجليز ، على أمل أن ينسق هذه المادة المجموعة في تاريخ كامل ، ولكن الخمول والمنية حالتا دون طبع « سير الحياة » قبل ١٨١٣ (٤٦) . وقد شجعتنا ذخائره على المضي في طريقنا . وهناك الكولونيل (الزعيم) جون هشتشون ، وهو بيوربتاني أيد إعدام شارل الأول ، وزج به شارل الثاني في السجن ، وما أن أخلى سبيله حق عاجلته المنية ، وخلدت أرملته لوسي ذكراه في كتاب « حياة كولونيل هشتشون » وهو كتاب لطيف رفع من مكانة صاحب السيرة . ولكن لوسي كان يعيبها الوقفات الطويلة فكات عباراتها أحيانا تمتد إلى صحيفة كاملة أما جون آريوتنوت ، الطبيب البار ، والصديق المخلص لسويفت وبوب والممسكة آن ولـكثيرين غيرهم ، فإنه انضم إلى حملة المحافظين لوقف الحرب مع فرنسا ، بأن أصدر في ١٧١٢ سلسلة من النشرات يهجو فيها الأحرار ، ويصف شخصية خيالية هي « جون بول » الذي أصبح منذ ذلك الوقت رمزا على إنجلترا . ويقول جون آريوتنوت عن جون بول :

« أنه شخص أمين شريف صريح في التعامل مع الناس ، سريع الغضب ، جرىء ، متقلب المزاج . . . إذا تعلقته ولاطفته كان سلس القياد ، إن مزاج جون يعتمد كثيرا على الهواء ، فيرق مزاجه أو يتكدر تبعاً لحالة الجو . وكان جون ذكياً . يدرك مهمته تمام الإدراك ، ولكن ليس على قيد الحياة إنسان أشد منه إهمالا في إمعان النظر في حساباته ، ولا أكثر انخداعا بشركائه أو غلمانه أو خدمه . ذلك لأنه رقيق سرح ، مولع بالخمر والامور والتسلية . والحق أنه لا يوجد إنسان أشد عناية ببيته ولا أكثر سخاء في الاتفاق من جون (٤٧) » .

وماذا عسى أن يقول سيروليم تيمبل إذا وجد أنه اختزل في فقرة من فصل بلغ الذروة بسكريته ؟ ربما قال — إذا سمحت له آدابه الرفيعة — إن للورخين أهملوه لأنه لم يحتفظ بامرأتين تطعمان في الزواج ، حتى قضت

إحداهما نحبها ، وأنهكت الأخرى ، أو لأنه لم يبع قلبه لوزراء المحافظين استياء من الأحرار ، أو لأنه لم يغمس هذا القلم في ذم البشر ، ولكن خدم وطنه في هدوء بدبلوماسية ناجحة ، وفي عصر ساد فيه الفساد والفجور ، ضرب لانجلترا مثلا صادقا غير مصطنع لحياة أسرية تزينها الحشمة والوقار . وظل لمدة سبع سنين يتوحد إلى دوروتى أو زيورن التى أصبحت رسائلها الرقيقة إليه قطعا من الأدب الانجليزى (٤٨) وارتضته زوجا لها رغم معارضة أسرتهما . وتزوجها بعد أن شره الجدري جمالها . ودخل توبل معتزلة الحياة السياسية ، ولكنه آثر الأعمال التى نأت به عن حمى لندن ، وتجنب « العبودية المضمنية التى تثير البغض والحسد ، والتى تحصى فيها الحركات والسكنات ، والتى يطلقون عليها من قبيل السخرية والاستهزاء ، السلطة والنفوذ (٤٩) » . وكان من أوائل ، من حذروا من أطماع لويس الرابع عشر التوسعية ، وكان المخطط الرئيسى للحلف الثلاثى الذى وقف فى طريق الملك الفرنسى ١٦٦٨ . وعرضت عليه الوزارة فى ١٦٧٤ و ١٦٧٧ ولكنه آثر منصبه الدبلوماسى فى لاهاي . وأدت مفاوضاته للوسومة بالحصانة والنظر الثاقب إلى زواج ماري ابنة جيمس الثانى من ولیم الثالث الذى أصبح ملكا فيما بعد . وهو الزواج الذى مهد الطريق « للثورة الجليلة » . وفى ١٦٨١ اعتزل السياسة وانصرف إلى الدراسة والتأليف فى « موربارك » ، ضيعته فى « سرى » وحسبه سويغت جامدا متحفظا ، ولكن زوجة سير ولیم وأخته ، كلتيهما ، أحبتاه إلى حد العبادة ، على أنه ملاك الرحمة والكياسة واللفظ . وأهم أبحاثه « المعرفة قديمها وحديثها » (١٦٩٠) ، الذى رفع فيه من ذكر الأقدمين وانتقص من قدر العلم الحديث والفلسفة الحديثة ، فى شخص نيوتن وهوين وسبينوزا وليبنز ولوك . وتصيد ينتلى لكاتب خطأ جسيما . فأوى سير ولیم إلى حديقته ، وتسلى بابيقور ، ولسوف نلتقى به ثانية .

٥ - إيفلين ويبير

اتفق جون إيفلين مع تمبل في « أنه إذا دخلت الأحزاب في الدولة وتعمقت جذورها فيها ، فمن الحق عندئذ أن يتدخل أفاضل الرجال في الشؤون العامة » (٥٠) ولما بدأت الحرب الأهلية رأى أنه قد آن الأوان للرحيل . وخادر إنجلترا في يولية ١٦٤١ . ولكن وخز الضمير أماده إليها في أكتوبر ، وانضم إلى جيش الملك في برنتفورد ليشارك في الانسحاب في نفس الوقت الذي وصل فيه . وبعد شهر من الخدمة في الجيش آوى إلى ضيعة أبويه في ووتون في سرى . وفي ١١ نوفمبر ١٦٤٣ عبر البحر ثانية إلى القارة . وطاف على مهل بأرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا وهولنده ، ثم قفل راجعا إلى فرنسا . وفي باريس تزوج من فتاة إنجليزية . وتنقل لبعض الوقت بين فرنسا وإنجلترا ، حتى وضعت الحرب الأهلية أوزارها ، حيث عاد إلى الوطن (٦ فبراير ١٦٥٢ . ورشا حكومة كرومول لتتركه وشأنه . وتبادل الرسائل مع شارل الثاني في منفاه ، وفي ١٦٥٩ بذل جهدا جبارا لتمجيد بعودة الملكية . وبعد ارتقاء شارل الثاني عرش إنجلترا أصبح إيفلين شخصية مرموقة في البلاط ، ولو أنه دمه بالأنحلال والفساد ، وشغل بعض المناصب الحكومية الصغيرة ، ولكنه في معظم الأحوال آثر أن يفرس الأشجار ويؤلف ثلاثين كتابا في بيته الريفى . ودون كل شيء من لو كريس إلى سبتاي زيني . وعجز كتابه « للبحرة » عن تنقية هواء لندن ، ولكن في كتابه « أشجار الغابات » دأدعوة حارة إلى إعادة تدجير إنجلترا ، وحث الحكومة على فرس الأشجار في مختلف أنحاء لندن ، التي تعد أشجارها اليوم من أعظم مفاخرها ومباهجها . أما كتابه « حياة مسز جودولفين » ، فهو مثل أعلى في فضائل النساء وسط عريضة عودة الملكية وصخبها .

ومن ١٦٤١ إلى ٣ فبراير ١٧٠٦ ، قبل وفاته بأربعة وعشرين يوما ، دون إيفلين في مذكراته كل ما رأى وسمع في إنجلترا أو في القارة . وبوصفه

رجلا من ذوى المسكاة لم يكن فى مقدوره أن يسجل من الخطايا أو الآراء الشخصية جداً ، مثل تلك التى تغرينا بقراءة « مذكرات » بيبز المسهبة ، ولكن وصفه لمدن أوربا ساعداً كثيراً على اكتناء ماهية العصر . فى مذكرات ايفلين صفحات رائعة عن « ممر سمبلون (١) » وكان فى بعض الأحيان يفصح عن مكنون صدره فى قطع تفيض بالحب والحنان والرفقة ، مثلما كتب عن وفاة ابنه وهو فى سن الخامسة . ولم تنشر مذكرات ايفلين إلا فى ١٨١٨ .

إن إشارات ايفلين إلى بيبز فى مذكراته أدت إلى فحص المجلدات الستة المكتوبة بطريقة الاختزال ، والتى كان بيبز قد أوصى بها لىكلية مجدلن فى كمبردج . وحلت رموز المذكرات التى بلغ عدد صفحاتها ٣٠١٢ بعد ثلاث سنوات من جهد شاق ، ونشرت فى ١٨٢٥ ، بعد اختصارها وتنقيتها . وهى الآن ولو أنها لم تستكمل ، تملأ أربعة مجلدات ضخمة . على أنها جعلت من بيبز شخصية من أكبر الشخصيات المعروفة فى التاريخ بالصراحة وعدم الصبغة . أما من حيث الصراحة ، فمن الواضح أنه قصد أن تنشر المذكرات إذا قدر لها أن تنشر — بعد وفاته ، لا قبلها — ولهذا حوت تفاصيل كان ينبغى كتمانها فى حياته ، ولا يزال بعضها « غير قابل للنشر » . أما عدم صحتها ، فيرجع إلى أنها تتناول حقبة تقل عن عشر سنوات (١ يناير ١٦٦٠ — ٣١ مايو ١٦٦٩) من حياة بيبز ، ولم تورد سرداً وافياً لعمله فى أركان حرب القوات البحرية الانجليزية ، حيث تدرج فى أعمال ازدادت أهمية من ١٦٦٠ إلى ١٦٨٩ ، وبعد وفاته بزمان طويل تذكره وكرموه على أنه رجل إدارة قدير نشيط مجد .

وكان أبوه خياطاً (ترزياً) فى لندن ، وكان ابناً صغيراً لأحد الملاك اتجه إلى العمل والتجارة لأن الإبن الأكبر ورث الضيعة طبقاً للقانون . ودخل صمويل كمبردج على منحة ، وحصل على درجتى الايسانس والاستاذية ، ولم تسجل له أية عقوبة . إلا تأييد على « لأنه شوهد يوماً يحتسى الخمر

بشكل مخز ، ، ومرة أخرى لأنه كتب قصة « الحب خداع » التي أعدها فيما بعد . وفي سن الثانية والعشرين (١٦٥٥) تزوج من إليزابيث سنان ميشيل ابنة أحد الهيجونوت . وفي ١٦٥٨ أجريت له عملية « الحصاة في الكلى » ، ونجحت العملية وظل يحتفل بذكرى نجاحها سنويا بعد ذلك ، تعبيراً عن الحمد والشكر ، كما يظهر من السنوات المسجلة في مذكراته .

وكانت هناك صلة قرابة بعيدة تربطه بسيرادوارد مونتاجو ، فعين بيبز سكرتيراً له ، (١٦٦٠) ورافقه صمويل في الأسطول الذي قاده لإحضار شارل الثاني من المنفى . وقبل أن ينصرم هذا العام عين بيبز كاتباً للعمليات في إدارة البحرية . فثار على دراسة الشؤون البحرية بالقدر الذي مسموح له به مطارده للنساء . ومنذ كان رؤساؤه منسكبين أيضاً على هذه الرياضة القديمة ، فإنه سرعان ما أصبح أكثر دراية بتفاصيل البحرية من أميرى البحر كليهما (مونتاجو ودوق يورك) ، إلى حد أنها اعتسدا على معلوماته . وفي أثناء الحرب مع هولنده (١٦٦٥ — ١٦٦٧) نجح نجاحاً مشهوداً في تأمين الأسطول ، وعند تفشى الطاعون لزم عمله في الوقت الذي فر فيه معظم موظفي الحكومة . وفي ١٦٦٨ حين حمل البرلمان على إدارة الأسطول ، وكل إلى بيبز أمر الدفاع عنها ، وبفضل خطابه الذي استمر ثلاث ساعات في مجلس العموم برئت إدارة الأسطول تبرئة لاستحقاقها . وبعد ذلك كتب بيبز لدوق يورك ثلاث مذكرات عرض فيها وجوه النقص والخلل في هيئة البحرية ، وقد لعبت هذه المذكرات الثلاث دوراً في إصلاح الأسطول . وبذل بيبز جهداً جباراً ، وكان يصحو من نومه عادة في الرابعة صباحاً (٥٢) . ولكنه وجد أنه كان يستعين على راتبه الذي يبلغ ٣٥٠ جنيه في العام ، بالهدايا والعمولات والمنح التي يمكن أن يسهل بعضها رشوة ، ولكنها كانت في هاتيك الأيام اللطيفة تعتبر زيادات إضافية مشروعة . وكان رئيسه لورد مونتاجو نفسه قد أوضح له « أنه ليس مرتب أية وظيفة هو الذي يجعل شاغلها غنياً ، ولكن فرصة الحصول على

الأموال وهو يشغلها (٥٣) .

وكل ما ارتسكب يبرز من أخطاء مدون بصراحة خالصة تامة نسبيا .
وليس واضحا أمام أعيننا السبب الذي من أجله احتفظ بها بمثل هذه الأمانة .
إنه أخفاها في حذر وعناية طوال حياته ، ودونها بطريقة الاحتزال الخاصة
به ، مستخدما ٣١٤ حرفا مختلفا ، ولم يضع ترتيبا خاصا لنشرها بعد وفاته .
وواضح أنه وجد لذة ومتعة فاستعرض أنشطته اليومية والاضطرابات في
أعضاء جسمه وشجاراته الزوجية ، ومغازلاته وعبه ، وعلاقاته النسائية
الشائنة . إنه — إذا أطاد قراءة هذا السجل — بينه وبين نفسه — لا بد أن يشعر
بما نشعر به نحن من رضا خفي إذا نظرنا لأنفسنا في المرآة . وهو يروى
لنا كيف أنه جعل زوجته تحلق له شعره « فوجدت في رأسي وجسمي .
نحو عشرين قملة » وهذا في إعتقادي ، أكثر مما وجدت في هذه السنوات
العشرين (٥٤) . وتعلم أن يحب زوجته ، ولكن بعد مشاجرات كثيرة ،
تميز في بعضها غيظا ، وكثيرا ، على حد قوله ، ما أساء معاملتها ، وفي إحدى
المرات « جذبها من أنفها (٥٥) » . وفي مرة أخرى « لطمها على عينيها
اليسرى لطمة جعلت البائسة المسكينة تصرخ من شدة الألم ، ولكنها
اكتفت وحاولت أن تمضني وتخدشني بأظافرها ، ولكنني تظاهرت بالخجل
مما فعلت حتى أمسكت هي عن الموييل (٥٦) » ووضع على عينيها ضيافة ،
وانصرف للقاء إحدى خليلاته . وعاد إلى البيت لتناول العشاء ، ثم فادته ،
حيث لقي « زوجة باجول ، فصحبته إلى إحدى حانات الجمعة ، وهناك
لامفتها كثيرا ، ثم افترقت عنها إلى امرأة أخرى حاولت أن أطاقتها وأقبلها ،
ولكنها لم ترغب في شيء من هذا ، مما ضايقني كثيرا » .

وقد يبعث على العجب والدهشة أن يكون للرجل مثل هذه الطاقة
الحوية . فاستبدل الشيقه كل بضعة شهور ، وطارده النساء حتى صدده
هنن بالدبايس (٥٧) . واعترف بأنه « وقع في أسرا الجمال إلى حد غريب (٥٨) » .
وقال « كنت اجتمع في كنيسة وستشستر إلى عظة ، وقضيت الوقت (بمعنى

« الله » محمداً النظر في مسز بتلر (٥٩) « وكان يتطلع في شغف خاص ولطف جارف مما يكاد يكون خيانة عظمى - إلى ليدى كاسلين (عشيقته للملك) ، ومنذ وقع نظره عليها في قصر هويتبول « استغرق في النظر إليها (٦٠) » .
ولسكنه قنع بشبابها المرصومه في صف واحد ، وفي هذا يقول « وكان من الطير لي أن أتطلع إلى هذه الثياب (٦١) » ، فلما « عدت إلى البيت وتناولت العشاء وآويت إلى الفراش ، تخيلت أنني أأازل مسزستيوارت (ليدى كاسلين وأعبت معها . في نشوة غامرة من السرور (٦٢) » . ولكن نفسه لم تهف إلى فائنات البلاط فحسب . فقدمرت ببابه يوماً مسزديانا ، إحدى جاراته ، فجذبها « إلى البيت وصعدت بها الطابق الأعلى ، وبقيت ألهو وأعبت معها فترة طويلة (٦٣) » . وأخذ مسز لين إلى لامبث (أحد أقسام لندن) « وبعد أن سئمت رفقتها « صممت » على الأعود لمثل هذا ما حييت (٦٤) » وضبطته زوجته ذات مرة يعانق فتاة ، فهددت بالانفصال عنه ، فهدأ من روعها بالوعود والأيمان . وإنطلق إلى آخر عشيقاته . ذلك أنه أغوى وصيفة زوجته - ديبورا ويلت - وكان يحب أن تمشط ديبورا له شعره ، ولكن زوجته انقضت عليه أثناء مغامراته مع ديبورا . فعاد يقسم ويعد بتمهيد من جديد ، وطردت الوصيفة ، وأخذ يبرز يتردد عليها وكأن زيارتها جزء من عمله اليومي .

وظلت رغبته الجنسية على حدتها حتى حين ضعف بصره . إن عادة القراءة والكتابة في ضوء الشمع بدأت تضعف بصره في ١٦٦٤ . ولكن في سنوات العسرة التي تلت ذلك ، بذل في العمل جهداً شاقاً بصفة خاصة ، على الرغم من تقاعده . وفي ٣١ مايو دون آخر ما سجل في مذكراته :

« وهكذا ينتهي ما أشك في قدرتي على المضي فيه إطلافاً بنور عيني ، ألا وهو تدوين مذكراتي . ومهما تكن النتيجة فليس لي ألا أن أتجلد وأحتمل . ومن ثم اعتزمت أن يدونه من حولي بطريقتهم في الكتابة العادية ، ولذلك ينبغي أن أقنع بالأسجل إلا ما هو صالح لأن يعرفوه

ويعرفه العالم أجمع . وإذا كان هناك شيء - وهو ليس بالكثير ، بعد أن ولت كل خليلاتي مع ديبورا ، وقعدت في ضعف بصري عن الاستمتاع بأية ملذات أو مسرات - فلا بد أن أحاول أن احتفظ في كتابي بهامس ، أضيف فيه ، هنا وهناك ، بعض الملاحظات بخط يدي ، بطريقة الاختزال . وهكذا أروض نفسي على هذه الطريقة التي لا تقل صرامة عن أن أراي محولا إلى القبر الذي يتولى الله العلي العظيم إعدادي له ، ولكل المتاعب والمشاق التي لا بد أن تنتابني عندما أفقد نور عيني . صمويل بيبز .

وتبقى له من عمره بعد ذلك أربعة وثلاثون عاما . وظل يتمهد في عناية بالغة ما بقي له من نور عينيه ، ولم يعم بصره تماما قط ومنحه الدوق والملك أجازة طويلة انقطع فيها عن العمل ، عاد بعدها إليه . وفي ١٦٧٣ عين سكرتيرا لإمارة البحر ، وفي نفس الوقت تحولت زوجته إلى الكاثوليكية . ولما وقعت مؤامرة البابا على انجلترا اعتقل بيبز وأودع سجن لندن (٢٢ مايو ١٦٧٩) للاشتباه في أن له ضلعا في مقتل جودفري . ثم دحض الإتهام وأُخلى سبيله بعد تسعة أشهر قضاها بين جدران المعتقل . وبقي بعيدا عن الوظيفة حتى ١٦٨٤ ، حيث أعيد سكرتيرا لإمارة البحر كما كان ، واستأنف العمل على إصلاح البحرية . ولما أصبح رئيسه (دوق بورك) ملكا على انجلترا - جيمس الثاني - كان بيبز في واقع الأمر على رأس إدارة القوات البحرية ، ولكن عندما هرب الملك جيمس إلى فرنسا ، أعيد بيبز إلى السجن ثم أفرج عنه وطاش أعوامه الأربعة عشر الأخيرة من عمره ، متقاعدًا عن العمل وكأته « مرشد البحرية المجوز » . ووافته المنية في ٢٦ مايو ١٧٠٣ ، وقد بلغ السبعين ، مكلا بالاجلال والاحترام ، مطهرا من الذنوب والآثام .

وكم كان في هذا الرجل من خلال محمود . لقد عرفنا حبه للموسيقى ، كما أنه تابع الحركة العلمية ، وكان ضليعا في الفيزياء . وأصبح عضوا في « الجمعية الملكية » وانتخب رئيسا لها في ١٦٨٤ وكان مزهوا برجولته ، وكان يقبل

الرسوة ، وضرب خادمه حتى جرح خراجه (٦٥) وقسا في معاملته لزوجته ، وكان فاسقا بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، ولكن كم كان له في الملوك والأدواق من أسوة أخزى وأقبح في مجال الدطارة والمجور ، ومن منا يمكن أن يتمتع بسمعة طيبة لا تشوبها شائبة إذا ترك مثل هذه المذكرات الآمينة ؟ .

٦ — دانيال ديفو : ١٦٥٩ - ١٧٣١

هناك امرأة أفلتت من يد يييز ، تستحق منا هنا التحناء احترام في شيء من الحذر ، بوصفها « أم القصة الطويلة » في فترة عودة للملكية ، وأول امرأة انجليزية تعيش على قلبها ، إن افران Aphra Behn جديرة بالذكر من عدة نواح : ولدت في انجلترا ، وترعرعت في أمريكا الجنوبية . وطادت إلى انجلترا في سن الثامنة عشرة (١٦٥٨) ، وتزوجت تاجرا لندنيا من أصل هولندي . وتركت انطبعا قويا في نفس شارل لدهائها وذكائها . وأوفدت في مهمة سرية إلى الأراضي الوطيئة ، فقامت بها خير قيام ، واسكنها تلقت أجرا زهيدا إلى حد أنها انصرفت إلى الكتابة ، وسيلة لكسب العيش . وكتبت مسرحيات هزلية فاجرة لاقت نجاحا ملحوظا . وفي ١٦٧٨ نشرت « أورو نوكو » وهي قصة « رقيق ملكي » زنجي ، وحبيبته امواندا . وكانت مزيجا أصيلا من الواقعية والرومانسية أو الخيال . وكان الطريق ممهدا أمام قصة روبنسن كروزو ، وللقصة الرومانسية .

كذلك عاش ديفو على قلبه . وكان من أكثر الأقلام تعددا للجواب والبراعات : وكان أبوه جيمس ديفو قصابا في لندن ، شديد التمسك بذهب البرسبيترين . وكان من المتوقع أن يكون دانيال واعظا ، ولكنه آثر الزواج والعمل والسياسة . وأنجب سبعة أطفال ، وأصبح تاجر جوارب بالجملة . والتحق بجيش دوق مونموت في الثورة (١٦٨٥) ، ثم انضم إلى جيش وليم في الإطاحة بعرش جيمس الثاني وفي ١٦٩٢ أفلاس وبلغت ديوانه

١٧ ألفاً من الجنيهات ، ثم دفع لدائنيه استحقاقاتهم كاملة تقريباً فيما بعده . وفيما هو يكسب ويخسر . أصدر كتيبات في طائفة من اللوضوعات زاخرة بكنز مدهش من الأفكار الأصيلة . ففى مؤلفه « بحث فى المشروعات » عرض مقترحات عملية متقدمة كثيراً عن زمانه ، فى المصارف ، والتأمين ، والطرق ، ومستشفيات الأمراض العقلية ، والسكيات الحربية ، والتعليم العالى للبنات . وانتقل إلى Tilbary حيث أصبح سكرتيراً لمصنع للقرميد ثم مديراً ، وفى النهاية مالكا له . ولما قدموه إلى وليم الثالث عينه فى وظيفة حكومية صغيرة ، وأيد سياسة الملك تأييداً كبيراً إلى حد اتهامه بأنه هولندى أكثر منه إنجليزى ، فدافع عن نفسه فى قصيدة رائعة ، عنوانها « الإنجليزى الصميم الأصيل » (١٧٠١) ذكر فيها الإنجليز بأن الأمة كلها مختلطة الدماء والأعراق ، ولما كان هو نفسه من المنشقين فإنه فى ١٧٠٢ نشر كراسة غفلا من اسم المؤلف ، تحت عنوان « أقصر طريق مع المنشقين » استبق فيها أسلوب سويفت فى التسفيه والتسخيف عن طريق اللبالة ، وهاجم فيها اضطهاد الأنجليكانيين للمنشقين ، باستحسانه اعدام كل منشق يقوم بالوعظ ، وطرده المنشقين الذين يستمعون إليه من إنجلترا . وقبض عليه فى فبراير ١٧٠٣ ، وحكم عليه بالغرامة والسجن وعذب فى الشهر . وأفرج عنه فى نوفمبر ، ولكن فى نفس الوقت كان مصنع القرميد قد تخرب وتوقف العمل فيه .

وكان الرجل الذى ساعد فى الإفراج عنه هو الوزير روبرت هارلى الذى تحقق من مقدرة ديفو الصحفية ، ومن الواضح أنه عقد معه اتفاقاً لاستغلال قلمه ، ومن ثم إلتحق ديفو بخدمة الحكومة طيلة بقية حكم الملكة آن . وبدأ فور إطلاق سراحه فى إصدار صحيفة ذات أربع صفحات ثلاث مرات فى الأسبوع . اسمها « ريفيو » التى ظلت تظهر حتى ١٧١٣ ، وكان معظمها بقلم ديفو .

وفى عام ١٧٠٤ / ١٧٠٥ طاف ديفو بأرجاء إنجلترا على ظهر جواد ،

يدعو المستر هارلى فى الانتخابات . وفى تلك الأثناء جمع مادة كتابه « جولة فى انجلترا وويلز » . وفى ١٧٠٦ — ١٧٠٧ عمل لحساب هارلى وجودولفين جاسوسا فى اسكتلنده ، وحظيت كراساته القوية بكثير من القراء كما جلبت إليه الكثير من الأعداء . واعتقل ثانية فى ١٧١٣ وفى ١٧١٥ ، ومرة أخرى أطلق سراحه بناء على وعد بتسخير قلبه فى خدمة الحكومة .

وكان له قدرة على ابتكار كثير من الموضوعات الأدبية . وفى ١٧١٥ نشر بعض مقتطفات يفترض أن كاتبها من السكويكرز . وفى نفس السنة نشر « حروب شارل الثانى عشر » كما يرويها « استكلندى فى خدمة السويد » . وأصدر فى ١٧١٧ رسائل يظن أن كاتبها تركى ، يندد بالتعصب للمسيحي . وأسهم فى تحرير مجلة اسمها بحق الضباب « Mist » ، بتوقيع مراسلين وهميين . وقلما وقع ديفو كتاباته باسمه . وإلى جانب هذه البراعة فى تمثيل شخصيات مختلفة ، جمع ديفو سمعة الاطلاع فى الجغرافيا ، وبخاصة جغرافية افريقية والأمريكيتين . وظاهر أنه افتن بكتاب وايم دامبيير « رحلة جديدة حول العالم » (١٦٩٧) ، وفى إحدى رحلات دامبيير ألفت سفينته للمسماة « الثغور الخمسة » مراسيها فى جزر جوان فرنانديز على بعد نحو أربعمائة ميل إلى الغرب من شيلي . وكان أحد البحارة الاسكتلنديين يدعى اسكندر سلكيرك قد تشاجر مع القبطان ، فطلب إليه أن يتركه فى إحدى الجزر الثلاث ، على أن يزوده ببعض الحاجيات الضرورية . وبقي البحار هناك وحيدا لمدة أربعة أعوام ، حيث أعيد إلى انجلترا ، وهناك قص قصته على ريتشارد ستيل الذى كتبها فى عدد « الرجل الإنجليزى The Englishman » الصادر فى ٣ ديسمبر ١٧١٣ ، كما رواها كذلك لديفو ، وزعم أنه أعطاه بيانا مكتوبا عن مغامرته فى الغربية والوحدة (٦٦) . وحول ديفو هذه الخلاصة إلى قطعة من الأدب . وفى ١٧١٩ نشر أشهر قصة فى القصص الإنجليزى .

وأطبت « حياة روبنسن كروزو ومغامراته العجيبة للدهشة » خيال
 المتجلبترا . وظهرت منها أربع طبعات في أربع شهور . وهنا كان مفهوم جديد
 للمغامرة والصراع - لاصراع الإنسان ضد الإنسان ، ولا صراع الإنسان
 للتحضر ضد الإنسان للتوحش . بل كفاح الإنسان ضد الطبيعة ، صراع
 رجل وحيد ، يتملكه خوف حقيقى ، لا يجد أى عون أو مساعدة ، حتى
 جاء « التابع المخلص الأمين » ، وبنى حياة من اللواد الطام فى الطبيعة . وتلك
 كانت تاريخ حضارة رجل واحد فى مجلد واحد . واعتبرها كثير من القراء
 تاريخاً ، حيث لم ترو قط فى الأدب من قبل قصة جمعت بين مثل هذه الأشياء
 التى تحتل الصدق والكذب فى مثل هذه التفاصيل التى أخذ بعضها بخناق بعض
 بشكل ماض . إن تدرس دينوفى المداع الأدبى رفعه من الصحافة إلى الفن .
 وعاش دينوفى شىء من محبوبحة العيش فى لندن ، ولكنه لم يتدخل عن
 إنتاجه الذى لا يبارى . فبما ظل يصدر الكراسات ، أخرج كتباً فى الحجم
 الطبيعى ، تضم قصص صغيرة . فنشر فى ١٧٢٠ « تأملات جادة فى حياة
 روبنسن كروزو ومغامراته المدهشة » ، « حياة ومغامرات مسز دنسكان
 كامبل » (وهى ساهرة مشمودة صماء بكاء) ، وبعد ذلك بشهر واحد
 « مذاكرات فارس » « وبن زروفاتو » وقد حسبه بت الأكبر تاريخاً وبعد شهر
 آخر أخرج « حياة القبطان المهور سنجلتون ومغامراته وقرصناته » وهو
 كتاب حوى توقعات مدهشة عن كشوف فى أفريقية . وفى ١٧٢٢ أصدر « هناء
 وشقاء مول فلاندرز » و « صحيفة هام الطاعون » ، و « تاريخاً كولونيل
 جاك » ، و « الغزل الدينى » ، و « التاريخ التزيه لبيترا الكسوفتش » قيصر
 المسكوف الحالى — وهذه هى المرة الثانية التى يستبق فيها فولتير فى
 كتابه سير الحياة . وقصد بهذه المجلدات الضخمة أن توفر سبل العيش
 لأسرته ، ولكنها بفضل قوة خيال الكاتب وأسلوبه الفياض ، أصبحت
 أدبا . وفى « مول فلاندرز » اندس دينوفى إلى عقل بنى وقلبها ، حتى أنضت
 إليه يقصتها بشكل يتضح معه صراحتها وإخلاصها ويدهو إلى تصديقها

ولو ظاهرياً ، حتى تركها في النهاية راضيه « آمنه مطمئنه في خير طافية »
وهي في السبعين (٦٧) . أما « صحيفه عام الطاعون » فكانت مدحه بأدق
الوقائع والحقائق والاحصاءات ، حتى اعتبرها المؤرخون تاريخاً .

أما عام ١٧٢٤ فلا يثير دهشة كبيرة : ذلك أن ديفو نشر إحدى أمهات
قصصه « السيدة السعيدة الحظ » للمعروفة باسم « روكسانا » وهي المجلد
الأول من مجلدين يتناولان جولته في ربوع جزيرة بريطانيا العظمى ،
و « حياة جون شبرد » وهو يوهّم بأنه مخطوطة سلمها شبرد إلى صديق له
قبل إعدامه . وكانت هذه إحدى السير القصيرة المديدة التي كتبها ديفو عن
حياة المجرمين ، ومهدت إحدى سير الحياة واسمها « وغد للمرتفات »
(١٧٢٤) الطريق لكتاب سكوت « روب روي » كما مهدت سيرة أخرى ،
هي « حياة جوناثان ويلد » الطريق أمام فيلدنج . والحق أن أي موضوع
شعبى أسال قلم ديفو ، وأفاض عليه الجذبات من خزائن ناشره كتبه ، من
ذلك « التاريخ السياسي للشيطان » (١٧٢٦) ، و « خفايا السحر » (١٧٢٠) ،
و « السكشاف عن أسرار الدنيا الخفية » ، أو تاريخ حقيقة الأشباح (١٧٢٧) .
(١٧٢٨) أضف إلى هذا كله قصيدة في اثني عشر جزءاً « المدل الإلهي »
يدافع فيها عن الحقوق الطبيعية لسكل إنسان في الحياة وفي الحرية وفي الناس
السعادة ووسط هبوط ديفو كثيراً إلى مستوى ذوق الشعب وأخيلته ،
نرى أنه أسهم اسهاماً مخلصاً في أفسكار جادة : مثل « التاجر الإنجليزي
السكامل » (١٧٢٥ — ١٧٢٧) ، و « خطة التجارة الإنجليزية » (١٧٢٨) ،
والكتاب الذي لم ينته منه « الرجل الإنجليزي السكامل » ، فإنه في هذه
الكتب جميعها قدم معلومات مفيدة ونصائح عملية ، لم تتلأم في كل
الأحوال مع أخلاقيات الانجيل .

وقد لانحبد أخلاقيات ديفو أو سلوكه الأدبي ، ولسكننا نملك الاعجاب
بمشاربته وجدده ، وربما لم يشهد التاريخ قط منذ انجباب رمسيس الثاني ١٥٠٠
ولدا مثل وفرة ديفو في الانتاج . والشئ الوحيد الذي يسكاد لا يصدق

في ديفو هو أنه الذي كتب كل ما كتب ، لأننا كذلك يتولانا العجب كل العجب من نفعه عقل ديفو الذي سخرت فيه قوة الخيال وقوه الدأكرة لهذا العمل الشاق أو الجهد الجهد ، والذي أخرج هذه الأشياء الوهمية للقبولة شكلا إلى أبعد حد في الأدب . وأنا لنعترف بعقريه وشجاعة رجل استطاع مع ضخامة العمل والمجته في انجازه ، أن يحتفظ بهذا المستوى الرفيع في المادة والأسلوب . ففي المائتين والعشرة مجلدات التي أخرجها (إذا صدقنا ما قيل) لا يسكاد المرء يقع على صحيفة واحدة ملة باهتة ، وإذا اتفق أن كان ديفو أحيانا بليدا غبيا فإنه كان يفعل ذلك عن عمد ليضيف إلى حكايته شيئا من احتمال الصدق والكذب . ولم يزه أحد في بساطة السرد ووضوحه ، وفي كونه طبيعيا بعيدا عن التكليف إلى حد الاقناع . وهنا كانت عجلاته ضربا من ضروب الحظ السعيد له ، حيث لم يكن لديه فسحة من الوقت للتنميق والزخرف . وأرغمه تدريبه الصحفي ونزعتة الصحفية على الإيجاز والوضوح . وكان أكبر معنى في زمانه بكل معاني الكلمة ، ولو أن هذا الوصف ينطبق على ستيل وأديسون وسوينجت . فإن صحيفته « ريفيو » مهدت الأرض التي أبتت فيها صحيفة « سبكتاتور » بذور امنتقاة بشكل أفضل . والحق أن هذا شرف أي شرف ، ولكن أضيف إليه الشهرة العالمية الباقية على مر الدهور لقصة روبنصن كروزو ، وأثرها على قصص المغامرات ، حتى على قصة تختلف اتجاهاتها كل الاختلاف مثل « رحلات جاليفر » . وإذا استثنينا مؤلف ذلك الإتهام الذكي لبني الإنسان (سوبقت في رحلات جاليفر) ، فإن ديفو كان أعظم عبقرية في رجال الأدب الانجليزي في عصر زخر بهم .

٧ - ستيل وأديسون

يحدد ريتشارد ستيل أكثر من أي إنسان غيره بداية عصر الانتقال في الأدب ، من عودة لللاكية إلى حكم الملكة آن . واتصف في شبابه

بكل صفات العريضة والمصنّب والقجور التي سادت فترة عودة للسلطنة .
ولد في دبلن ، وكان أبوه موثقاً طاماً (كاتب عدل) ، وتعلم في مدرسة
نغارتر هاوس وأكسفورد . وكان حساساً سريع الاحتياج كريماً ، وبدلاً
من الحصول على درجته الجامعية انضم إلى جيش الحكومة في أيرلنده ،
وكان يسف في شرب الخمر اسفاطاً ، ويبارز حتى يقارب أن يصرع خصمه .
وأكسبته التجربة رصانة طابرة ، فبدأ يحمل على المبارزة ، وكتب مقالا
عن « البطل للمسيحي » (١٧٠١) جادل في امكان أن يكون المرء سيداً
ماجداً مهنياً « جنتلمان » مع بقائه مسيحياً . ووصف الفساد الذي
ساد العصر ، وعاد بذاكرة قرائه إلى الكتاب المقدس بوصفه منبع الإيمان
المصدق والمخلق القويم ، وناشد الرجال أن يحترموا جمال النساء وعفتهم .

وكان في التاسعة والعشرين ، حين وجد أنه حتى الطبقة الوسطى التي
ينتمي إليها ، تقبرم به على أنه واعظ بمل ، فمقد العزم على النهوض برسالته
عن طريق الروايات ، وامتدح تنديد جرمي كوايير بالخلاعة والفحش في
المسرح ، فظهر في سلسلة من الملهيات يدافع عن الفضيلة يشن حملات صادقة
على الأوغاد . ولكن هذا الإنتاج لم يبق نجاحاً . فخلق أن المسرحيات حوت
مشاهد حية ودلت على ذكاء وموهبة ، ولكن جمهور النظارة شكسكوا
في حل عقدة الرواية أو في نتيجتها ، وطالبوا بالاهو والتسلية على حساب
الوصايا العشر مهما كان الثمن غالباً ، على حين أن اللندنيين المصنفاء الذين
قد يتعاطفون مع مشاعره ، قلما كانوا يظهرون في المسرح . كيف الوصول
إلى هؤلاء الناس ؟

وقرر ستيل أن يجرب وسيلة يواجههم بها في المقاهي . وفي ١٢ أبريل
١٧٠٩ أخذ ورقة من صحيفة دينغو « ريفيو » وأصدر العدد الأول من
صحيفة تصدر ثلاث مرات في الأسبوع ، أطلق عليها « The Tatler »
وحررها وكتب معظم مادتها تحت اسم مستعار « ايزاك بيكرستاف » .
ووجهها إلى المقاهي ، حيث أعلن : —

« كل ضروب البسالة والسكياسة ، والاسرات والتساية ، تلتمةوز بها في « مقهى هوايت للكاكاو » والشعر في « مقهى ول Will » والعلم والمعرفة تحت عنوان « جريشيان » . والأنباء الخارجية والداخلية من « مقهى سان جيمس » . أما سائر الموضوعات التي ساقدمها فن عندى أنا .

وكان مشروعا بارعا ، أثار اهتمام رواد للمقاهى ، واستقى الأنباء والموضوعات من مناقشاتهم هناك ، وأتاح لريتشارد ستيل أن يعبر عن آرائه دون مقاطعة أو نزاع ، وفي العدد ٢٥ الصادر بتاريخ ٧ يونيو ١٧٠٩ ذكر أنه تلقى رسالة من « سيدة شابة ... ترى فيها لسوء حظ . . حبيبها الذى أصيب مؤخرا بجرح أثناء المباراة » واستطرد ستيل ليبين سخف عادة تحتم أن يدعو الشخص الذى أودى الشخص المسمى ليضيف ضغنا إلى ابالة أو القتل إلى الإساءة ، فماذا تعنى . المباراة أو التحدى إلا هذا !!

سيدى ، أن سلوكك الشاذ فى الليلة الماضية ، وتطاو لك على فى جرأة وحرية طابت لهما نفسك ، كل هذا يدفعنى إلى أن أوجه إليك هذا الإنذار ، لأنك مغرور أحق غير مهذب .. سألتقى بك فى هايدبارك فى ظرف ساعة ، حاملا مسدسا ، وحاول أن تصوبه إلى رأسى ، حتى ألقنك درسا فى آداب السلوك » .

وهنا كان صوت الطبقة الوسطى يسخر من الأرستقراطية ، والحق أن الطبقة الوسطى أساسا هى التى زحمت المقاهى .

وفى مقالات أخرى سخر ستيل من بذخ الأرستقراطية ولغوها ومظاهرها الكاذبة وزينتها وزخارفها وملابسها ، وتوصل إلى النساء أن يرتدين الثياب البسيطة ، ويمتنعن عن الحلى والمجوهرات . فإن عقد الأولو فوق الصدر لا يضيف شيئا إلى الصدر العاجى الجميل الذى يحمله (٦٨) . إن رفته مع النساء كانت تقبارى مع ولعه بالخر . وألح على القول بأنهن بحق يتمتعن بالدكاء وسلامة البنية . ولكنهن إمتدح الكثير من تواضعن وطهرهن - وتلك صفات لم تعترف بها ملهاة فترة عودة الملكية . وقال عن ١٧ — قصة الحضارة

إحدى النسوة « إن حبك لها يعني أنك تتسم بالتحرر في تعليمك »
واعتبرت أكرى « أن هذه العبارة ربما كانت أرق تحية قدمت لامرأة (٦١) » .
ووصف ستيل ، في إحساس عميق ، مباهج الحياة الأسرية ، والوقع الجميل
لأقدام الأطفال ، وإقرار الزوج بفضل زوجته المسنة وعرفاته لجميلها :

« إنها في كل يوم تدخل على قلبي سرورا أكثر بكثير مما عرفت فيها
أيام كنت أستمتع بجمالها وأنا في نضارة الشباب ، إن كل لحظة في حياتها
تقدم لي أمثلة جديدة على تجاوزها مع ميولي ورغباتي ، وحسن تدبيرها
بالنسبة لمواردي في أوقات اليسر والعسر . إن وجهها أجمل بكثير مما رأيته
لأول مرة . وليس نمة ذبول في تقاطيعه إلا استطعت أن ألحظه منذ اللحظة
التي حدث فيها نتيجة إهتمام شديد قلق بمصالحى ربما يعود على بالخير . . إن
حب الزوجه أسمى بكثير من ذلك الهوى التافه الذى يسمونه عادة بهذا
الاسم (الحب) ، بقدر هبوط مستوى ضحكات المهرجين العاليه الماحجه
عن مستوى المرح الهادى » الرشيقي عند الأماجد المهذبين (٧٠) » .

وكان ستيل قد تزوج مرتين عندما كتب هذا ، وإن رسائله إلى زوجته
لهى نماذج للاخلاص والحب ، ولو أنها سرعان ما تشتمل على اعتذارات
عن عدم الحضور لتناول الطعام فى البيت . إنه أخفق فى أن يكون الرجل
البرجوازي الفاضل الذى كان فى نظره نموذجا للحياة ، فلأنه سكر كثيرا
وأنفق كثيرا وإستدان كثيرا ، وإجتاز الشوارع الجانبية ليتحاشى لقاء
أصدقائه الذين أقرضوه المال . وإختفى عن الأنظار ملصا من دائنيه ومراوغة
لهم ، ولكنه فى نهاية الأمر أودع السجن بسبب الدين ، وقارن قارئو
صحيفته « Teller » بين عذاته وتصرفاته . وأصدر جون دنيس نقدا لاذعا
لآراء ستيل ، وتناقض عدد المشتركين فى الصحيفة واحتججت عن الظهور
فى ٢ يناير ١٧١١ ، ولكنها تحتفظ بمكانتها فى تاريخ الأدب الإنجليزى ،
لأن بين جنباتها بدأت الأخلاقيه الجديدة تعبر عن نفسها ، وبدأت القصة

القصيرة تأخذ شكلها الحديث ، كما طور أديسون المقالة الحديثه ، حيث بلغ بها حدا الاتقان والكمال في صحيفه « سبكتانور » .

وولد أديسون وستيل كلاهما في ١٦٧٢ ، وكانا صديقين منذ كانا يدرسان معا في مدرسه تشارترهاوس . وكان والدجوزيف أديسون قسيسا أنجليكانيا ، أشرب ابنه من التقوى والورع ما قاوم به كل مساوي ومفاسد فخره عودة الملكية . وكسبت له براعته في اللاتينية منحه دراسيه . وفي سن الثانية والعشرين أعجب إرل هاليفاكس بمواهبه ، إلى حد أنه أقنع رئيس كلية ماجدلن بتحويل الشاب من سلك السكينة إلى خدمة الحكومة . وقال هاليفاكس « يقولون عني أنني عدو للكنيسة ، ولكني لن أعود للإساءة إليها قط ، بعد أن أحتفظ بمستر أديسون بعيدا عنها (٧١) » ولما كانت المقدرة في اللاتينية غير مقرونة بمعرفة اللغة الفرنسيه ، وكانت الحاجة إلى معرفة اللغة الفرنسيه أساسية عند الدبلوماسيين فإن هاليفاكس خصص لأديسون ثلاثمائة جنيه سنويا لينفق منها أثناء إقامته في القارة . ولمدة عامين تجول أديسون على مهل في أرجاء فرنسا وإيطاليا وسويسرا .

وبينا هو في جنيف إرتقت الملكة آن عرش إنجلترا فأبعد أصدقاءه عن مناصبهم ، وانقطع عنه راتبه . ولما لم يبق له إلا دخله الضئيل ، فإنه اشتغل معلما ومرشدا خاصا لسائح إنجليزي شاب ، وطاف معه بأنحاء سويسرا وألمانيا والمقاطعات المتحدة . ولما انتهت هذه المهمة عاد إلى لندن ١٧٠٣ ، وعاش لبعض الوقت في فقريسته التعفف وحسن المظهر . ولكنه كان « مغناطيسا » بجذب الثراء والحظ السعيد . ذلك أنه عندما انتصر دوق مالبورو في معركة بلنهييم في ١٣ أغسطس ١٧٠٤ فتش جودولفين وزير الخزانة عن شخص يخلد ذكر هذا النصر شعرا . وأوصى هاليفاكس بأديسون للقيام بهذا العمل ، واستجاب الشاب الموهوب بقصيدة ربانة « الحملة » ونشرت في نفس اليوم الذي دخل فيه مالبورو العاصمة دخول المنتصر الظافر ، وساعد نجاح القصيدة على أن توطن إنجلترا نفسها على

مواصلة القتال . إن جورج وشنجطن آثر الشعر المخلق طالياً للنبي كتبه أديسون على سائر القصائد . وإليك أبياتا مشهورة منها :

« ايه يارب القريض ، أي شعر ترين أن أنشده القوات التي أشتعلت في نفوسها نيران الغضب ، للمتراسة في ميدان المعركة ، إلى ليغيل إلى أي أسمع دقات الطبول الصاخبة وصيحات النصر وأتات الموتى يختلط بعضها ببعض وطلقات المدافع المربعة تشق أجواز الفضاء ، وصيحات الحرب تدوى مثل الرعد . وهنا أثبت مالبورو العظيم بروحه العالية أنه راسخ كالطود ، لا يهتز لالتحامات الجيوش للمهاجمة ، وفي غمرة الضجة والفرع واليأس ، يشهد كل مناظر الحرب المروعة ، ويشرف على ساحة الموت ثابت الجنان ، يفكر في هدوء . ويرسل للدفع في الوقت المناسب للفرق المتخاذلة ، وينفخ في المحارين للتردد من روحه فيدفعهم إلى الالتحام مع العدو ، ويحسد المعركة المتأرجحة أين تشتد وتحتدم . كما لو أن ملكاً من السماء ، بأمر من عند الله زلزل أرض الأعداء بريح طافية (كما حدث مؤخراً لبريطانيا الواهنة) . وفي هدوء ورصانة يسوق مالبورو العاصفة العاتية ، ويطيب نفساً بتنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى ، فيمتطي صهوة جواده وسط الرياح الهوجاء ويقود العاصفة ويوجهها كيف يشاء . »

وحقق البيت الأخير والتشبيه الملائكي لأديسون العودة سالماً إلى وظيفة حكومية تدر عليه راتباً ، بقي فيها طيلة السنوات العشر التالية . وفي ١٧٠٥ عين عضواً في لجنة الاستئناف ، خلفاً لجون لوك . وفي ١٧٠٦ وكيلاً لوزارة . وفي ١٧٠٧ ألحق ببعثة هاليفاكس إلى هانوفر ، التي هيأت لأسرة هانوفر السبيل لارتقاء عرش إنجلترا . وفي ١٧٠٨ اتخذ مقعده في البرلمان ، ويفضل خدماته الجليلة احتفظ به حتى الممات . وفي ١٧٠٩ أصبح السكرتير الأول لنائب الملكة في أيرلنده . وفي ١٧١١ أُرِى إلى حد استطاع معه أن يشتري ضيعة في رجبى بعشرة آلاف جنيه .

إن أديسون في أيام الرخاء لم ينس ستيل . فأنبه على أخطائه ولكنه

هياً له منصبا حكومياً ، وأفرضه مبالغ كبيرة من المال ، وطالبه مرة واحدة أن يسدها (٧٢) . وعندما صدرت صحيفة «The Tatler» غفلاً من الاسم ، لاحظ إشارة إلى فرجيل كان قد لمح بها إلى ستيل ، وفي «إيزاك بيكرستاف» عرف ثانياً صديقه المترف المفلس وممرطان ما اشترك في الصحيفة . وفي ١٧١٠ سقطت حكومة الأحرار ، وفقد ستيل وظيفته الحكومية ، وفقد أديسون كل مناصبه باستثناء عضوية لجنة الاستئناف . واحتفلت صحيفة تاتلر بهذا العام بالاحتجاج عن الظهور . وشارك أديسون وستيل الواحد منهما الآخر آلامه وآماله ، وفي أول مارس ١٧١١ أخرجاً أول عدد من أشهر الدوريات في تاريخ الأدب الإنجليزي .

وظهرت صحيفة «سبكتاتور» يومية - ماعدا يوم الأحد ، في فرخ مطوى ذي أربع أو ست صفحات . وبدلاً من تحديد المقالات من مراكز مختلفة . ابتدع المحرر المجهول الإسم ناديا وهما يمثل أعضاؤه قطاعات مختلفة من دنيا الانجليز : سير روجردى كوفرلى سيد من الريف ، سير أندرو فريبورت يمثل طبقة التجار ، ويتحدث الكاتبين سنترى باسم الجيش ، أما أول هنيكوم فهو الرجل العصري المتألق ، أما المحامي في دار العدل فيمثل العلم والمعرفة ، ويجمع مستر «سبكتاتور» نفسه بين وجهات نظرهم في إطار من المرح اللطيف والكياسة والذكاء ، مما نفذت معه الصحيفة إلى بيوت الانجليز وقلوبهم جميعاً . وفي العدد الأول وصف مستر سبكتاتور نفسه ، حتى جعل النوادي والمقاهي تحاول الكشف عن شخصيته بالحدس والتخمين :

« قضيت سنواتي الأخيرة في هذه المدينة حيث يراني الناس كثيراً في معظم الأماكن العامة ، ولو أن عدد الصفوة المختارة من الأصدقاء الذين يعرفونني لا يجاوز الستة ، وسأحدث عنهم في العدد القادم بشكل أدق . ولا يمكن أن يوجد مكان يأوي إليه الناس بصفة عامة إلا وظهرت فيه ، غافلاً حيانا يروني أدس أنفي في حلقة من رجال السياسة في «مقهى ول» ،

مصنفاً بأكبر إهتمام إلى ما يدور في هذه الاجتماعات الدورية • وأحياناً
أدخن غليونى ، وعلى حين يبدو أنى غير منعمت لشيء • إلا ساعى البريد ،
فإنى أسترى السمع إلى النقاش الذى يدور على كل مائدة فى الغرفة • وفى
أمسيات الأحد أقصد إلى مقهى سان جيمس ، وانضم أحياناً إلى جماعة
السياسيين الصغيرة فى الحجرة الداخلية ، بوصنى رجلاً يذهب إلى هناك
ليسمع ويستفيد • ووجهى كذلك معروف تمام المعرفة فى « جريفيان »
وفى مقهى « شجرة السكاو » « وفى مسارج « درورى لين » و « هاى
ماركت » على حد سواء • وكانوا يحسبوننى تاجراً فى « البورصة » طيلة
هذه السنوات العشر أو أكثر • وأحياناً حسبوا أنى يهودى من جماعة
السامسة الذين لا يوثق بهم فى « جوناتان » وجملة المقول أنى لأرى حشداً
من الناس إلا حشرت نفس فى زسرتهم ، ولو أنى لا أنبس بننت شفة إلا فى
النادى الخاص بى •

وهكذا أعيش فى هذه الدنيا متفرجاً ، لا واحداً من الجنس البشرى ،
وبهذه الطريقة جعلت من نفسى رجل دولة وسياسة يطيل التأمل والتفكير ،
وجندياً وتاجراً ، وصانعاً ماهراً ، دون أن أمارس العمل فى أى قطاع من
قطاعات الحياة • كما أنى على دراية تامة بشئون الزواج والأبوة ، وأستطيع
تبين وجوه الخطأ فى الإقتصاد وفى الأعمال وفى الإنحراف ، أفضل بكثير
من يتولون هذه الأمور بأنفسهم ، لأن المتفرجين يكتشفون أخطاء
يمكن ألا تقع عليها أعين المشتركين فى اللعبة • إنى لم أناصر قط حزباً
فى الدفاع أو عنف • وإنى طافد العزم على أن أقف موقف الحياد الدقيق
بين الأحرار والمحافظين ، إلا إذا اضطرت إلى إعلان الإنحياز إلى أى من
الفريقين بسبب تصرفات غير ودية من الفريق الآخر • وصغوة القول إنى
كنت طوال حياتى « متفرجاً » وتلك هى الشخصية التى أقصد ألا أحيدها
عنها فى هذه الصحيفة •

ويتقدم للمشروع ، جمعت « سيكتاتور » بين الموضوعات الاجتماعية

ودراسات العادات والسلوك والأخلاق والنقد الأدبي واستعراض أحوال المسرح . وكتب أديسون سلسلة من المقالات عن ملتون أدهش بها انجلترا حين مما بقصيدة « الفردوس المفقود » فوق مرتبة « الياذة » هو ميروس ، « وانيادة » فرجيل . وتجنبنا المناقشات الخوض في السياسة التي تثير العداوات والتقلبات ، ولكن ألت — واشترك في هذا أديسوق عن طيب خاطر — على دعوه ستيل إلى الإصلاح الاجتماعي . وظهر من جديد شيء من الروح البيوريتانية هذبته المحنة ، كرد فعل للنسكسة التي اجتاحت فترة عودة الملكية ، ولكنها لم تعد الآن انهماكا لاهوتيا كشيئا مفزعا في التخويف من الشيطان ومن الخطيئة للمهلكة ، بل دعوة إلى الاعتدال والاحتشام موسومة بالتفاؤل مخلفة بالدهاء والظرف . وعلى هذا النسق بدأ عدد ١٠ نوفمبر :

« إنه لما يبحث على الرضا والارتياح أن أرى المدينة العظيمة تلح يومها بعد يوم على طلب ضحيقتي هذه . وتستقبل مقالاتي الصباحية في جدية واهتمام مناسبين . ويقول الناشر أن ثلاثة آلاف نسخة منها توزع يوميا بالفعل . فإذا حسبت أن النسخة الواحدة يتداولها عشرون قارئاً ، وهو تقدير متواضع ، لأحصيت من المريدين ستين ألفاً في لندن ووستمنستر ، أمل أن يلحظوا الفرق بينهم وبين القطيع الطائش من أخوانهم الجبهة الغافلين ، ومن حظيت بمثل هذا العدد الكبير من القراء فإني لن أدخر وسعاً في أن يكون ما أزوّدكم به من علم ومعرفة مقبولا ، ومن تسلية نافعا مفيداً . ولهذا أحاول أن أحيي الأخلاق بالدعاية وألطف الدعاية بالفضيلة ، لعل قرأني يشقون إذا أمكن ، عن هذا السبيل أو ذاك ، طريقهم إلى التأمل فيما يجري حولهم كل يوم ، وغبه منى في ألا يكون حظهم من الفضيلة قليلا عابرا ، أو مجرد ومضات متقطعة من التفكير ، صبح عزمي على أن أنعش ذاكرتهم وعقولهم بين الحين والحين ، حتى أخرجهم من ظلمات اليأس والرهبة والحماقة التي تردي فيها هذا العصر . فإن العقل الذي يخلد إلى الدعة والراحة ولو يوما

واحداً ، يشب على الحماقات والسخافات التي لا يمكن اقتلاعها إلا بالمداومة على تثقيفه تثقيفاً جاداً مثابراً . ولقد قالوا عن سقراط أنه أنزل الفلسفة من السماء لتسكن بين الناس على الأرض ، وكم تهفو نفسي أن يقال عني أنني أتيت بالفلسفة من الخائىء والمكشبات والمدارس والجامعات ، لتستقر في النوادي والجمعيات ، وعلى موائد الشاي ، وفي المقاهي .

من أجل ذلك أوصى ، بالنسبة لتأملاتي هذه ، وبصفة خاصة ، الأسرار التي ترى النظام والدقة في حياتها ، أن تخصص في كل صباح ساعة محددة لتناول الشاي والخبز والزبد ، وأنصحها جدياً ، ونظيرها هي ، أن تتأبر على ثراء هذه الصحيفة ، وتعتبرها جزءاً من تجهيزات الشاي .

واتجهت صحيفة « سبكتاتور » إلى النساء والرجال سواء بسواء ، فعرضت أن تعالج موضوع الحب والجنس ، وتصور « الحب الزائف أقبح وأشد قسماً من . . . الخيانة في الصداقة أو النذالة والخسة في التجارة وسائر الأعمال (٧٣) . وكتب أديسون يقول : « سيكون من أعظم مفاخر هذه المهمة التي أنهض بها أن تهىء هذه الصحيفة بعض الموضوعات التي يخوض فيها بعض السيدات العاقلات المفكرات على موائد الشاي (٧٤) » . وشجعت الرسائل وطبعت ، وكتب ستيل نفسه سلسلة من الرسائل التي تشكو الحرمان من الحب والأحباب ، كان بعضها موجهاً إلى خليلاته ، وبعضها دمجهم المحررون في أسلوب حديث جداً . وجهت الصحيفة بين الدين والحب . وزودت باللاهوت المعتدل جيلاً بدأ يتسائل عن أثر تخلخل إيمان الطبقات العليا على الأخلاق . وأهابت بالعلم أن يتابع طريقه ، ويدع الكنيسة وحدها حارساً حكماً محملاً على الأخلاق ، فإن حقوق الوجدان ومتطلبات النظام تدل على إدراك الفرد وعقله ، فهو دوماً في دور المراهقة . وخير للأخلاق ولسمادة الإنسان تقبل العقيدة القديمة في خشوع ، وحضور صلواتها وخدماتها والالتزام بعطلاتها ، والمساعدة على خالق الجو المناسب ليوم العبادة الهادئة في كل أبرشية .

« إنى لأجد السرور كل السرور فى يوم الأحد فى الريف ، وكم أتمنى لو أن تقديس اليوم السابع والتعطيل فيه كان مجرد نظام إنسانى ، إذن لأصبح أفضل وسيلة فسكر فيها الإنسان لتهديب الجنس البشرى وصقله وتمدينه . ومن المؤكد أن أهل الريف سيخطون سريعا إلى نوع من المتوحشين والمتبررين إذا لم يعودوا دوما إلى زمن محدد تجتمع فيه القرية كلها بوجود باسمه فى أبهى حلة ليتدارس أهلها فيما بينهم مختلف الموضوعات ، وليوضح لهم ما ينبغى عليهم أدائه من واجبات ، وليجتمعوا معا لعبادة الله » الكائن الأسمى .

إن يوم الأحد يزبل صدأ الأسبوع كله ، لا لأنه يحى الأفكار الدينية فى العقول . بل لأنه يجمع بين الرجال والنساء . والسكل يبدو فى أحسن صورة (٧٥) .

أما الأدب الذى كان مطية الأباحية والخلاعة طوال الأربعين عاما الماضية ، فقد انحاز الآن إلى جانب الأخلاق والإيمان . وأسهمت صحيفة سيكتاتور فى انقلاب السلوك والأسلوب الذى استبق فى عهد الملكة آن ، بقرن من الزمان ، روح أواسط العصر الفسكتورى ، التى قضت بالألا يحترم إلا من هم حقا جديرون بالإحترام ، وغيرت مفهوم الانجليز عن السيد الماجد « جنتلمان » من الرجل ذى اللقب الذى يحسن مغازلة النساء ، إلى المواطن المهذب الكريم النشأة . وفى « سيكتاتور » وجدت فضائل الطبقة الوسطى من يدافع عنها دفاعا مهذبا مصقولا . وكان التعقل وحسن التدبير وعدم التبذير أجدى على المجتمع وأتمن لديه من أناقة الثياب وسرعة الخاطر وكان التجار سفراء الحضارة إلى الشعوب المختلفة . وكانت عائدات التجارة والصناعة عصب الحياة للدولة .

وأحرزت صحيفة سيكتاتور نجاحا ومنزلة رفيعة ليس لهما مثيل فى الصحافة الانجليزية . وكان توزيعها ضئيلا ، لا يكاد يجاوز أربعة آلاف ، ولكن تأثيرها كان عظيما إلى حد بعيد . وكان يباع من مجموعاتها المجلدة

نحو تسعة آلاف نسخة سنويا (٧٦) ، وكأنها أدركت انجلترا فعلا أنها لوز
من الأدب . ولكن بمرور الزمن بليت جدتها وخبا بريقها ، وبدأت
شخصيات « النادي » تكرر نفسها ، وفقدت حيوية الكتاب المنهوكين
ونشاطهم ، وأصبحت عظامهم تبعث السأم في نفوس القراء . وهبط توزيع
المصحفة ، وزادت المصروفات على الإيرادات نتيجة خربة اللغة التي فرضت
١٧١٢ . وفي ١٦ ديسمبر ١٧١٢ احتجبت المصحفة عن الظهور . وواصل
ستيل الكفاح في صحيفة « جارديان » . وأحيا أديسون صحيفة سبكتاتور
١٧١٤ . ولم يطل صهر المصحفتين كليهما ، لأن أديسون كان قد أصبح
آنذاك كاتباً مسرحياً ناجحاً ، وأعيدت إليه وظائفه ورواتبه الحكومية .
وفي ١٤ أبريل ١٧١٣ أخرج مسرح « دروري لين » مسرحية « كاتو »
لأديسون كتب لها صديقه بوب مقدمة زاخرة بالحكم والأفكار التي عرفت
عنه ، مثقلة بالوطنية الثائرة للثغالة مما ، وأخذ ستيل على طاقه أن يحدد
لمشاهدة للمسرحية كل « الأحرار » الغيورين المتحمسين ، فلم يوفق في ذلك
كل التوفيق ، ولكن « المحافظين » انضموا إلى الأحرار في استحقاق
وقفة « كاتو » الأخيرة دفاعاً عن « الحرية الرومانية » (٤٦ ق . م .) وتبارست
صحيفة المحافظين « اجزامتر » مع صحيفة ستيل « جارديان » في نشوة الابتهاج
والاستحسان . واستمر العرض لمدة شهر كامل مع تزايد عدد المترددين
على المسرح لمشاهدتها ، حتى قال بوب « لم يكن كاتو محل إعجاب ودهشة
رومه في زمانه قدوما هو موضع إعجاب ودهشة بريطانيا في أيامنا هذه (٧٧) .
واعتبرت كاتو في القارة أجمل مسرحية « تراجيديه » في اللغة الانجليزية .
وأعجب فولتير بالتزامها بالوحدات ، وعجب كيف أن انجلترا تطبق صبرا
على شكسبير بعد مشاهدة رواية أديسون (٧٨) . ويهزأ النقاد اليوم بها على
أنها خطابة ناعمة مضيجرة . ولكن أحد القراء وجد أن انتباهه محدود حتى
النهاية بفضل الحكمة المحسكة البناء وقصة الحب المدعجة بشكل بارع في
الصراع الأكبر .

وازدادت الآن شعبية أديسون إلى حد قال معه سوينف « أعتقد أنه لو فكر في أن يختار للجلوس على العرش لسان من العسير أن يأبى عليه أحد هذه الرغبة (٧٩) ». ولكن أديسون الذي كان دوماً نموذجاً للاعتدال ، قنع بتعيينه وزيراً في الحكومة ، لشئون أيرلنده آنذاك ، ثم كبير مفوضي التجارة . وكان شخصية محبوبة جداً في النوادي ، لأن إدمانه على الشراب منعه من أن يكون « الرجل الشاذ البشع غاية البشاعة والشذوذ الذي لا يحبه الناس أبداً » . ورغبة منه في تتويج مجده وعظمته ، تزوج (١٧١٦) من كوثيسة ، ولم يكن سعيداً في حياته مع السيدة المتجمرقة في « هولندهاوس » في لندن . وفي ١٧١٧ عين ثانية وزيراً ، ولكن مقدرته كانت محل نزاع وشك . وسرطان ما استقال بعماش قدره ١٥٠٠ جنيه في العام . وعلى الرغم من تجلده وأدبه ألجم انزلق في عراك مع أصدقائه - ومنهم ستيل وهوب - الذي هجاء بأنه متزمت اعتاد « أن يلعن الناس بالاطراء الباهت الحقير ، فهو : مثل كانوا يقدم لسناتو الهزيل القوانين ، ثم يتخذ مقعده لينمت إلى ما يكال له مد مديح (٨٠) .

وكانت خاتمة حياة ستيل أقل عظمة وجلالا من أديسون . أنه اقتخب للبرلمان في ١٧١٣ ، ولكن الغالبية التي تفتى إلى حزب المحافظين أخرجته بتهمة أن لغته محرقة مثيرة للفتنة . وفاز حزب الأحرار في السنة التالية ، فخطى ستيل بعدة مناصب إدارية تدر عليه مالا ، وتماثلت لفترة من الزمن موارده مع نفقاته ، ولكن ديونه طغت ، وطارده دائنوه ، وآوى إلى ضيعة زوجته في ويلز ، وهناك وافته المنية في أول سبتمبر ١٧٢٩ ، بعد شريكه بعشر سنين . أنهما معا : ستيل بأصالته وحيويته ونشاطه ، وأديسون بذوقه الفني المصقول ارتقعا بالقصة القصيرة والمقال إلى آفاق جديدة من الجودة والاتقان ، وأمسهما في ابتعاث الأخلاق من جديد في ذلك العصر ، وحددا طابع الأدب الانجليزي وشكله لمدة قرن من الزمان باستثناء المبقرية البالغة القوة والنف في هذا العصر .

جوناتان سويفت : ١٦٦٧ - ١٧٤٥

كان سويفت يكبر متيلاً وأديسون بخمس سنين . ولكنه صر بعد أحد عشر سنة عشرة سنة ، وبعد الأخر ستاً وعشرين . وكان بمثابة شحمة متأججة سرت من قرن إلى قرن ، من دريدن إلى بوب . ولم يستطيع قط أن يغتفر مولده في دبلن الذي كان طائفاً مثيراً للغضب في إنجلترا . وكم كان قاسياً عليه أن يقضى أبوه نحبه قبل ولادته ، وكان الوالد قهرمان قصر الملك في دبلن . وعهد بالطفل إلى مرضعة حملته منها إلى إنجلترا ، ولم تعد به إلى أمه إلا عندما بلغ الثالثة من العمر ، وربما ولدت هذه اللعاسرات والمخاطر في نفس الصبي شيئاً من قلق اليتيم . ولا بد أن هذا الشعور ازداد عمقا في نفسه ، بانتقاله إلى عم له . سرعان ما تخلص منه ، وهو في السادسة بالحاقه بمدرسة داخلية في كلكني . وفي سن الخامسة عشرة التحق بتراقى كولدج في دبلن ، حيث ظل بها سبع سنين . وشق طريقه في الكلية بصعوبة لأنه كان مهملًا في اللاهوت بصفة خاصة . وكثيرا ما قصر وعوقب ، وذاق مرارة الفقر والحرمان عندما تعثر حظ عمه الذي تولى الانفاق عليه ، وأصيب بانفيار عصبي (١٦٨٨) . وعند موت عمه ١٦٨٩ ، وفي غمرة ثورة أيرلنده لنصرة جيمس الثاني ، هرب جوناتان إلى إنجلترا ، وإلى أمه التي كانت تعيش في ليستر على عشرين جنيتها في العام . وعلى الرغم من طول الفراق بينهما ، انسجبا معا إلى حد معقول ، وتعلم كيف يحبها ، وزارها من حين إلى حين ، حتى وفاتها (١٧١٠) .

وفي أواخر عام ١٦٨٩ وجد سويفت عملاً براتب قدره عشرون جنيتها في العام مع الإقامة والطعام ، سكرتيرا لسيروليم نبل في موربارك . وكان نبل حينذاك في أوج عظيمته ، صديقا ومستشارا للملك . ويمجدربنا ألا تقسو في لومه لاختفاقه في التعرف على المبقرية في الشاب ذي الاثني والعشرين ربيعا الذي جاءه ببعض اللاتينية واليونانية ، وببعض اللهجة الايرلندية مع جهل ما كر باستخدام الشوكة والملعقة وعلاقة الواحدة منهما بالأخرى

على المائدة (٨١) وكان سوينف يجلس مع كبار العاملين في خدمه ثمبل ، إلى مائدة سيدم (٨٢) ، الذى لحظ دوما الفرق بينه وبينهم . ولكن ثمبل كان فأرسل سوينف ١٦٩٢ إلى أكسفورد ليحصل على درجة الأستاذية . وأوصى به عطوفا ، ولیم الثالث خيرا ، ولكن دون جدوى .

وفى نفس الوقت كان سوينف يكتب مقطوعات شعرية من ذات البيتین . عرض بعضها على دریدن الذى قال له « يا سوينف ، يابن العم ، إنك لن تكون شاعرا أبدا » — وهى نبؤة كانت دقتها تمبل عن إحراك الشاب وتقديره . وفى ١٦٩٤ ترك سوينف خدمة ثمبل ، مع توصية منة . فعاد إلى إيرلنده ، ورسم قسيسا أنجليكانيا (١٦٦٥) وعين فى وظيفة كنسية صغيرة صغيرة ذات راتب فى كلروت بالقرب من بلفاست . وهناك وقع فى غرام جين دارنج التى سماها « ماريا » ، وعرض عليها الزواج ، ولكنها أمهله حتى تتحسن صحتها ويزداد دخله . ولما لم يطق صبرا على هذه العزلة القتالة فى أبرشية ريفية ، هرب من كلروت ١٦٦٩ وعاد أدراجه إلى ثمبل وظل فى خدمته حتى مات هذا الأخير .

وكان سوينف فى عامه الأول فى موربارك ، قد التقى بأستر جونسون . التى قدر لها أن تصبح « Stella » . وتناثرت بعض الشائعات بأنها نتاج شىء من طيش سيروليم ثمبل ، الذى كان نادرا . والأرجح أنها ابنة تاجر من لندن . التحقت أرملته بخدمة ليدى ثمبل . وعندما رآها سوينف لأول مرة كانت فى سن الثامنة ، تبعت على السرور والابتهاج مثل سائر البنات فى هذه السن ، ولكنها كانت أصغر من أن تثير فيه لواعج الغرام والهيام . أما الآن وهى فى الخامسة عشرة ، فقد اكتشف سوينف ، معلمها الذى ناهز التاسعة والعشرين ، أن مفاتنها تثير للشاعر البدائية لدى الكاهن المحروم ، لها عينان سوداوتان براقتان ، وشعر أسعج ، وصدر منتفخ ، « رشيقه رشاقة غير معهودة فى البشر ، فى كل حركة وفى كل كلمة وفى

كل عمل « (هكذا وصفها سويقت فيما بعد) ، « ركبت كل تقاطيع وجهها في أحسن صورة (٨٣) » فكيف لاتفتن هلاوز هذه معلمها أبيلاذ (٥) .

وعندما توفي تمبل ١٦٩٩ ترك لأستر ألف جنيه واسويقت مثلها . وبعد آمال خائبة في الالتحاق بوظائف الحكومة ، قبل سويقت الدعوة ليكون قسيسا وسكرتيرا لدى أرل بركلى الذى كان قد عين لفوره قاضى القضاة فى أيرلنده . وحمل سكرتيرا للرحلة إلى دبلن ، ولكنه هناك فصل عن عمله . فطلب أن يعين رئيسا لكنيسة « درف » وهو منصب كان على وشك أن يشغره . ولكن السكرتير الجديد ، لقاء رشوة قدرها ألف جنيه ، خص بالوظيفة مرشحا آخر . واتهم سويقت إرل بيركلى والسكرتير كليهما ، وجها لوجه ، بأنهما « وغدان حقيران » . فعلا على تهديته بتعيينه قسيسا فى « لاراكور » ، وهى قرية على بعد نحو عشرين ميلا من دبلن ، لايزيد شعبها على خمسة عشر شخصا . والآن فى ١٧٠٠ بلغ دخل سويقت ٢٣٠ جنيها ، وهو دخل حسبته جين وارنج كافيا لإتمام الزواج . ومهما يكن من أمر ، فقد مضت أربع سنوات على مقانحتها لها فى أمر الزواج ، وفى نفس الوقت كان قد وقعت عينه على أستر . فكتب إلى جين يقول أنها إذا تزودت بقسط من التعليم يؤهلها لتكون شريكة صالحة لحياته ، وتمد بأن ترضى عن كل ما يحب ويكره ، وتخفف من متاعبه ودراسته ، فلاه يتزوجها دون نظر إلى وسامتها وجمالها أو إلى دخلها (٨٤) .

ومذ كان سويقت وحيدا فى لاراكور ، فلاه كثيرا ما تردد على دبلن . وهناك فى ١٧٠١ حصل على درجة الدكتوراه فى اللاهوت ، وبعد ذلك فى نفس العام « دطاستر جونسون وصديقتها مسز روبرت دنجلى ليحضرا ويقيا معه فى لاراكور ، فقدمتا واتخذتا مسكنا بالقرب منه . وفى أثناء تغيبه فى انجلترا شغلتا مسكنه الذى كان قد استأجره فى دبلن وكانت أستر

(٥) فيلسوف ولاهوتى فرنسى القرن الحادى عشر ، تزوج تلميذه وهشيقته هلاوز .

(ستيللا) تتوقع منه أن يتزوجها ، ولكنه تركها تنتظر طيلة خمسة عشر عاما ، واحتملت هي هذا الموقف الذي وضعها فيه على مضض ، واتتأبها الاضطراب والكتابة . ولكن قوة شخصيته وحدة تفكيره ، أخذتا جذوتها وكأنما وقعت تحت تأثير تنويمه المغناطيس حتى النهاية .

وتألفت حدة ذهنه بشكل مباغت حين نشر في ١٠٧٤ في مجلد واحد « معركة الكتب » و « حكاية حوض الاستحمام » . والأول اسهام موجز لا يستحق الذكر في الجدل حول للزاي النسبية للأدب قديمة وحديثة . أما الثاني فهو عرض هام لفلسفة سوينت الدينية أو غير الدينية . وقال سوينت عندما أعاد قراءه كتابه هذا في أخريات أيامه : « يا إلهي : أية عبقرية أملت على هذا الكتاب ؟ » (٨٥) . وأحبه كثيرا إلى حد أنه في الطبقات التالية أنحفه بخمسين صحيفة أخرى من الهراء ، على شكل مقدمات واعتذارات . وكان يفاخر ويزهو بأن الكتاب ينم عن أصالة بالغة . ومع أن الكفيسة كانت منذ أمد بعيد قد أكدت أن المسيحية هي « رداء المسيح السليم الذي لاشية فيه » ولكن الإصلاح البروتستانتي مزقه اربا فان أحدا - خصوصا كارليل في Sartor Resortus - لم يطمئن في القوة التي لم يسبق لها مثيل التي ردها سوينت كل الفلسفات والديانات إلى مجرد أردية تستخدم لستر جهلنا للرتجف أو اخفاء رغباتنا الجامحة المفضوحة :

« هل الإنسان نفسه إلارداء بالغ الصغر أو على الأصح مجموعة كاملة من اللابس بكل زخارفها وزركشتها ؟ . أليست الديانة عبادة ، والأمانه حذاء يلي بالوجل ، وحب الذات معطفا ضيقا غاية الضيق ، والغرور قيصا ، أليس الضمير إلأمر والا (بنطلونا) يستر الخلاعة والقذارة ، ولكن من السهل نزع الخدمه الخلاعه والقذارة كليهما ؟ فإذا وضعت بعض قطع القراء الرخيص أو الثمين في موقع معين من الرداء فإننا بذلك نصنع قاضيا وحكما . ومن ثم فان وضع بعض الشاش والأطلس الأسود بهما إلى بعض يشكل مناسب يصنع لنا أسقفنا (٨٦) » .

وجرت استعارة الرداء هنا بدقة ورقة . أن بيتر (الكاثوليكية) ، ومارتن (اللوثرية والأنجليكانية) وجاك (الكالفنية) تسدوا ، ثلاثهم ، من أبيهم وهو محتضر ، ثلاثة أردية جديدة متعائلة (كتبامقدسة) إلى جانب وصية توجهم كيف يلبسونها ، وتحرم عليهم إبدالها ، أو إضافة خيط واحد إليها أو انتقاص خيط واحد منها ووقع الأبناء الثلاثة في غرام سيدات ثلاث : «دوقة للمال» . أى الثراء ، و «آنسة الألقاب الفخمة» أى الطمع ، «وكونتيسة الكبرياء» أى الغرور . ولكن الأخوة الثلاث ، رغبة منهم في إرضاء هؤلاء السيدات ، يعمدون إلى إحداث بعض التغيير في أرديتهم الموروثة . ولما بدا لهم أن التغييرات تتعارض مع وصية أبيهم ، أطادوا تفسير الوصية بتأويلات صادرة عن علماء ومثقفين . أما بيتر فقد أراد أن يضيف حواشى وأهدابا من القمصة (البذخ البايوى) . وسرطان ما اتضح للعلماء الثقة أن لفظة «الهدب أو الحاشية» فى الوصية تعنى عصا المكنسة الطويلة . وهكذا اختار بيتر الحواشى القمضية ، ولكنه حرم على نفسه عصا المكنسة الطويلة «السحر؟» وفرح البروتستانت (المحتجون) حين وجدوا أقسى الهجاء والنقد يوجه إلى بيتر : إلى شرائه قارة كبيرة (للمطهر) - مكان تطهر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بمعذاب محدود الأجل (ثم بيعه (أى المطهر) فى أجزاء متفاوتة (مكوك الغفران) للرة بعد الأخرى ، وإلى علاجاته الناجحة الحالية من الآلام طادة (الكفارات) للديدان (أى وخزات الضمير) - وعلى سبيل المثال : «الامتناع عن أكل شئ بعد العشاء لمدة ثلاث ليال .» وألا تخرج على الإطلاق ريحا من الجانبين دون سبب واضح (١٧) ، وكذلك وجه النقد إلى بيتر لا بتداع «وظيفة الهمس» (أى الاعتراف) «لتخفيف وراحة المصابين بوسواس المرض أو الذين أرهقهم المص» و «وظيفة التأمين» (أى مزبد من الغفران) ، «الخلل البالى المشهور (الكاثوليكي) ويعنى به «الماء المقدس» ، على أنه وقاية من الضعف والانحلال . وحيث تزود بيتر بهذه الوسائل والحيل الحكيمة فإنه ينصب نفسه ممثلا لله رب . ويصف

فوق رأسه ثلاث قبعات ذات تاج عال . ويمسك في يده بعضا يخنال بها ، وإذا رغب الناس في مصافحته ، قدم لهم « كأن كلب مدرب تدريباً جيداً » قدمه (٨٨) . ويدعو بيتر إخوته إلى الغذاء ، ولا يقدم لهم غير الخبز ، ويؤكد لهم أنه ليس خبزا بل لحماً ، ويدحض اعتراضاتهم ويقول « لا قناعاً كما بأكسكا لستما إلا شخصين أحقين جاهلين عنيدين أصميين حقاً » ، إن استخدم إلا حجة واحدة : والله إنه لحم ضأن طيب طبيعي مثل أى لحم ضأن في « ليدنهول ماركت » ، صب الله عليكم اللعنة الأبدية إذا صدقتما غير ما أقول (٨٩) . ويثور الأخوان ، ويستخرجان « نسخاً حقيقية » من الوصية (ترجمة الكتاب المقدس باللغة الوطنية) ، ويشجبان بيتر على أنه دجال محتال . وبناء على هذا طرد بيتر أخويه من داره ، ولم يستظلا بسقفه منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا (٩٠) . وسرعان ما دب النزاع بعد ذلك بين الأخوة : إلى أى حد ينبذون أو يغيرون من أثوابهم الموروثة . ويعتزم مارتن ، بعد ثورة غضبه الأولى ، أن يلتزم جادة الاعتدال . ويتذكر أن بيتر أخوه . أما بيتر ، فإنه على أية حال يمزق ثوبه أرباً (شيع كلفنية) . ويصاب بمساة من الجنون والغيرة . ويستطرد سويقت ليصف عمليات الريح (ويقصد بها الوحى والالهام) عند العواسيين - نسبة إلى عولس إله الرياح « ويعنى بهم » الوعاظ الكلفنيين . ويسخر كثيراً - سخيرية لا يحجوز نقلها هنا - من ألفاظهم الأنفية الحادة ومن نظرياتهم في القضاء والقدر ، وتقديسهم الأسمى للنصوص المقدسة (٩١) . وإلى هنا ، لم يعصب مذهب الكاتب - المذهب الأنجليكاني إلا اليسير من الجراح . ولكن سويقت يسترسل في القصة ، ويغير الأثواب إلى رباح ، ومن الواضح أنه ينتهى إلى أن كل الديانات والفلسفات - لا لاهوتيات المنشقين فحسب - ليست إلا أضاليل وأوهاما كاذبة سريعة الزوال .

« إذا استعرضنا الانجازات العظيمة التى تمت فى العالم . . . مثل تسكوين الامبراطوريات الجديدة عن طريق الغزو والفتح ، وابتداع وعر مذاهب

١٨ - قصة الحضارة

جديدة في الفلسفة ، واستنباط أديان جديدة ونشرها ، فلسوف نجد أن الذين قاموا بهذا كله ، ليسوا إلا أشخاصاً هيات لهم عقولهم الطبيعية أن يقوموا بانقلابات كبيرة ، بفضل غذائهم وتعليمهم ، ومزاج معين سائد ، بالإضافة إلى تأثير خاص للهواء والمناخ . . لأن عقل الإنسان المستقر في مخه ، لا بد أن ترهقه وتغمره أبخرة ورياح صاعدة من القوى والوظائف الجسدية الدنيا لتسقى المخترعات وتجعلها مثمرة (٩٢) .

ويسترسل سويغت في تفصيل فسيولوجي لا يمكن ذكره ، لما بداله أنه مثال رائع لا فراغات داخلية تولد أفسكاراً قويه ، من ذلك « المشروع الكبير » لهنري الرابع : ذلك أن ملك فرنسا لم يوح إليه بشن الحرب ضد آل هابسبرج ويستحثه عليها ألا تفكيره في الإستحواذ في طريقة على امرأة (هي شارلوت مونتورنس) التي حرك جمالها في الملك عصارات مختلفة « صعدت إلى مخه (٩٣) » وهذا هو بالمثل ما حدث بكبار الفلاسفة الذين حكم عليهم معاصروهم بحق بأنهم « فقدوا عقولهم » :

« ومن هذا الطراز كان أبيقور ، ديوجين ، ، أبولونيوس ، لو كريس ، يراسلسوس ، ديسكارت ، وغيرهم ، بمن لو كانوا على قيد الحياة الآن ، . . لتعرضوا في هذا العصر المتميز بالفهم ، لخطر واضح ، خطر فصد الدم ، والسياس ، والأغلال ، والحجرات المظلمة وانقش (في السجون) أما الآن فقد يسرنى أن أعرف كيف أنه من الميسور أن نعلل لهذه التصورات والأفسكار ، . . دون إشارة إلى الأبخرة التي تتصاعد من القوى والوظائف الجسدية الدنيا ، حيث تلمى ظلالاً معتمه على المخ ، فتقطر أو تتساقط مفاهيم لم تضع لها لغتنا الضيقة بعد أسماء غير الجنون أو الخبل (٩٤) . »

ولمثل « هذا الخلل أو التحول في المخ بفعل الأبخرة المتصاعدة والقوى والوظائف الجسدية الدنيا » يمزو سويغت كل الانقلابات أو الثورات التي حدثت في الإمبراطورية والفلسفة والدين (٩٥) ويخلص إلى أن كل مذاهب الفكر عبارة عن رياح من الألفاظ ، وأن الرجل العاقل لا ينبغي له أن ينفذ

إلى الحقيقة الباطنة للأشياء ، بل يقنع نفسه بالسطح أى بظواهر الأشياء ،
هو بناء على هذا يستخدم أحد التشبيهات اللطيفة التي ينحطف إليها دائماً :
« رأيت في الأسبوع الماضي امرأة سلخ جلدها ، ولن تصدق أنت بسهولة
إلى أى حد تغير شكلها إلى أسوأ مما كانت (٩٦) » .

إن هذا الكتاب الصغير المخزى الذي وقع في ١٣٠ صحيفة ، جعل من
سويغت في الحال « سيد الهجاء » — أو كما سماه فولتير : رابليه آخر في
صورة متقنة . إن القصص الرمزية أو المجازات إنسقت إنساقاً حرفياً مع
معتقد الأنجليكانى التقليدى . ولكن كثيراً من القراء أحسوا بأن
الكاتب متشكك ، إن لم يكن ملحداً . أما رئيس الأساقفة شارب فإنه
أبلغ الملكة آن أن سويغت لم يفضل الكافر بشئ كثير (٩٧) . وكان من
رأى دوقه مالبورو الصديقة الحميمة للملكة ، أن سويغت :

« حول ، منذ زمن طويل ، كل الديانة إلى « قصة حوض الاستحمام »
على أنها وابعها دطابة . ولكنه كان قد إستاء من أن « الأحرار » لم يكافئوه
بالترقية في الكنيسة على ما أظهر من غير شديدة على الدين بهزله الدنس ،
ولذلك سخر الحاد ومزاحه ومرحه في خدمة أعدائهم (٩٨) » .

كذلك نعتة ستيل بأنه كافر ، ووصفه فوتنجهام في مجلس العموم بأنه
طالم لاهوتى « من العسير أن يشك في أنه مسيحي (٩٩) » . وكان سويغت قد
قرأ هوبز ، وهى تجربة ليس من اليسير نسيانها . ذلك أن هوبز كان قد بدأ
بالخوف ، وانتقل إلى المذهب للمادى ، وانتهى بأن يكون « محافظاً » يناصر
الكنيسة الرسمية .

وكان لرجال الدين قليل من العزاء في أن سويغت أخرج مؤلفاً في

الفلسفة :

« إن مختلف الآراء الفلسفية انتشرت في أنحاء العالم ، وكأنها أمراض
مطاعون أسابت العقل ، كما نشر صندوق يندورا (*) الأوبئة التي تصيب

(*) Pandora — فى الأساطير اليونانية — أول امرأة فالية ملكة أرسلها الإله =

الجسم ، مع طارق واحد ، هو أن الطاهون لم يترك شيئاً من الأمل في القاع إن الحقيقة خافية على الناس ، قدر خفاء منابع النيل ، ولا يمكن وجودها إلا في « بوتويا » (المدينة لثالية) (١٠٠) .

ومن الجائز أن سويغت ، لأنه أحس بأن الحقيقة لم تقصد للبشر ، نبذ في إصرار شديد كل الفرق الدينية التي ادعت أن مذهبها « هو للذهب الصحيح » . وازدري الرجال الذين زعموا — مثل بايان وبعض الكويكرز — أنهم رأوا الله أو كلموه . وانتهى ، مع هوبز ، إلى أنه ضرب من الانتحار الاجتماعي أن تترك لسكل إنسان الحرية في أن يصنع عقيدته أو مذهبه بنفسه ، حيث لن تكون نتيجة ذلك إلا عاصفة هوجاء من السخافات يصبح معها « بیمارستانا » أو مستشفى الأمراض العقلية . ومن ثم طرض سويغت حرية الفكر ، على أساس أن « جمهور البشر مؤهل للطيران قدر ما هو مؤهل للتفكير » (١٠١) . واستنكر التسامح الديني ، وظل لآخر حياته يؤيد « قانون الاختبار » الذي قضى بإقصاء غير أتباع الكنيسة الرسمية عن كل الوظائف السياسية والعسكرية (١٠٢) . واتفق مع الحكام الكاثوليك واللوثرين على أنه يجب أن يكون الأمة عقيدة دينية واحدة . وحيث أنه ولد في إنجلترا ، ومذهبها الرسمي هو الأنجليكاني ، فإنه رأى أن الاتفاق العام الكامل على اعتناق هذا المذهب أمر لا غنى له عنه لعملية تمدين الإنجليز ونشر سويغت في ١٧٠٨ بعض القطع : « أحاسيس رجل يتبع كنيسة إنجلترا » ، « والدليل على أن إلغاء المسيحية في إنجلترا قد يستتبع بعض المتاعب والمشاكل وللزيجات » وكان آنذاك في طريقه من الأحرار إلى المحافظين .

وكان أول ارتباط سياسي له — بعد ترك تمبل — مع الأحرار ، حيث

== زيوس ، عطاها للبعر على مرقعة يروميئوس النار . أعطها زيوس صندوقاً فتحت فأنطلقت منه إلى الدنيا كل العلل والأمراض التي تصيب الجسم ، (وفي رواية حديثة أطلقت منه كل نعم الحياة فتبددت وضاعت هباء منثوراً ، ولم يبق إلا مجرد الأمل .

بداله أنهم حزب أكثر تقدمية ، ومن الأرجح أن يجدوا صلا لرجل أكبر عقلا وأقل ثراء . وفي ١٧٠١ نشر كتيباً يناصر فيه حزب الأحرار وكله أمل في الظفر بشيء . ورحب هاليفاً كس وسندر لند وغيرهما من زعماء الأحرار ، بالضمامه إلى حزبهم ، ووعدوه خيراً إذا تولوا الحكم . ولكنهم لم ينجزوا ما وعدوا ، ويحتمل أنهم خشوا من أن سويغت رجل لايسهل قيادته ، وأن قلته سلاح ذو حدين ، وفي رحلة موسعة من أيرلنده إلى لندن في ١٧٠٥ كسب سويغت صداقة كونجريف وأديسون وستيل . وأهداه أديسون نسخة من « رحلات إلى إيطاليا » وكتب في عبارة الاهداء « إلى جوناثان سويغت ، أحسن رفيق وخير صديق ، أعظم عبقرية في زمانه يقدم خادمه الدليل ، المؤلف ، هذا الكتاب (١٠٣) » ، ولكن هذه الصداقة ، مثل صداقة جوناثان مع ستيل وبوب ، لم تدم ، وأتت عليها نيران سويغت المتقدمة أو ثورته للتصاعدة .

وفي زيارة أخرى لمدينة لندن ، تسلى سويغت بتدمير منجم دهي . ذلك أن جون بارتريدج ، الاسكافي ، أخرج كل طام تقويماً زائراً بالنبوءات للؤسسة على حركات النجوم . وفي ١٧٠٨ نشر سويغت تحت اسم مستعار « ايزاك بيكرستاف » تقويماً منافساً . وكان من بين تنبوءات ايزاك ، أنه في الساعة الحادية عشرة من مساء يوم ٢٩ مارس سيقضى بارتريدج نحبه . وفي ٣٠ مارس نشر بيكرستاف في نشوة الانتصار رسالة أعلن فيها أن بارتريدج مات في ظرف بضع ساعات من الموعد المحدد في النبوءة ، وذكر في تفصيل مقنع ترتيبات الجنازة . وأكد بارتريدج لمدينة لندن بأسرها أنه لا يزال حياً يرزق . ولكن ايزاك رد بأن هذا محض افتراء . وأدرك ظرباء المدينة المخذعة . ورفع مكتب التسجيلات اسم بارتريدج من سجلاته أما ستيل فإنه اختار ايزاك بيكرستاف اسماً لمحرره وهمى في صحيفة « تاتلر » عند افتتاحها في السنة التالية .

وفي ١٧١٠ غادر سويغت لارا كور مرة أخرى ، موقفاً عن الأساقفة

الآيرلنديين ليطلب إلى الملكة آن أن تمد يد معونتها إلى رجال الدين
الأنجليكانيين في أيرلنده : ورفض جودلفين وسومرز ، وهما عضوان من
حزب الأحرار في مجلس الملكة ، للموافقة على هذا إلا إذا وافق رجال
الدين هؤلاء ، على التخفيف من حدة « قانون الاختبار » والارضاء من
قبضته . ومارض سوينف بشدة التخفيف للطلوب . واكتشف الأحرار
أنه كان « محافظا » بالنسبة للمقيدة الدينية . واعترف سوينف عمليا بأنه
« محافظ » بالنسبة للسياسة أيضا ، حين كتب : « انى كنت أمقت دوما
هذا النهج السياسى . . ألا وهو وضع مصالح ذوى المال فى مواجهة مصالح
مالكى الأرض (١٠٤) » . ولجأ الى زعيمى المحافظين ، هارلى وبولنجبروك
واتى ترحيبا حارا ، وأصبح بين عشية وضحاها « محافظا » راسخا . وعين
محررا لصحيفة المحافظين « إجزامر » . وأبرز أسلوبه بوضوح عندما
وصف نائب حاكم أيرلنده — وهو من حزب الأحرار ، وكان أديسون
صديق سوينف ، سكرتيراله :

« ان توماس إرل وارتون . . . بحكم دستور غريب ، قضى بضعة
أعوام من سننى اليأس التى تقدم بها عمره ، دون آثار بارزة للشيخوخة فى
جسمه أو فى عقله . وعلى الرغم من مقارفته المستمرة لسكل الموبقات التى
تعتصر الجسم والعقل كليهما . . فإنه يذهب دوما إلى الصلاة . ويتحدث
حديث الفسق والفجور والتجديف على باب الكنيسة ، فهو مشيخى فى
السياسة ملحد فى المقيدة . ولكنه يؤثر الآن أن يفجر مع البابوية (١٠٥) »
وسر الوزراء « المحافظون بهذا الهجاء اللاذع الذى يشبه القتل ، فهدوا
إلى سوينف بكتابة فذلكة « سلوك الخلفاء » (نوفمبر ١٧١١) ، كجزء من
حملتهم لاسقاط مالبورو وانهاى حرب الوراثة الأسبانية ، واحتج سوينف
بأن للضرائب الاستثنائية التى فرضت لتمويل الحروب الطويلة ضد لويس
الرابع عشر يمكن خفضها بقصر اسهام انجلترا فى الحروب على البحر ،
وأوضح بأجلى بيان مكوى مالكى الأرض من أن عبء نفقات الحرب

وقع على طاقهم أكثر مما على طاق للتجار وأصحاب المصانع الذين كانوا يستفيدون من الحرب . أما بالنسبة لدوق مالبورو فقد قال سويغت « هل كان من حسن الرأي شن الحرب ، أو لم يكن ؟ » . واضح أن الدافع إلى الحرب ، هو الرفع من شأن أسرة بعينها ، وبعبارة موجزة أنها حرب لحساب القائد ووزارة الأحرار ، وليست حربا لحساب الملك والشعب (١٠٦) وقدر الكاتب رواتب مالبورو وتعويضاته بنحو ٥٠ ألف جنيه « وهذا الرقم دقيق (١٠٧) » . وبعد شهر واحد سقط مالبورو وصورت الدوقة زوجته الجريمة الصريحة وهي الوحيدة في إنجلترا التي كان لسانها حادا لا ذما ، مثل لسان سويغت — صورت في مذكراتها المسألة من وجهة نظر الأحرار ، فقالت :

« أن السيدين المحترمين مستر سويغت ومستر ريبور أمر طافرضا نفسيهما للبيع . . . وكلاهما من اللوهويين القادرين ، وهما مستعدان لتسخير كل مالهيهما لخدمة أية فرية مخزية طالما كانت المكافأة مجزية . لأن كليهما لا يبالي بحمرة الخجل ولا بالسقوط أو الانزلاق من أجل مصلحة سادتهم الجدد (١٠٨) »

وكافأ المحافظون تابعيهما الجديدين . فعيّنوا ماتيو ريبور في منصب دبلوماسي في فرنسا حيث أبلى بلاء حسنا . ولم يحصل سويغت على أي منصب ولكنه كان صديقا حميما وثيق الصلة بوزراء المحافظين ، فاستطاع بذلك أن يحصل لكثير من أصدقائه على وظائف تدر مالا وفيرا ولا تقتضى عملا كثيرا . وكان مثال الكرم والعطف على من لم يعارضوه أو يهاجموه . وزعم فيما بعد أنه أهدى لخسين شخصا أكثر خمسين مرة مما أهداه إليه سير ولیم نمبل (١٠٩) . واقنع بولنجبروك بمساعدة الشاعر جاي Gay وألح على وجوب استمرار الوزارة في دفع الراتب الذي كان الأحرار يدفعونه لسكونجريف . ولما طلب بوب جمع بعض التبرعات لمعاونته على ترجمة هوميروس ، أمر سويغت كل أصدقائه وكل طلاب الوظائف بالتبرع ،

وأقسم « أن المؤلف لن يشرع في الطبع قبل أن يجمع له ألف جنيه (١١٠) » وغطت شخصيته على مكانة أديسون في الأندية ، وكان في كل ليلة تقريبا يتناول العشاء مع العظاء . ولم يكن يطبق من أحدهم أية ممة من ميمات التعالى عليه . وكتب يوما إلى ستيللا « إنتى مزهو متكبر إلى حد أنى أجعل اللوردات يأتون إلى ٠٠٠ كان مفروضا أن أتناول العشاء في قصر أشبيرنهام ، ولكن هذه السيدة المنحطة القدرة لم تعرج علينا لنصحبها في عربتها ، ولكنها أرسلت في طلبنا فحسب ، ولذلك أرسلت إليها اعتذارا (١١١) » .

وفي السنوات الثلاث (١٧١٠ - ١٧١٣) في إنجلترا كتب سوينف الرسائل المعجبية التي نشرت فيما بين ١٧٦٦ - ١٧٦٨ تحت عنوان « يوميات إلى ستيللا » . إنه كان في حاجة إلى صديقة حميمة إلى جانبه في العشاء لدى الأدواق والدوقات ، وفي انتصاراته السياسية . أضف إلى ذلك أنه أحب للمرأة الصابرة ، التي ناهزت الثلاثين آنذاك ، ولكنها ظلت تنتظره حتى يحزم أمره . ولا بد أنه أغرم بها ، لأنه كتب لها أحيانا مرتين في اليوم الواحد ، وأظهر اهتمامه وتعلقه بكل ما يعينها ، اللهم إلا الزواج . وما كان ينبغي لنا أن نتوقع من مثل هذا الرجل للمستبد للتغطرس ، هذا للزاح الرقيق ، وهذه الألقاب والكنيات الغريبة ، والنسكات والتوريات ، والحديث للصبيان ، مما حبه سوينف في رسائله التي لم يتوقع نشرها . أنها وسائل زاخرة بالملاطفة والتدليل ، ولكنها خلو من أى عرض أو اقتراح ، اللهم إلا إذا كانت ستيللا قد قرأت وعدا بالزواج في رسالته للورخة ٢٣ مايو ١٧١١ : « لن أطيل الحديث ، ولكنى أتوسل إليك أن تهدينى حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، وأن تنق بآن سمادتك هى غاية ما أصبو وأسمى إليه فى كل ما أحمل (١١٢) » ومع ذلك فإنه فى هذه الرسالة يطلق عليها « الطفلة للزعجة ، الساذجة الفتاة للمغناج ، البغى ، للمرأة القدرة ، السكبة المحبوبة » ، وغير ذلك من ألقاب التدليل والملاطفة . وأنا لنفس روح الرجل

حين يقول لها :

« كنت هذا المساء مع الوزير في مكتبه . وحلت بينه وبين المفوع عن رجل اتهم باغتصاب امرأة . وكان الوزير راغبا في انقاذه ، على أساس فكرة قديمة تقول بأن المرأة لا يمكن أن تغتصب . ولكنني أبلغت الوزير أنه لا يمكن المفوع عن الرجل إلا بناء على تقرير مناسب من القاضي . هذا بالإضافة إلى أنه عازف كان طابث ، ومن ثم فهو وغد ، ويستحق الشنق لتصرفات أخرى . ومن ثم لا بد أن يموت شنقا . ماذا ؟ إني لا بد أن أدافع عن شرف الجنس اللطيف ، حقا أن الرجل قد ضاعها مائة مرة من قبل ، ولكن ماذا يعني في هذا ؟ . هل يجب أن تغتصب المرأة لأنها بنى (١١٣) ؟ » .

وقد تعيننا هلل سويغت الجسيمة على فهم السر في رداة طبعه وسرعة غضبه ، أنه منذ ١٦٩٤ ، وهو في السابعة والعشرين من العمر ، بدأ يعاني من دوار في الأذن الداخلية ومن حين لآخر ، وبشكل لا يمكن التنبؤ به ، أصابته نوبات من الدوار وتشويش الذهن والصمم . وأصبح طبيب مشهور هو دكتور رادكليف بأن يوضع سائل مركب داخل كيس في لمة (الشعر الذي يجاور شحمة الأذن) سويغت ، واشتدت به العلة على مر السنين ، وكان من الجائز أن تسبب له الجنون . ويحتمل أنه في ١٧١٧ قال للشاعر ادوار بنج ، مشيراً إلى شجرة ذابلة « إني سأموت مثل هذه الشجرة سأموت في القمة (١١٤) . » وكان هذا وحده كافيا ليتشكك في قيمة الحياة ، ويرتاب قطعا في وجه الحكمة في الزواج . ومن الجائز أنه كان ضيقنا ، ولكننا لا نستطيع الجزم بهذا . واعتاد على كثرة للشئ اتقاء لهرال جسمه ، فشئ مرة من فارنام إلى لندن : ٣٨ ميلا .

وزاد من شدة مرضه حدة حواسه حدة مؤلمة ، وهي عادة تلازم حدة الذهن وفرط الذكاء . وكان بشكل خاص شديد الحساسية للروائح في شوارع المدن وفي الناس . فاستطاع أن ينبىء ، بمجرد الشم ، من صحة من يقابل من

الرجال والنساء ، وخلص من هذا إلى أن الجنس البشرى أصابه الذن (١١٥) .
ولذلك كان مفهوم المرأة الجديدة بالحب والإعجاب عنده ينحصر إلى
حد ما في :

« أنها لا يخرج من جسمها الذئ هبات كريهة الرائحة تتير الاشمزاز ،
لا من خلف ولا من قدام ، ولا من فوق ، ولا من تحت ، ولا يتصبب منها
العرق البغيض (١١٦) » .

أنه يصف « قادة جميلة في طريقها إلى القراش » ، ونفس المرأة
حين تقيق .

« إن من يرى كورينا في الصباح يتقيأ ، ومن يشم رائحتها يصاب بالتسمم » .

إن مفهومه عن المرأة الشابة الجميلة مرتبط بحاسة الشم :

« إن أعز رفيقاتها لم يرينها يوماً تجلس القرفصاء لتتبول ، والك أن تقدم
بأن هذه المخلوقة الملائكية لم تحس يوماً بضرورات الطبيعة ، فإذا مشت
في شوارع المدينة في الصيف لم يلوث ابطاها ثوبها . وفي حلبة الرقص في
القرية أيام القيظ لن يستطيع أنف أن يشم رائحة أصابع قدميها (١١٧) » .

وكان سويقت نفسه نظيفاً إلى حد التزمت . ومع ذلك فإن كتابات
هذا السكاهن الأنجليسكانى تعد من أخش ما كتب في الأدب الانجليزى .
أن تبرمه بالحياة جعله يقذف بأخطائه في وجه زمانه . ولم يبذل أى جهد
في إرضاء الناس ، ولكنه بذل كل الجهد في أن يسيطر ويتحكم ، لأن
السيطرة خففت من شعوره الخفى بعدم الثقة فى نفسه . وقال أنه يكره
(أو يرهب) كل من لا يستطيع أن يأمره (١١٨) ، على أن هذا لم يصدق
على حبه هارلى . وكان غضوباً عند الشدة ، متعطرساً فظاً وقت الرخاء
والنجاح . وأحب السلطة أكثر مما أحب المال . وعندما أرسل إليه هارلى
بخمسين جنيهًا أجراً لمقالاته ، رد الحوالة وطالب بالاعتذار ، وكان له
ما أراد ، فسكتب إلى ستيلا « لقد استرضيت مستر هارلى ثانية (١١٩) » .
وكان يكره الرسميات ويحتقر النفاق . وبداله أن الدنيا تميل إلى قهره ،

وقابل هو المدام بمثله صراحة ، وكتب إلى الشاعر بوب :

« إن غاية ما أصبو إليه في كل أعمالي أن أزعج العالم وأضيقه ، لأن أسليه ، فإذا استطعت أن أحقق هذا الغرض دون أن ألحق الأذى بشخصي أو بثروتي ، لكنت أعظم كاتب لا بكل ولا يمل رأيتك أنت في حياتك . . إذا فكرت في الدنيا فأرجوك أن تجلدها بالسوط بناء على طلبي . لقد كنت أبدا أكره الأمم والوظائف والمجتمعات . وكان كل حبي للأفراد ، إنني أكره طائفة رجال القانون ، ولكني أحب مستشاراً بعينه أو قاضياً بعينه ، وهكذا الحال مع الأطباء . (ولن أتحدث عن صناعتي) ، والجنود ، والانجليز والاسكتلنديين والفرنسيين ، وقرمهم ، ولكني أساساً أكره وأمقت هذا الحيوان الذي يسمى إنساناً ، ولو أني من كل قلبي أحب جون وبيتر وتوماس وهكذا (١٢٠) » .

عند هذا الحد يبدو أن سوينف أقل الرجال جدارة بالحب ، ولو أن امرأتين أحبته إلى أن فارقتا الحياة . وأقام في هذه السنوات في لندن قريبا من أرملة غنية تدعى فانو مراي ، وكان لها ابنان وابنتان ، فإذا لم تيسر له الدعوة إلى موائد العظماء ، كان يتناول المشاء مع « آل فان » . ووقعت الابنة الكبرى « هستر » في حبه وكانت آنذاك في الرابعة والعشرين (١٧١١) ، وهو في الثالثة والأربعين ، وأفصح له عن حبها . فحاول أن يصرف النظر عن هذا باعتباره مرحا أو مزاحا طابرا ، وأوضح لها أنه قد كبرت سنه بحيث لم يعد يصلح لها . فأجابته ، يحدوها كل الأمل ، بأنها تعلمت منه في كتبه أن تحب عظماء الرجال قرأت (مونثاني في المرحاض) ، فلماذا لا تحب رجلا عظيما إذا وجدته مائلا أمامها ؟ فرق قلبه ولات قناته بعض الشيء فنظم قصيدة من أجل عينيها فقط « كادينوس وفانيسا » قصيدة تجمع بين المرح والمأساة . وكان « فانيسا » اسمه هو عندها ، أما « كادينوس » فكان تصحيفا للفظ « ديكائوس » أي الكاهن الكبير .

ذلك أنه في أبريل ١٧١٣ عينته للسلطة كارهة رئيساً لكاتدرائية سان باتريك في دبلن . وسافر إلى هناك في يوبه ليتسلم العمل ، ورأى ستيللا وكتب إلى فايسا بأنه كاد يموت كتابة وكمداً وإستياءاً (١٢١) وفي أكتوبر ١٧١٣ عاد إلى لندن وشارك في كارثة حزب المحافظين المفاجئة ١٧١٤ . ومنذ فقد السلطان السياسي بعودة الأحرار الذين كان قد هاجمهم ، إلى الحكم في ظل الملك جورج الأول ، فإنه قفل راجعاً إلى أيرلنده الكريهة ، وإلى كاتدرائيته . ولم يكن محبوباً في دبلن لأن الأحرار الذين تولوا الآن الحكم كرهوه لنقده الساخر العنيف وخطبه اللاذعة ، كما كرهه المنشقون لإصراره على استبعادهم من الوظائف العامة . وانطلقت من الناس أصوات الاستهجان والإزدراء به في الشوارع ، ورجوه بقاذورات البالوعات (١٢٢) ووصف أحد رجال الدين الأنجليكانيين منظر ردائه في قصيدة ثبتها بالمسامير على باب الكاتدرائية :

« يستقبل هذا المعبود اليوم رئيساً ذامذاً وشهرة غير عادية استخدمها جميعاً في الصلاة وفي الدنس ، خدمة للرب والشیطان كليهما ... وهو مكان حصل عليه بالدهاء والقصيد وبوسائل أخرى من أعجب الوسائل . وربما أصبح يروى من أسقفها ، لو أنه آمن بالله (١٢٣) » :

وصمد سوينف للمحنة في شجاعة واستمر يناصر المحافظين ، وعرض أن يشارك هارلي سجنه في برج لندن . وقام بواجباته الدينية ، وألقى المواعظ بانتظام . ومنح الأسرار المقدسة ، وعاش عيشة بسيطة ، وتصدق بثلاث دخله . وفي أيام الأحد فتح أبواب مسكنه للقاصدين ، وجاءت ستيللا لخدمة الضيوف ، وصرعان ماخفت كراهية الناس له ، وبدأوا يقبلون عليه . وفي ١٧٢٤ نشر تحت اسم مستعار « م . ب . درايبية » ست رسائل يندد فيها بمحاولة وليم وود جمع أرباح طائلة من إمداد أيرلنده بعملة نحاسية . واستنكر الأيرلنديون هذه المحاولة . وعندما اكتشفوا أن درايبية لم يكن إلا سوينف ، كاد الكاهن المكتئب أن يصبح شعبياً محبوباً تماماً .

وربما استطاع سوينف أن يحظى بلحظات من السعادة لو أنه كان في مقدوره أن يحتفظ بالبحر الأيرلندي بين السيدتين اللتين أحبتاه . ولكن في ١٧١٤ مات مسز فانو مرأي ، وانتقلت ابنتها فانيسا إلى أيرلنده لتستغل بعض الممتلكات التي تركها لها والدها في سلبردج ، على بعد أحد عشر ميلا إلى الغرب من العاصمة . ولتكون بالقرب من رئيس الكاتدرائية ، استأجرت مسكنا في زقاق تيرنستيل في دبلن ، على مسافة قصيرة من مسكن ستيللا ، وكتبت إلى سوينف ترجوه أن يزورها ، وإلا ماتت كمدأ . ولم يستطع أن يقاوم توسلاتها ، وفيما بين ١٧١٤ — ١٧٢٣ تردد عليها خفية مراراً وتكراراً . ولما ختمت زيارته لها أصبحت رسائلها إليه أشد حرارة وإلتها بآ . وقالت له في إحداها أنها ولدت بهذه « المواطف الجارفة » التي تنتهي كلها إلى شيء واحد : هو حبى لك الذى لا يمكن وصفه أو التعبير عنه . وأبلغته أنه قد يكون من العبث أن يحاول تحويل حبها إلى حب الله ، « فلو أنى غيرة متحمسة فستظل أنت المعبود الذى يجب أن أعبد » (١٢٤) .

وربما فسكر سوينف فى الزواج للخروج من هذا المأزق الذى تورط فيه بين المرأتين اللتين أحبتاه ، وربما طالبت ستيللا ، وهى تعلم أن لها منافسة ، بالزواج على أنه عدالة مطلقة وأبلغ دليل على ذلك أنه تزوجها فعلا فى ١٧١٦ (١٢٥) وواضح أنه طلب إليها كتمان أمر زواجه . واستمرت تقيم بعيدا عنه . ويحتمل أنه لم يباشرها قط . واستأنف سوينف زيارته لفانيسا ، لا مغازلا ، ولا وحشا بهيميا ، بل المفهوم أن قلبه لم يطاوعه على أن يتركها يائسة بلا أمل ، أو أنه خشى أن تقدم على الإلتحار . وأكدت رسائله لفانيسا أنه أحبها وقدرها فوق كل شيء ، وأنه سيكون لها هذا الحب والتقدير حتى آخر لحظة من حياته . وسارت الأمور على هذا المنوال حتى ١٧٢٣ ، حين كتبت فانيسا إلى ستيللا تسألها فى صراحة تامة عن العلاقة بينها وبين رئيس الكاتدرائية . فأخذت ستيللا الخطاب إلى سوينف الذى ركب لفوره

إلى فانيسا ورمى بالخطاب على مائدتها . وروعها بنظراته الغاضبة . وتركها إلى غير رجعة دون أن ينبس ببنت شفة .

وعندما أفاقت فانيسا من غشيتها، تحققت آخر الأمر من أنه كان يتخذها . واجتمعت خيبته الرباء عندها إلى نزعه جامع في إفناء ما بقي لها من أسباب الصحة والحياة ، وقضت نحبها في بحر شهرين من هذا اللقاء الأخير (٢ يونيه ١٧٢٣) وهي في الرابعة والثلاثين . وثارت لنفسها في وصيتها . فألفت وثيقه قديمه كانت قد جعلت فيها سويغت وريثاً لها ، ثم أوصت بكل متاعها لروبرت مارشال والفيلسوف جورج بيركلي ، وأمرتها أن ينشرا دون تعليق رسائل سويغت إليها ، وقصيدة « كادينوس وفانيسا » . وهرب سويغت في « رحلة إلى الجنوب » في أيرلنده ، ولم يظهر في الكاتدرائية إلا بعد مضي أربعة شهور على وفاة فانيسا .

وعند عودته إنصرف إلى كتابه أشهر وأقصى هجاء وجه إلى الجنس البشري . وكتب إلى شارلي فورد أنه مشغول بوضع كتاب « يزق العالم ويهزه هزاعنيفا بشكل عجيب » (١٢٦) . وانتهى سويغت منه بعد سنة ، وحمل المخطوط بنفسه إلى لندن ، ورتب أمر نشره تحت اسم مستعار ، ورضى بمائتي جنيه ثمنا له ، ثم قصد إلى دار الشاعر بوب في توبكنهام ليستمتع بالعاصفة المرتقبة . وهكذا استقبلت إنجلترا في أكتوبر ١٧٢٦ « رحلات إلى عدة شعوب بعيدة في العالم » بقلم لمويل جليفر . وكان أول رد فعل هام هو الابتهاج بالواقعية المفصلة في سرد الأحداث . وإعتره كثير من القراء تاريخها ، ولو أن أسقفا أيرلنديا (كما يقول سويغت) ذهب إلى أنه مملوء بأشياء بعيدة الاحتمال : أما معظم القراء فإنهم لم يذهبوا إلى أبعد من الرحلات إلى أرض الأقزام Lilliput وأرض العمالقة Brobdingnag ، وهذا سرد جميل يوضح بطريقة مفيدة النسبية في الحكم على الأشياء أو التمييز بينها ، ولم يزد طول الأقزام عن ست بوصات ، ولذلك نفخوا في جليفر روحا متزايدة من التسامى . وكفى الذي يميز بين الأحزاب السياسية لديهم هو

الكموب العالية أو المنخفضة لأحذيتهم . أما الفرق الدينية فهي فريق الذين يؤمنون بكسر البيضة من طرفها الكبير ، وفريق الذين يؤمنون بكسر البيضة من طرفها الصغير . وكان طول العالقة ستين قدما ، وقد هياؤا جليليفر مشهدا آخر جديدا من مشاهد البشرية . وحسبه ملكهم حشرة ، واعتبر أوربا بيتا للنمل . ومن وصف جليليفر لأساليب الحياة ، خاص للملك إلى أن « كل مواطنكم أخبر جنس من الحشرات الطفيلية الصغيرة البغيضة التي تركتها الطبيعة تزحف على سطح الأرض (١٢٧) » . وكانت صدور خادات العالقة ، وهي صدور ضخمة ، تنفر جليليفر (ويشير الكاتب هنا إلى النسبية في الجمال) .

وتضعف القصة في رحلة جليليفر الثالثة . إنه يشد بالسلاسل والأغلال في دلو إلى « لا بوتا » وهي جزيرة ساجحة في الهواء يقطنها ويحكمها رجال العلم وللقانون والمخترعون والأساتذة والفلاسفة ، فان التفاصيل التي جاءت في أماكن أخرى لتزود القصة باحتمالات كثيرة ، كانت هنا (في المرحلة الثالثة) سخيفة بعض الشيء ، من ذلك أكياس الهواء الصغيرة التي يسد بها الخدم آذان وأفواه المفكرين العميقين لتفكيروا لينفيقوا من شرود الذهن الخطير أثناء تأملاتهم . وأكاديمية لاجادو ، بمخترعاتها وقراراتها الوهمية ، ليست إلا نقدا هزليا لقصة بيبكون « قارة الأطلنطس الجديدة » ، وللجمعية الملكية في لندن . ولم يكن سوفيت يفتق في جدوى إصلاح الدول أو حكمها بواسطة رجال العلم ، وكان يسخر من نظرياتهم ، وفنائها السريع لها . وتنبا بسقوط كوزمولوجيا نيوتن (آرائه في الكون) « إن الأنظمة الجديدة في الطبيعة ليست إلا أزياء أو أنماط جديدة قد تختلف من عصر إلى عصر ، وحتى هؤلاء الذين يدعون أنهم يوضحونها على أسس رياضية (تعريضا بكتاب للبادي « الرياضيات ١٦٨٧) لن يكتب لهم النجاح إلا لفترة قصيرة من الزمن (١٢٨) » .

ثم ينتقل جليليفر إلى أرض « اللجناجيين Luggnaggians » الذين

لا يحكمون على أكابر مجرميهم بالموت بل بالخلود .

« فإذا بلغ هؤلاء المجرمون سن الثمانين وهى السن للمعتبرة نهاية الحياة فى بلدكم ، لاتكون فيهم كل الحماقات والسقام والعلل التى فى سائر المسنين فحسب ، بل أكثر منها بكثير ، مما نشأ من توقعاتهم الرهيبة بأنهم ان يموتوا قط ، ولم يكونوا عنيدين شكسين طامعين فيما فى أيدي غيرهم ، مكتبشين طاشين ثرثارين فحسب ، بل كانوا كذلك غير أهل للصداقة ، لا يستجيبون لأية طائفة أو حب طبيعى ، لم يهبط قط عن حضرتهم . وكان الحسد والرغبات العاجزة هى الشعور السائد بينهم . . . وإذا رأوا جنازة ولولوا وتذسروا من أن الآخرين ذاهبون إلى دار الراحة التى لا يأمرون هم أنفسهم فى الوصول إليها . . . أبداً وكان هذا أفظع منظر مخز عميت للشهوات رأيت فى حياتى . وكانت النساء أشد ازعاجا من الرجال . . . ومن هذا الذى سمعت ورأيت ، خفت كثيرا شهوتى الحادة فى البقاء على قيد الحياة (١٢٩) » .

وفى القسم الرابع نبذ سويت الهزل والمزاح إلى شجب قوى ساخر للانسانية . فان أرض « الهويمن » يحكمها جياح نظيفة وسيمة بهيجة ، تنطق بالحكمة وتتحدى بكل مظاهر المدنية ، على حين أن الخدم الحرة راء فيها ، وهم « الياهو المتوحشون » ، هم رجال أفذار كريه ورائحة ، جشعون مخمورون ، غير متعقلين مشوهون . ومن بين هؤلاء المنحطين المنحططين (هكذا كتب سويت فى أيام جورج الأول) :

« كان هناك رجل حاكم من « الياهو » (ملك) ، أبشع شكلا وأكثر نزوعا إلى الشر والأذى من الآخرين . . . وكان لهذا الزعيم عادة شخص مثله محسوب عليه أثير لديه ، عمله الوحيد هو أن يلحق قديم سيده . . . ويأتى بنفسه الياهو إلى حظيرته ، ومن أجل هذا كان يسكافاً من حين إلى حين بقطعة من لحم الخمار (علامة على النبالة ؟) . . . وكان يبتى عادة فى عمله هذا ، حتى يمكن العثور على من هو أسوأ منه (١٣٠) » .

وبالمقارنة ، فان « الهويمين » ، لأنهم متعلقون ، كانوا سخفاء فضلاء ، ولذلك لم يكونوا في حاجة إلى أطباء أو محامين أو رجال دين أو قواد جيوش ، وصعقت تلك الجياد المهذبة « الماجنة » ببيان جليليفر من الحروب في أوروبا . كما ذهلت أكثر فأكثر لسماعها بالتخلقات التي أدت إلى الحروب — « هل يكون الجسد خبزاً أو يكون الخبز جسداً في القربان المقدس ، وهل يكون عصير ثمار معينة دماً أم نبيذاً (١٣١) » ، وكانوا يقاطعون جليليفر حين يفاخر بالعدد الكبير عن البشر الذي يمكن نفسه بالآلات العجيبة التي اخترعها قومه .

وعندما يعود جليليفر أدراجه إلى أوروبا ، نراه لا يسكاد يضيق برائحة الشوارع والناس الذين يبدو في نظره الآن أنهم من « الياهو » .

« استقبلتني زوجتي وأسرني بكثير من الدهشة لأنهم كانوا قد قدروا بماتي . ولكن ينبني على أن أعترف بصراحة أن منظرهم ملأني بالبغضاء والاستياء والازدراء . . . وما أن دخلت البيت حتى احتضنتني زوجتي بين ذراعيها وقبلتني ، من أجل ذلك رحت في اغمادة لما يقرب من ساعة ، لولا أنني معتاد على لمس هذا الحيوان البغيض (الإنسان) لأعوام طويلة . وطيلة السنة الأولى لم أكن أطيق وجود زوجتي وأطفالي معي ، حيث كانت رائحتهم لا تحتمل . . . وأول مال أنفقته كان في شراء جوادين صغيرين احتفظت بهما في أسطبل مناسب . وكان السائس أعز ما عندي بعدهما ، لأن الرائحة التي تنبعث منه في الأسطبل كانت ترد إلى روحي (١٣٢) » .

وفاق نجاح « جليليفر » كل توقعات اللؤاف وأحلامه وربما خفف من بغضه للجنس البشري بسبب حاسة الشم . واستمتع القراء باللغة الإنجليزية الواضحة في غير أطناب ، وبالتفاصيل المريضة ، وبالفحش المرح . وتنبا آربوثنوت للكتاب « رواجاً عظيماً مثل كتاب جون بانيان — يقصد كتاب « تقديم الحبيب » . ولا ريب أن سويفت يدين ببعض الفصل لهذا الكتاب ، وبفضل أكبر لكتاب « روبنسون كروزو » ، وربما بشيء من ١٩ - قصة الحضارة

الفضل لكتاب سيرانودي برجرارك « التاريخ الهزلى لدول امبراطورية القمر » . أما الشيء الجديد حقا فهو « الكلبية » أو السخرية الرهيبة فى الأجزاء المتأخرة من الكتاب . وحتى هذه وجدت من يعجب بها ، فأن دوقه مالبورو ، وقد بلغت آنذاك أرذل العمر ، غفرت لسويغت هجماتة على زوجها ، إلى جانب حملاته على الجنس البشرى بأسرة . وصرحت بأن سويغت أتى « بأدق وصف يمكن أن يكتب للملوك والوزراء والأساقفة والمهاكم . وروى جاي أنها « فى نشوة غامرة من الابتهاج بالكتاب ، ولا يمكن أن تحلم بشيء آخر » (١٣٣) .

وتكدر انتصار سويغت بنشر قصيدة كادينوس وفانيسا ، فان منفذى وصية هستر فانهم مرأى أذعنوا لأمرها بنشرها ، ولم يطلبوا من الكاتب ترخيصاً بذلك ، وظهرت فى طبعات مستقلة فى لندن ودبلن وادبره ، وكانت ضربة قاسية للزوجة ستيللا لأنها رأت أن عبارات الحب والهيام التى كانت قد وجهت يوما إليها ، تكررت لفانيسا ، ولم يمض كبير زمن على افتتاح هذا الأمر حتى مرضت ، وقصد سويغت إلى ايرلنده لعيادتها والتخفيف عنها ، وتحسنت صحتها ، وطاده هو إلى انجلترا (١٧٢٧) ، وصرطان ما ترامت إليه الأبناء بأنها تحتضر ، فأرسل تعليقات عاجلة إلى مساعديه فى الكاتدرائية بأن ستيللا يجب ألا تلفظ أنفاسها الأخيرة فى مقر رئاسة الكاتدرائية (١٣٤) ، وعاد ادراجيه إلى دبلن ، ومرة أخرى أثبت ستيللا بعض الشيء ، ولكنها توفت الحياة فى ٢٨ يناير ١٧٢٨ ، وهى فى السابعة بعد الأربعين ، وانهارت قوى سويغت ، واشتد عليه المرض فلم يستطع تشييع الجنازة .

وبعدها أقام فى دبلن « مثل فأر مسموم فى جحر » (١٣٥) ، كما كتب إلى بولنجبروك) . وكان يقوم بأعمال البر والصدقات ، وأجرى راتيا على منزله دنجلى ، ومد يد العون إلى ريتشارد شريدان فى محنة شبابه ، وكان فى ظاهره رجلا قاسياً ، ولكنه تأثر تأثراً بالغاً لفقر الشعب الايرلندى ، وصنع لكثرة عدد للتسولين من الأطفال فى شوارع دبلن ، وفى ١٧٢٩

أصدر أشد مقالاته التهكمية الساخرة ضراوة ولذعاً تحت عنوان « اقتراح متواضع لمنع أطفال الفقراء من أن يكونوا حالة على آباءهم وعلى بلدهم » :

« لقد تأكد لدى كل التأكد أن الطفل الصغير الصحيح الجسم الذي بلغ من العمر سنة ، يصلح لأن يكون طعاماً شهياً مغذياً صحياً ، إلى أبعد حد ، مطهراً بالغلي البطيء أو مشوياً أو محمصاً أو مسلوقاً ، كما يصلح بالنسبة لأن يكون « مفروماً محمراً ، أو مخنسة كثيرة التوابل » . ومن ثم فاني بكل تواضع ، أعرض على الرأي العام ، أعني من بين المائة والعشرين ألف طفل للموجودين الآن ، يمكن الاحتفاظ بعشرين ألفاً فقط لتربيتهم وتنشئتهم ، على أن يكون ربعهم من الذكور ، أما المائة ألف طفل الباقون فيمكن عرضهم للبيع إلى ذوي اللكافة والثراء في طول المملكة وعرضها ، مع نصيحتي دوماً إلى الأمهات بالإكثار من إرضاعهم في الشهر الأخير ، حتى تمتلئ أجسامهم ويكونوا مماثلاً تزدان بهم للوائد الفخمة ، إن الطفل الواحد يمكن أن يكون طعام يقدم للأصدقاء ، أما إذا كانت الأميرة تتناول غذاءها وحدها فإن الربع الأماي أو الخاني من الذبيحة يكون طبقاً كافياً ، وإذا تبل ببعض الفلفل أو للملح لكان طيب للذواق . . .

أما الذين هم أكثر تدبيراً واقتصاداً فيمكنهم أن يسلخوا الجلثة ، ويعالجوا جلدها بطريقة خاصة ليصنعوا منه قفازات لطيفة للسيدات ، وأحذية صيفية للرجال الأيقين

إن بعض الذين جزعوا لهذه الظاهرة اهتموا اهتماماً كبيراً بهذا العدد الضخم من المستن أو المرضي أو للمعدين وللشوهين ، ورغبوا إلى أن تعمل التفكير في الوسائل التي يمكن أن تتخذ لتخليص الأمة من هذا العبء الثقيل المحزن ، ولكني لا أتألم كثيراً لهذه السألة لأن المعروف جيداً أنهم يموتون وتبلى أجسامهم في كل يوم من البرد والجوع والقذارة والهوام ، بالسرعة المتوقعة بداهة . . .

وأظن أن مزاييا الاقتراح الذي عرضته واضحة متعددة . . .

وأولى للزاي ، أن هذا يخلصنا إلى حد كبير من عدد البابويين (اليسوعيين) الذين يجتاحوننا كل عام ، لأنهم للربون الأساسيون للأمة ، قدر مام ألد أعدائنا وأخطرهم ٠٠٠ وثالثها أنه من حيث أن تربية مائة ألف طفل من سن الثانية فما فوق ، لا يمكن أن يتكاف الواحد أقل من عشر شلنات في العام ، فهذا الاقتراح سيتوفر للأمة خمسون ألف جنيه سنوياً ، هذا بالإضافة إلى فائدة اللون الجديد من الطعام الذي يقدم إلى موأند ذوى الثراء والوجاهة ٠٠٠٠ الذين يتعلمون بالذوق الرفيع » ٠٠

إن نتاج يراع سوينف ، ذلك النتاج الغريب ، والثائر أحياناً ، وبخاصة بعد وفاة ستيللا ، يوحى بأنه قد أصابه مس من الجنون ، « إن شخصاً من ذوى المسكنة في إيرلنده (كان يصره أن ينهني كثيراً ليدقق النظر في عقله) اعتاد أن يقول لي أن عقلى مثل روح مسحورة ، قد يؤذى ويسىء إذا لم أشغله بشيء (١٣٦) » .

وتساءل أحد الأصدقاء : إن مبغض البشرية الكئيب هذا ، والذي تركته الأخطاء الصارخة في بيت من زجاج ، بينما هو يسلق البشرية بألسنة حداد من الهجاء ، ألا يغنى فساد الناس ومساوئهم جسدك ويستنزف روحك ؟ « » إن غضبه على العالم كان امتداداً لغضبه على نفسه ، فقد أدرك أنه على الرغم من عبقريته ، معتل الجسم مريض النفس ، ولم يكن يغتفر للحياة حرمانه من الصحة والأعضاء السليمة وهدوء البال ، والتقدم الذى يتناسب مع قوة عقله .

وكان آخر مظهر لقسوة الحياة على سوينف ، هو اختلال قواه العقلية يوماً بعد يوم . وازدادت بخله وجشمه ، حتى وسط أصدقائه وقيامه بأعمال البر . فكان يرضن بالطعام على ضيوفه ، وبالنبيل على أصدقائه (١٣٧) . وازدادت نوبات الدوار عنده سوءاً ، فما كان يدرى في أية لحظة منحوسة ينتابه هذا الدوار ليجمه يترجع ويتلوى من الألم فى هيكله أو فى الشارع .

وكان قد رفض أن يضع النظارات على عينيه فضعف بصره وترك القراءة .
ومات بعض أصدقائه ، ونأى بعضهم بنفسه عنه ، اجتناباً لحسنة طبعه
واكتسابه ، وكتب إلى بولنجبروك : « كثيراً ما فكرت في اللوت ،
ولكنه الآن لا يغيب عن ذهني أبداً (١٣٩) » وبدأ يتلهف عليه . واحتفل
بيوم ميلاده يوم حداد وحزن . وقال « ليس هناك رجل عاقل يرغب في
استعادة شبابه (١٤٠) » . وفي أعوامه الأخيرة كان يودع زائريه دوماً بقوله
« سمدتم مساء ، أرجو ألا أراكم ثانية (١٤١) » .

وظهرت أعراض الجنون التام عليه في ١٧٣٨ . وفي ١٧٤١ عين بعض
الأوصياء ليتولوا شؤونه ، ويراقبوه حتى لا يلحق بنفسه أى أذى في نوبة
من نوبات العنف والجنون التي تصيبه . وفي ١٧٤٢ عانى ألماً شديداً من
التهاب في عينه اليسرى التي تورمت حتى صارت في حجم البيضة . وأحاط به
خمسة من الأتباع ليحولوا بينه وبين قفء عينه بيده . وقضى عاماً لا ينطق
ببنت شفة . وأذنت محنته بالإنهاء في ١٩ أكتوبر ١٧٤٥ ، وقد بلغ الثامنة
بعد السبعين . وأوصى بكل ثروته البالغة اثني عشر ألف جنيه لبناء
مستشفى للأمراض العقلية . وورى التراب في كاتدرائيته ، ونقش على ضريحه
عبارة اختارها بنفسه :

« حيث لا يمود السخط المربر يمزق قلبه » .